الفرقان

البديل الأمريكى عن

القرآن

إعداد

إيهاب كمال محمد

الحرية

للنشر والتوزيع

٣ ميدان عرابى وسط البلد القاهرة

ت ٢٦١٥٦٤٦ - ٥٧٤٥٦٧٩ - ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١

كتـــاب : الفرقـــان البـــديـــل الأمريكـــى عن القرآن

إعـــداد : إيهـــاب كمـــال محمـــد

الناشـــر : الحر   للنشر والتوزيع

٠١٢٣٨٧٧٩٢١ - ٥٧٤٥٦٧٩

العنوان : ٣ ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة

رقم الإيداع : ٢١٣٧٧ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : ٤ - ٧١ - ٩٧٠٧ - ٩٨٩

المقدمـــة

وقف يوما رئيس وزراء بريطانيا المستر (جلاد ستون) فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك المصحف بيده وقال ما معناه أنه لابد من التخلص من هذا الكتاب حتى يمكننا السيطرة على المسلمين. فنهض أحد أعضاء مجلس العموم وأختطف المصحف ومزقه. فقال له مستر جلاد ستون لهذا العضو الغبى أن كتاب المسلمين فى صدورهم. فإذا أردنا التخلص منه فلابد أن ننتزعه من صدورهم)

كل هذا حدث منذ سنين طويلة.. ومرت الأيام وأصبحت أمريكا هى الوريثة للإمبراطورية البريطانية بل أصبحت ولأول مرة فى العصر الحديث القطب الأوحد المهيمن. والقوة العظمى الوحيدة فى العالم ولكنها لم تتعلم الدرس. إن كتاب المسلمين فى صدورهم فالمسألة ليست فى الورق بل فى الصدور.

ووجدنا الأمريكيين والإسرائيليون يطلعون علينا بالفرقان الحق ليكون بديلا للقرآن ومن التقرير الذى أورده الأستاذ/ مصطفى بكرى فى جريدة الأسبوع يتضح لنا أن هذا العمل هو مجرد هراء وعمل هزلى كما ورد فى تقرير الأزهر ومجلس البحوث.

وخلاصة القول أننا ندق مع الأستاذ/ مصطفى بكرى ناقوس الخطر لهذا العمل التخريبى. فقد تكون هذه التجربة هى بداية فقط والله وحده يعلم ماذا

سيستجد فيما بعد.

وقد كانت قضية العولمة هى القضية التى كانت تشغل مساحات واسعة من الفكر الإنسانى واتضح أن مشروع العولمة هو عمل تخريبى آخر من صادرات القريحة الأمريكية العفنة.

ولن تنتهى صادرات الفكر الأمريكى. والأهم من ذلك أن يكون لدينا تقنيات للمقاومة وأول هذه التقنيات هى الوعى بما نسجوه لنا من مؤامرات وصدمات.

وأخير نتوجه بشكر خاص للأستاذ/ مصطفى بكرى أول من نبه لقضية الفرقان هذا الكتاب القذر وكل الأسافل الذين ساهموا فى صياغته.

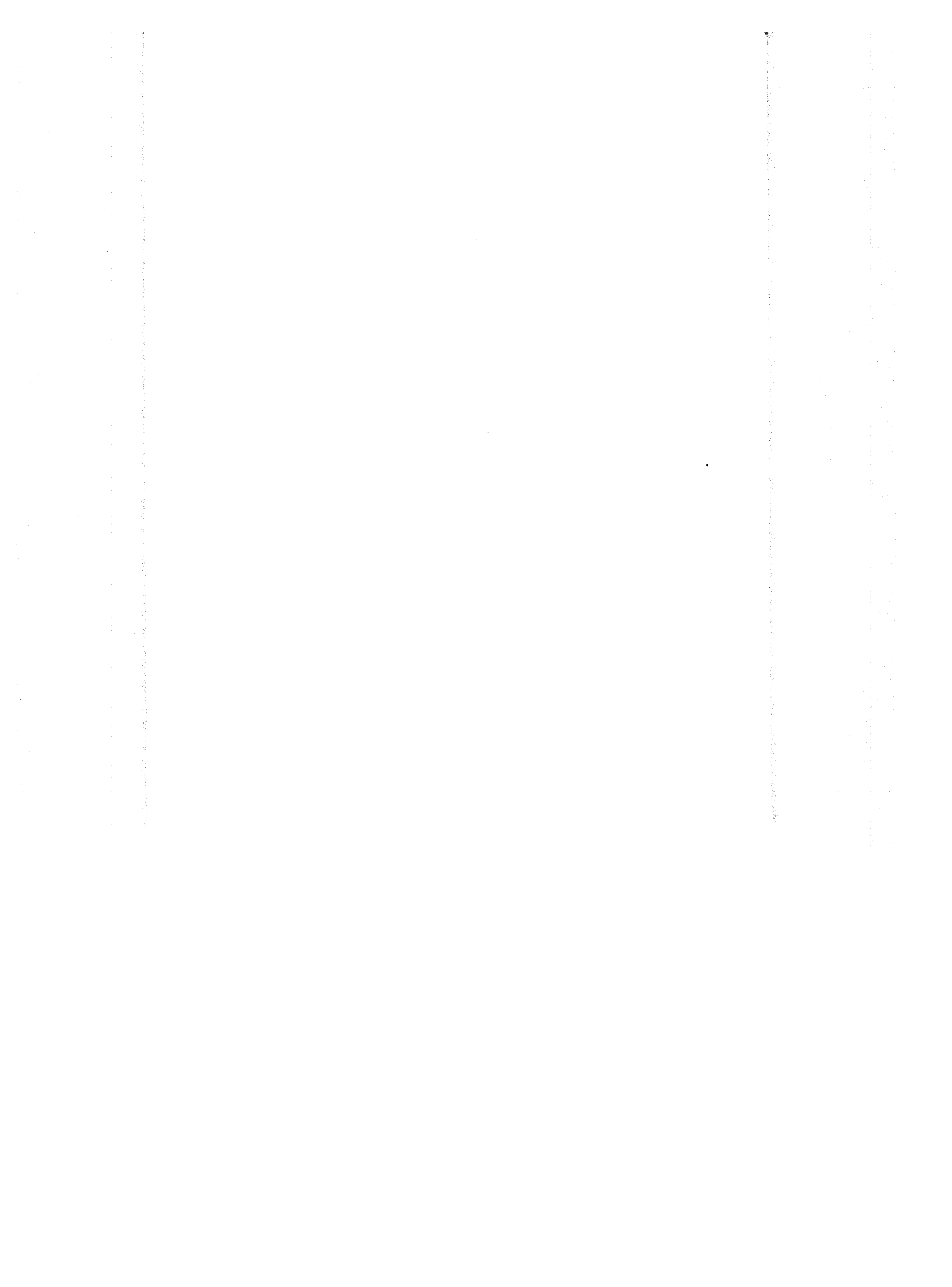
شرق أوسط خال من القرآن

مبادرة لشرق أوسط خال من القرآن الكريم

لا تخلو مبادرة أمريكية أو أوروبية للأصلاح فى الشرق الاوسط الصغير او الكبير من توصيات تتعلق بالاسلام ذاته لا بالمسلمين فحسب باعتبار الدين هو المصدر الرئيسى للتطرف والارهاب فالاسلام فى عرف كل هؤلاء عدو للسلام وخصم للحداثة ونصير للتخلف والقتل واطلاق الغرائز ومن ثم تأتى المبادرات الاصلاحية الخارجية لتضع الدين والثقافة الدينية فى صدارة اجندات التغيير بشكل مباشر لا يحتمل التأويل لكن ثمة عنوان مجازى يمثل قاسما مشتركا لكل صيحات الاصلاح فى الداخل و الخارج وهو تجديد الخطاب الدينى وأولى هذه الخدع اللفظية ان تعبير (الخطاب يخلط فى الفهم بين النص المقدس والتأويل البشرى وراحت الاقلام فى الداخل والخارج تكسر هيبة المقدس بألاعيب وحيل تمتلئ بها جيوب حواة عصر الامركه غير المقنعة وتصب جام غضبها على النص السماوى سواء بدعوى تاريخية النص بمعنى ان المقدس هذا لم يكن فاعلا الا فى سياق تاريخى لا ينبغى ان يتخطاه إلى ازمنة اخرى او بدعوى جدل النص الدينى كل هذا التفكيك الحادث كان لابد ان تتبعه دعوات اكثر سفورا تتخرط ضمن مفاهيم العلمانية الجديد او

العلمانية العولية وهى ليست كالعلمانية القديمة التى تخرج الدين من المعادلة وهذا الأستبعاد لا يمثل ازدراء للدين او هجوما عليها لكن ما بعد هذا السفور اخطر فقد استعرت المعركة ضد الاسلام من زاوية دينية او بالادق لحساب تأويل دينى يقوده حاخامات منظمة كاخ الدينية الصهيونية وجمعيتها التى تنفرد بهذا الدور التشويهى واسمها جمعية (يد لا حيم) اليهودية فتحت شعار (المتدينون قادمون) صرح الحاخام يوسف الزعيم الروحى لحزب شاس الصهيونى قائلا (ان الله لم يرض عن ذرية اسماعيل) العرب لانهم يكنون العداء لابناء اسرائيل وان الله نادم على خلقهم تعالى عما يصفون علوا كبيرا ويقوم يهود الارض المحتلة بدورهم الطليعى فى اعطاء صبغة الحرب الدينية على الصراع العربى الصهيونى وخلفهم ترسانة الغرب الامريكية بمزاجه اليمنى المسيحى الذى يرفع شعار صراع الحضارات ويبطن شعارات صراع الاديان بطريقة تهدد معنى الايمان وقيم السلام والتسامح التى رعته الحضارات الانسانية فى مختلف العصور والمهم ان جمعية (يد لاحيم) اليهودية الصهيونية قد اعتبرت كما جاء فى موقعها ووثائقها ان مهمتها الرئيسية تغير صوره الاسلام واصوله وصياغة قران جديد يخلو من صور العداء وذلك الامر مع احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقد انشأت الجمعية لهذا الغرض مركزين رئيسين اولهما فى تل ابيب وثانيهما فى القدس الغربية وضعت هاتفا مجانيا لمن يريد التعرف على ما اسمته بالقرآن الجديد وقد اعلن زعيم الجمعية (راب فيسك) انه مستعد لتوصيل الطلبات (الفتاوى الاسلامية) للمنازل لمن يريد التعرف على الاسلام الجديد ولا يقتصر دور هذه الجمعية اليهودية على مواطنى الارض المحتلة بل بيتعدى ذلك إلى اوروبا وامريكا لتقديم الاسلام الجديد للمجتمعات الغربية وهذا الدور الاعلامى يتوازى مع مخطط تربوى وتعليمى ينقل هذه الافكار الجديدة لاطفال اليهود ولاطفال العرب فى المدارس اليهودية والمختلطة والعربية فى فلسطين المحتلة

ومن الجدير بالذكر ان التعليم اليهودى بشقيه العلمانى والدينى التلمودى يلعب اكبر دور فى تكريس العنصرية ونفى الاخر غير اليهودى فالتعليم الاسرائيلى بحسب الباحثين لا يتجه لتربية وتثقيف الناشئين بل لتعذيبهم بالعنف والكراهية للاخر الفلسطينى وبالتالى فهو تعليم دينى له طابع ايدلوجى سياسى دينى فى مقابل تعليم او مناهج تعليم عربى اسلامى متروعة الدسم يتم تغييرها كل عام بعد نزع النصوص الدينية والتاريخية التى يعتبرها اصحاب الاجندة داعية للعداء مع الآخرين وعلى عكس هذه الصوره يحرص كل وزراء التعليم فى دولة الكيان الصهيونى على تاكيد ودعم تعاليم كهنة التلمود ودورها فى صباغة للفردالصهيونى بما يدعم استعداده للمعارك القادمة فاسحاق ليفى وزير التعليم فى حكومة (نتن ياهو) يقول بعد تولية الوزارة(ان هدف التعليم هو تعزيز الحافز وخلق الجاهزية للخدمة فى الجيش الاسرائيلى وفى قانون التعليم الصادر عام ١٩٥٣ والذى مازال ساريا فى الجيتو الصهيونى يؤكد ان التعليم فى الدولة يرتكز على قيم الثقافة اليهودية والولاء للشعب اليهودى وان خلاص الشعب يجب ان يظل مرهونا باحلام الشعب اليهودى.



الفرقان بديل القرآن

منذ فترة من الوقت كان الحديث يدور حول سعى أمريكى- صهيونى دءوب لتغيير بعض آيات القرآن الكريم، أو ممارسة الضغوط لحذفها وعدم الإشارة إليها، كان الناس لا يصدقون. ومع مضى الوقت بدأت الحقائق تتضح، وجرى بالفعل إستبعاد كثير من الآيات القرآنية من مناهج التعليم بالمدارس والجامعات، ثم أعلن عن إلغاء تدريس من المواد الفقهية والدينية. ثم إنتقل الأمر إلى وضع مادة (الأخلاق) بدلا عن التربية الدينية وجرى الحديث عما يسمى (بالخطاب الدينى الجديد) أما الآن فإن الحلقة الجديدة من المخطط كشف الوجه سافرا وصدرت الطبعة الأولى من كتاب (الفرقان الحق) سرا فى الولايات المتحدة و(إسرائيل) كبديل للقرآن الكريم مطلوب إعتماده لدى الدول العربية.

الكتاب الجديد أعد بمشاركة إسرائلية مباشرة مع الإدارة الأمريكية وإستغرق إعداده عدة سنوات و الهدف هو إلغاء القرآن الكريم نهائيا وتقديم (الفرقان الحق) كبديل يهيئ الرأى العام الدولى لإعلان الحرب الصليبية الثالثة ضد المسلمين والإسلام، وممارسة أشد أنواع القهر السياسى والاقتصادى والبدنى والعسكرى فى مواجهة المتمسكين بالعقيدة والرافضين للكتاب الجديد.

ويمثل هذا المخطط- الذى تنفرد (جريدة الأسبوع) بكشف تفاصيله- جرس إنذار لكل الغافلين وضوء أحمر لكل الصامتين على ذلك. يحرك فينا

إحساسا بالغيرة على العقيدة التى باتت مستهدفة بشكل مباشر خاصة بعد أن عاد بوش ورجاله يكررون حديثهم مجددا عن الحرب الصليبية الجديدة.

قد لا تصدق عزيزى القارئ هذه المعلومات. قد تصاب بالصدمة لكن تلك هى الحقيقة بلا تزييف وتلك هى الصورة بلا تجميل.

جاءت تعلمات مباشرة من الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى يقدم نفسه على أنه مبعوث العناية الإلهية، بعدها بدأت مجموعات يهودية دينية بمشاورة من قيادات كنيسة متطرفة فى الإعداد لهذا المخطط بإشراف مباشر من كبار الخبراء والمتخصصين داخل الـ (سى. آى. إيه) الأمريكية والموساد الإسرائيلى.

وقد إنتهى المتخصصون خلال الأيام القليلة الماضية من إصدار الطبعة الأولى للكتاب (الفرقان الحق) حيث يجرى توزيعها سرا على كبار المتخصصين. وهو جزء من ١٢ جزء أخر سيصدر تباعا وتحمل نفس الاسم.

وسوف يجرى فى وقت لاحق توزيع هذه الكتب على المكتبات الأمريكية والأوربية الشهيرة وكذلك على العديد من القطاعات الشعبية بالإضافة إلى المنتديات الرياضية والفنية لتحقيق أوسع إنتشار لهذا الكتاب الخطير.

وقد قررت جماعات يهودية متطرفة فى داخل (إسرائيل) وضع تفسيرات لهذا الكتاب الجديد والمقارنة بينه وبين القرآن الكريم لتصل من خلال هذه المقارنة كما هو واضح من أهدافهم إلى أن القرآن كتاب (بشرى) ولم يكن سماويا فى يوم من الأيام.

المخطط يمضى بحذر بالغ، لأنهم يعتقدون أن هذه المرحلة قد تصل إلى ثلاثة أو أربعة أعوام قادمة. الا أن أمريكا ستعمل خلال هذه الفترة على إضعاف الشرق الأوسط وتفريغ المنطقة العربية من القوة العسكرية الكبرى. فى حين يقوم شارون بتصفية من يسميهم بقادة (الإرهاب) الإسلامى، بحيث

يأتى الغزو الأمريكى الغربى لدول المنطقة بعد ذلك فى إطار تضحيات أقل وبتكاليف متدنية. وقد وضح من خلال تفاصيل هذا المشروع الجديد أن الحملة الأمريكية التى إنطلقت مؤخرا لنشر الديمقراطية وفقا للمفهوم الأمريكى وتغيير المناهج التعليمة وإنشاء قنوات ووسائل إعلام أمريكية فى المنطقة كلها محطات فى إطار الإعداد الذهنى للحرب الأكثر شمولا التى سيتم فيها، إما إجبار المسلمين على التخلى عن القرآن الكريم والأخذ بكتاب (الفرقان الحق) أو ممارسة كافة أشكال القهر والحصار فى مواجهة الرافضين.

وفقا للمخطط الجديد فإن كتاب (الفرقان الحق) لن يتم نشره فى البلاد الإسلامية فى البداية إلا فى أضيق الحدود وسيقتصر الأمر فى البداية على توجيهه لمخاطبة الشعوب الأوربية والأمريكية والإسرائيلية.

تقول أوراق المخطط الأمريكى- الإسرائيلى. إن ما كشفت عنه الحرب ضد الطاغية صدام حسين فى العرق أن أعداد كبيرة من الأوربيين والأمريكيين ما زالوا غير مدركين لأبعاد وخطورة المد الإسلامى. وأن تلك المظاهرات التى إنتشرت فى العديد من المدن الغربية من أجل وقف تيار الحرب على العراق أثرت كثيرا على النتائج المهمة التى كان من الممكن أن يتمخض عنها الإنتصار العظيم للأبن الصالح بوش ورفاقه المخلصين وتضيف أوراق المخطط أننا أمام مرحلة تاريخية جديدة علينا أن نستعيد فيها ذاكرة الغزو الإسلامى (البربرى) للعديدمن مدن العالم وقراه، فى هذا الغزو قام (البربر) والمسلمون بقتل الآلاف وتشريد الأطفال واغتصاب النساء وإجبار كل المدن والقرى على تغيير ديانتهم (الحقة) إلى ديانة (الباطل والزور) تحت مسمى (الإسلام).

وتقول الأوراق: ها هو الغزو البربرى الإسلامى يصل من جديد فى ثورة (الأرهاب) لقتل الأبرياء الشرفاء من أمة (المسيح) العظيم وأمة (موسى)

المضحية. لقد فتحنا لهؤلاء المسلمين قلوبنا ومددنا أيدينا لهم تارة نعلمهم فى بلدانا وتارة نذهب إليهم لتعليمهم فى بلدانهم ونقدم لهم المساعدات الإقتصادية ونعينهم على شئون الحياة، وحاولنا مرارا أن يكونوا فى مصاف بنى الإنسان المتقدم، وقلنا لهم كونوا على طبيعتكم واعتقدوا دينيا فيما ترونه. إلا أن هؤلاء طمعوا فى تسامحنا معهم وقرروا نشر الرعب والفزع والقتل والتدمير ومحاولة وقف التقويم الإنسانى.

وتقول الأوراق: لقد كشفت الأحداث الأخيرة بجلاء واضح أن الحرب على قرآنهم يجب أن تكون معلنة وأن يشارك فيها كل طفل وشاب وشيخ وامرأة من أمة المسيح العظيم وأمة موسى الضحية، لأنه لم يعد هناك خيارا آخر سوى الحرب وتخليص العالم من هؤلاء الأشرار الآثمين.

وتقول الأوراق: إن الجيوش الأوربية والأمريكية والجيش الإسرائيلى يجب أن تتحرك بعد ثلاث أو أربع سنوات فى ظل تأييد الشعوب ومباركتهم لهذا التحرك العظيم من أجل رفع راية العدل المسيحى واليهودى فى منطقة الشرق الأوسط لابد أن تثأر إسرائيل لقتلاها وضحاياها من هؤلاء المتخلفين وستكون أكثر تحضرا. حيث سنبدأ أولا بمحاصرة هذه الدول العربية والإسلامية زهاء الشهور حتى تعلن إستسلامها ورضوخها التام لمطالبنا التى سنحددها فى كتاب (الفرقان الحق) بأجزائه الإثنى عشر.

وتقول الأوراق: إن هذا الحصار العسكرى لحدود الدول العربية والإسلامية سيبدأ من تلك الدول المطلة على البحر المتوسط ثم التوغل إلى بقية الدول الأخرى مع إحكام القبضة على كل من مصر والسعودية وإيران وباكستان وأن الحصار لابد أن يكون شاملا ومانعا ومؤثرا على حياة هذه الشعوب الإسلامية، خاصة أننا قضينا عقودا طويلة فى إقناعهم والتودد إليهم بأن كتابهم المقدس (القرآن) مزيف وغير صالح لحياة البشرية، ومع ذلك ظلوا دائما على النقيض منا يعملون به ويروجون لأفكاره (المتطرفة).

وتقول الأوراق: إن الحرب التى ستخوضها ستكون أكثر دلالة وأهمية من الحربين العالميتين الأولى والثانية. ذلك أن الحرب الثالثة ستشن تحت شعار (توحيد العالم من أجل خدمة الإنسانية) وأن هذا الشعار لا يمكن تحقيقه فى ظل وجود القرآن.

وتستند الورقة إلى عبارة وردت فى الجزء الأول من كتاب (الفرقان الحق) تقول: إن يد الأخوة تمتد إلى كل البشر وأن المسيح أراد أن ينشر المحبة لتعم كل الأرض. وأن هذه المحبة فى الأرض هى المحبة فى السماء، فالبناء واحد والوعاء مشترك. ولا أحد منا يناقض ويختلف مع الآخر.

وتضيف الورقة الأمريكية- الإسرائيلية. إن هذا المفهوم لابد أن يحقق من خلال سيادة كتاب (العهد القديم والجديد) وكتب اليهودية (الحقة). إن الطريق طويل وشاق ولكنه يبدأ بخطوة والبداية قد تكون صعبة. إلا أننا عندما نصل إلى نهاية هذا الطريق سندرك يقينا حجم الإنجازات والروائع التى حققناها. الطريق سيكون مليئا بالأشواك وغير ممهد ولكن عندما نصل إلى نهايته ستكون الأذهان قد تفتحت على جانبيه، والأنوار قد أضيئت أمام البشرية جميعا. وقد يكون من الإجحاف أن تسعى إلى الغاء القرآن الكريم أو النظر إليه على أنه يمكن إصلاح بعض مواده ومضمونه. فهذا ضرب من الخيال وإغراق فى التفاؤل بدون مبرر. كمن يقول إن المسلم على إستعداد لأن يترك دينه من أجل ديانة أخرى فهذا لن يجدى لأنهم لن يفعلوا ذلك إلا من خلال الحرب وتدمير بلدانهم واقتصادياتهم ونشر الخراب والأمراض فى بلادهم حتى يستعيد من هو على قيد الحياة ذاكرة التاريخ ويتذكروا ما فعله أجدادهم عندما أرادوا أن ينشروا هذا الدين تحت مظلة السيف والتدمير إن المسيحيين واليهود لم يكن مسموحا لهم أن يحتفظوا بدياناتهم. ونحن علينا أن نجرعهم من نفس الكأس وليذوقوا مرارة ما حدث. ولكن فى هذه المرة سيكون التجرع للألم أو العذاب بالمرض والجوع من أجل أن يذهبوا إلى

طريق الحق والعدل والمحبة إن علينا أن نقنعهم بأن لدينا رغبة أكيدة بأن يشاركونا هم جنة الآخرة التى تتسع لكل البشر وأن تلك الجنة الوهمية التى يرون أنهم سيحصلون عليها ما هى إلا ضرب من الجنون. ذلك أنه ليس معقولا أن تتم مكافأتهم فى الآخرة على أعمال الخراب والتدمير للبشرية.

ويقول (شامحوم مينان) وهو أحد المتطرفين اليهود المشاركين فى لجنة العمل لنشر كتاب (الفرقان الحق) القدس هو بيت العبادة الأعلى لأمة موسى وعيسى. وإن السماح للمسلمين بإرتياد هذا المكان لأداء طقوس غير مفهومة. أو ممارسة إجتماعات إرهابية هو جريمة وذنب لن يغفره الله للبشر جميعا لأننا سمحنا لهؤلاء (الفاسقين) بإرتياد مكان عبادته الرئيسى.

ويضيف المتطرف اليهودى القول: أنا لا أفكر مثل ما تفكرون من أن يهدم معبد المسلمين (الكعبة) فهذا سيثير حنقهم وغضبهم إلى أعلى مراتب الإنفعال النفسى.. ولكن بمقدورنا أن نجعلهم ينظرون إلى الكعبة على أنها حجر كبير بناه الأسلاف وأنه ليس مكانا للعبادة. لابد أن نجعلهم يتوجهون معنا إلى قدس الأقداس فى مدينة القدس والسلام.

ويقول المتطرف اليهودى فى الورقة الخاصة التى أعدها ضمن أوراق العمل الأمريكية- الإسرائيلية المشتركة إن الأكثر أهمية هو الهدم الفكرى لمعتقدات راسخة وأفكار بالية ما زال يؤمن بها المسلمون ويعتقدون بأنها الأصوب. وأن كتاب (الفرقان الحق) الجديد لن يوجه إلى هذه الشعوب الإسلامية إلا بعد مرور سنوات من الغزو العسكرى ولكن أرى أن الغزو الفكرى لابد وأن يبدأ فى مرحلة متقدمة عن الغزو العسكرى. لأننا عندما سنذهب إلى بلادهم لابد وأن يكونوا قد أحيطوا تماما بالأفكار الجديدة والمبادئ الإيجابية فى هذه الكتب الجديدة.

ويرى المتطرف اليهودى أن أجزاء (الفرقان) الجديدة يجب ألا تكون

متعارضة بصفة مطلقة مع القرآن بل إن المهمة الأساسية التى يجب أن تكرسها هى كيفية تحقيق التلاقى بين كتبنا الدينية وكتابهم المقدس. فالأخير يحتوىَ على العديد منَ المبادئ الهدامة وغير المفهومة مع الآخرين إن هذه المهمة قد تبدو شاقة إلا أنه يمكن تحقيقها من خلال المفكرين والنابهين الذين سجلوا أروع ملامح التقويم الإنسانى فى العصر الحديث. فعلى سبيل المثال فإن واحدا من المبادئ المشتركة التى يجب أن يحرص (الفرقان الحق) على إبرازها هو ذلك المتعلق بحقوق المرأة وحقوق الإنسان والديمقراطية ذات المبادئ المتشعبة. فمثل هذه القيم تبدو فى الغالب متعسفة وغير قابلة للإلتقاء مع الآخرين. كذلك فإن هناك وسائل جديدة للتفرقة بين العمل المشروع وغير المشروع. وإن نشر هذا المشروع لن يعتمد فقط على الوسائل التقليدية فى نشر الكتب فالمهمة الأساسية هى إقناع كل الدول وشعوب العالم المتميزين بأننا فى سبيل لإنشاء هذا (الفرقان الحق) أو الكتاب الجديد للقرآن من أجل نشر الإخاء والمودة بين مجموع الإنسانية.

ويقول المتطرف اليهودى إن إحدى الأفكار المهمة أن كتاب القرآن هو الذى يحوى العديد من المبادئ والأهداف التى تتصادم مع سلامة الإنسانية. وأن الأعمال الإرهابية المتصاعدة يجب أن تختفى من الحركة العالمية حتى يصبح الإنسان موضع التقدم الحقيقى فى هذا العالم وفى ظل هذه الأوضاع العالمية الجديدة وقد أشارت المعلومات إلى أن الجزء الأول من كتاب (الفرقان الحق) قد تم توزيعه فى (إسرائيل) وأن هناك مجموعات يهودية متعددة ومتنوعة تعكف الآن على دراسة محتوى الأجزاء الأخرى من هذا الكتاب وأنهم أبدوا اعتراضهم على الجزء الأول لحجة أنه لم يتضمن إشارات قوية وصريحة إلى الدور (اليهودى) فى بناء الإنسانية وإلى الإسهام العظيم الذى قدمه اليهود للحضارة العالمية وكيف أن اليهود حاولوا مرارا التفاعل بإيجابية مع أبناء المسلمين وأن الآخرين رفضوا ألا يكون التفاعل إلا من خلال

معطيات رفض الدين اليهودى فى المقام الأول، وإجبارهم على إعتناق الدين الإسلامى فى المقام الثانى. وأن اليهود عندما تمسكوا بأسسهم الدينية كان نصيبهم السبى وتخريب ديارهم ومحاصرتهم وقتالهم.

ويرى المتشددون اليهود أن الحركة العدائية الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط الكبير تحديدا هى التى أدت إلى أن يسلبوا من اليهود كل منجزاتهم التاريخية والآن يحاربون دولتهم التى تكافح وسط العواصف الإقليمية التى لا هم لها سوى إقتلاع (إسرائيل) من جذورها وإلقائها فى البحر كما يرددون.

أما الفكرة الثانية التى تراها الجماعات اليهودية فهى ضرورة الإصرار على ألا يكون (الفرقان) الجديد مبشرا فقط بالديانة المسيحية ولكن يجب أن يبشر بلغة مشتركة ويفكر واحد عن الديانتين اليهودية والمسيحية معا. فاليهودية لن ترتدى ثوب المسيحية ولن نحاول أن تتعارض معهم. فكل منا يسير فى طريقه إلى الرب وفى هدى الإنسانية. إن حق الاختيار يجب أن يكون مكفولا لكل فرد فى هذا العالم إما بالتوجه إلى اليهودية أو المسيحية. وحتى يتم تحقيق ذلك فإن مبادئ اليهودية لابد أن تتعمق بقدر متواصل عبر كل الوسائل الحديثة.

وترى هذه الجماعات أن لديها ثقة كبيرة فى أن كتاب (الفرقان الحق) بأجزائه المتتابعة سيكون متميزا ورائعا فى إقناع المسلمين بضرورة تغيير خططهم والعمل إما على التهود وإما النصرانية.

ويقولون: إن المعركة القادمة يجب أن نكون فيها متكاتفين والعمل بروح واحدة ولغة واحدة ولا نترك أحد يسيطر على مقدرات الآخرين. فكذا إذا خرجنا من هذه المعركة كما لو بدا الغرب مكتسحا فى مبادئه وأفكاره فإن اليهودية ستنهزم مرة أخرى على يد التبشير المسيحى القادم فى هذه المنطقة. واقترح اليهود ضرورة أن يكون هناك جزءان على الأقل من (الفرقان الحق)

يتناولان فقط الديانة اليهودية وجزءان أخران على الأقل للنيل من أفكار ومبادئ الإسلام الهدامة وجزءان للتبشير بالدين الجديد فى العهد الجديد وجزءان خاصان بالمبادئ المشتركة الأساسية بين كل الأديان السماوية وجزءان عن مدى التحريف والضلال الذى أصاب كتاب المسلمين. ورأوا أيضا ضرورة التفكير بحزم وفى إطار متكامل فى كيفية تحقيق أكبر قدر من الإتساع والمعرفة لغالبية أفراد البشر. وأن تتم الإستفادة من الوسائل الجديدة للنشر وأن المستهدفين الأوربيين والأمريكيين والإسرائيليين لن يقتنعوا بتلك الأفكار الجديدة (للفرقان الحق) إلا من خلال إبرازها فى أكثر من شكل وأكثر من هدف وأكثر من وسيلة.

ويرى المتشددون اليهود أن نشر الكتاب وحده لن يحقق الغاية ولكن يجب استخدام كافة المؤثرات الصوتية والمجسمة الأخرى حتى يمكن أن يكون هناك مزيد من التواصل والتفاهم وبناء الثقة فى هذه المادة الجديدة.

ويرى نيكولاى ألفونس. الخبير المتخصص فى الـ (سى. آى. إيه) أن هدف هذا المشروع ينقسم إلى جزء ين رئيسيين.

أولهما: محاصرة المسلمين فى دولهم وسلبهم حرية التنقل إلى أمريكا والبلدان الاوربية وذلك فى إطار حصار الإرهاب الإسلامى والحد من حرية التكاثر فى العالم الإسلامى عن طريق إقناع المسلمين بالقوة.

ثانيهما: حتى يتحقق ذلك لابد أن يحتاط العالم الغربى من وجود المسلمين بين ظهرانيهم. فالبداية يمكن أن تكون من خلال منع أى تزاوج لأى غربية (يهودية أو مسيحية) بالمسلمين. لأن منع هذا الزواج المختلط سيترك أثاره المهمة فى الفترة القادمة على إنتشار أعداد المسلمين فى الدول الغربية أو تحركاتهم غير الإيجابية. وكذلك بالنسبة لزواج الغربى من مسلمة.

وعودة إلى كتاب (الفرقان الحق) الذى يجرى إنجاز كافة أجزائه على قدم وساق فالجزء الأول من الكتاب يحوى ٣٦٨ صفحة ومشروع الجزء الثانى يقع فى ٣٠٠ صفحة. ومشروع الجزء الثالث فيقع فى حوالى ٢٥٧ صفحة. مشروع الجزء الرابع فى حوالى ٣٠١ صفحة وهذه المشروعات ما زالت تخضع للتخطيط والكتابة. وإذا كان الجزء الأول قد صدر بالفعل فإن إيراد آياته المزيفة لن يمثل جديدا فى هذا التقرير ولكن يلاحظ على الجزء الأول أن أسماء سوره تتشابه بشكل رئيسى مع أسماء سور القرآن الكريم. فهناك فاتحة الكتاب وهناك سورة الأضحى وسورة الإعجاز وسورة الروح وسورة الكافرون وغيرها من السور.

أما مشروع الجزء الثانى فإنه يستمر فى ذات الإطار ولكن الجديد هو أن الجزء الثانى الذى لن يصدر إلا بعد معرفة ردود الفعل على الجزء الأول يبدأ بالفاتحة الثانية ومطلعها يقول (الحمد لله رب العالمين الذى هدانا للحق وإن إيماننا الخالص ينبع من نفسنا للبشرية بأنك إله واحد. وأن كل إنسان فى حاجة إلى نورك، مبادئك الواحدة تجسدت فيها البشرية الظاهرة للإخاء والمحبة والتعاون والسلام.

إن الدين الواحد بالمبادئ الواحدة هو طاقة النور التى تضيىء للبشرية طريقها إلى الله. وإن كل إنسان يهتم بهذا الدين من أجل سعادته ورقيه. الله فى السماء، الملائكة من حوله فى السماء والبشر فى الأرض. أخطاؤنا إلى السماء صاعدة ومغفرة الرب إلى الأرض قائمة فى كل وقت. وكل حال. والتسامح والأخلاق هما العنوان والأنطلاق نحو بناء المجد الأنسانى والتعاون بين البشر هو تأكيد دينى على البناء الشامل للتعاظم والتعاضد الإنسانى. فلتكن مسيرة البشرية بالمحبة والإخاء والتعاون)

ويتضمن الجزء الثانى أيضا سورة (القديس) حيث تقول:

(الطيب لا يؤمن إلا باله السماء والشرير لا يؤمن من إلا بآلهة الأرض تلك الآلهة التى ما كان لها مبتغى إلا النيل من كلمات السماء وتحريفها عن مواضعها الحقيقية حتى تبدو وكأنها متبورة ناقصة. غير ذات معنى، والطيب بحسه الصادق وإدراكه المتميز المتعالى هو القادر على أن يميز بين الحق وعدمه وبين الخير ونقيضه. بين الشر ومعانيه. إن آلهة الأرض لاطائل لهم إلا إقتتال البشر. وهدم منازلهم. وجعل لقمة عيشهم فى بيوتهم غير صالحة لأن يأكلها جائع آخر. هكذا أرادوا أن تكون الحياة. وهذه الإرادة الشريرة لا تعبر عن حياة السماء، إن العدالة جسدها المسيح عيسى. والنبى موسى ويسبقهما الكثير. وكان لإبراهام روح واحدة للعدالة إن حياة الأرض ستعلو شيئا فشيئا حتى تكون مثل حياة السماء فلنبدأ مجدنا المشترك بالأخوة والمحبة. إن إله السماء هو رب كل البشر وهو خالق كل البشر وجميعنا نعبده ولكن الآخرين (يقصد المسلمين) قصروا العبادة عليهم فقالوا (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) فهو تشبيه يضر بالإنسانية ويقسمها إلى طوائف غير متحدة فى المعانى والأهداف وأنماط الحياة. نحن نعيش على كوكب واحد وبكل ما فى هذا الكوكب يخضع للإله العظيم فالمخطئ يمكن أن يتوب والذى يحمل النفس المؤمنة أدرك سعادته فى جنة الآخرة فلنكن معا طريقا واحدا نعبد جميعا ما نحن عابدون من إله عظيم. ولا نقول لكم طريقكم ولى طريق. فالطريق واحد لأن الأمنية واحدة والهدف واحد فلابد ان تكون الوسيلة واحدة. عشنا وكلنا سيموت وسيكون لنا جزاء مشترك فى حياة الآخرة فالموت إذا كان بيننا رابط فالحياة بيننا رابط مشترك. أصلنا واحد. فلابد أن يكون ديننا واحد. قد نختلف فى اللغة وقد نختلف فى اللون. إلا أن ذلك لا يعطل مسيرتنا نحو بناء نموذج الإنسانية العظيم)

وفى سورة الموت يقول الكاتب: (الموت قادم لا محالة كل نفس ذائقة الموت. وكل إدراك يعلم أن الموت هو النهاية الطبيعية لكل مخلوق. ولكن الموت

دائمـا يقـول: إنتظرونى ولا تأتوا إلى. لا تحـاولوا أن تكونوا فى طريقى. أو تفعلوا ما يقربكم إلى. لأن الله عندما خلقكم فى هذه الحياة كان لتعميرها وتواصل أجيالها حتى يحين ميعاده فينهى هذا الكون...)

وهناك ايضا سورة الارض وهى ضمن الجزء الثانى وقد تم تسريبه من خلال إحدى الجماعات المسيحية اليهودية التى رأت ان صياغته ضعيفة ولا ترقى إلى قوة الجزء الأول تقول هذه السورة المزيفة التى تبدو وكأنها موجهة إلى الفلسطينين بالاساس (أيها البشر الارض واسعة عمروها بأيديكم وفكروا بعقولكم فارضكم ليست مقدسة وحدودكم ليست ثابتة فاجيال تتنقل وتترك الديار واجيال تحل وتتمسك بالديار فلا تجعلوا الارض أبدا مثار لخلافاتكم وعداواتكم فالعداء يولد البغض والحقد والكراهية والارض التى تحمل العداء بين البشر وبعضهم لابد وأن تتأملوا فى اركانها وأجزائها ستجدون ان الجزء الاكبر تشغله الجبال والصحراء الشاسعة وهى الاراضى التى لا يتحمل الانسان ان يطأ بقدميه عليها فطالما أنها ارض مهجورة وغير مأهولة ولا تحمل إلا الطبيعة المؤقتة فلماذا نقاتل بعضنا بعضا من اجلها؟ دعنا نعيش جميعا فى منزلى او منزلك أنت فى غرفة وأنا فى الأخرى وكلانا سيعمر هذا المنزل بمحاجه والروائح والياسمين الارض لله يورثها من يشاء ونحن عليها نعمرها ونموت فلماذا القتال؟ ولماذا الحقد والكراهية دعونا نعش فى هذا العالم بسلام لا اعتداء ولا عدوان من يمسك التفاحة بيده فهى له ولا يحق للاخر ان يدعى ملكيته لها ولكن على من يمسك التفاحة ان يعطى من يدعى الملكية جزءا من تفاحته حتى يأكل الاثنان وتصبح القسمة المشتركة بينهما عنوانا للحياة وهناك ايضا سورة الاسطورة تقول لقد جاء رجل عربى وبيده سيف باتر واسلحة مضاءة وهجم على قوم امنين فأنقادوا لافكاره تحت وطأة السيف والاجبار وعاشوا قرونا طويلة يحملون نفس الافكار ويجبرون الاخرين على اتباع مبادئهم الضالة حتى تزايدت اعدادهم واصبحوا هم المهدد لأمن

وسلامة البشرية لقد جاء الوقت الذى لابد فيه ان تتخلص البشرية من هذا الكم الهائل من تلك المعتقدات الموروثة خطأ والتى ما يعل بنيانها او تكتمل حلقات اكتمالها الا من خلال الاتصال بالآخرين وتحديدا أبناء المسيح وابناء اليهود)

الى هذا الحد وصل بهم التزييف فى كتابهم المزعوم

(ناهيك عن الكثير من السور الأخرى التى تمثل إهانة للاسلام وللمسلمين وأمام ما يجرى من تخطيط خطير يبدو المسؤلون غائبين عنه وعن ابعاده فإن المؤامرة تبدو هذه المرة جادة للغاية فى التنفيذ فقد اجتمع مؤخرا اعوان الشر والشيطان من اليهود والعديد من الملل والأجناس الاخرى ليبدأوا حملة واسعة تحمل عنوان (لا للقرآن نعم للفرقان) تمهيد لمنع طباعة القرآن الكريم ومنع تدريسه أو بثه عبر وسائل الاعلام ومعاقبة كل من يردد آياته بقى القول اخيرا: إن مرحلة الغزو الفكرى قد بدأت بالفعل من خلال المشروعات التى تطرحها الإدارة الأمريكية تحت عنوان وشعارات مختلفة إلا ان القادم سيكون الاكثر صعوبة والاكثر خطورة على دين المسلمين إن احد مفكرى هذا المشروع الشيطانى يقول إنه فى خلال العشرين عاما القادمة يجب ان يتخلص كوكب الارض من دين الاسلام والا يكون هناك مسلم واحد إلا قد حوصر فى افكاره وعقيدته فيعود الصليب من جديد معانقا لشعار داوود (نجمة داود) انتهى وبقى ان نقول (إن للدين ربا يحميه ولكن الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى الدفاع عن الدين والعقيدة قال تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) صدق الله العظيم.

ويقول تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

فهذا الكتاب (الفرقان الحق) ما هو إلا دعوة من اليهود الى مسح عقائد

المسلمين وتغييرها وصدهم عن الطريق المستقيم الذى أنعم الله علينا طريق الحق وقال تعالى فى كتابه العزيز وهو أصدق القائلين

(ولتجدن أشدهم عداوة للذين أمنوا اليهود)

فهذا ما جلبوا عليه وهو عداوة الاسلام والمسلمين فهم لا يريدون أن تقوم للإسلام أو المسلمين قائمة فى هذا الغزو الذى قد بدأ بالفعل وهم فيه يسيطرون على زمام أموره ولا يجدون من يردهم إلا قلة لا يستطيعون الصمود أمام جبروتهم ولكن هذه القلة مع ضعفهم المادى إلا أنهم أقوياء بدينهم ومنهجهم الذى يهدد طغاة العالم الأوربى بل طغاة العالم أجمع وهم من ارادوا النيل من الإسلام والقضاء عليه فبدأو يخططون للتخلص منه على طريق يزعمون أنها سريعة ولكن هذه الطريقة ما هى إلا مؤامرة ليحققوا بها أهدافهم ومطامعهم فهناك الكثير من علماء الغرب تعرف على الإسلام وأعتنقه بدون دعوى من أحد بل اكتشف أنه هو الحق بدون أى تأثير أو تزيين وهؤلاء الكفرة يريدون نزع القرآن من الأوراق ومن الصدور لانهم يعلمون حق العلم أن من يدرس هذا القرآن ويتعرف على تعاليمه وأسسه لن يجد غير الإسلام طريقاً له وهذا الكتاب الذى أسموه بالفرقان ما هو إلا جذب لأنظار شعوبهم أولا لكى لا يتعرفوا على تاريخهم الملئ بالأقذار وحثهم على تشجيع قادتهم وجيوشهم على التخلص من المسلمين خاصة والإسلام.

ولكن الله لن ينصر هؤلاء الكفرة ولن يخذل المسلمين ولن ينكس راية الاسلام لانه الدين الذى ارتضاه لعباده من بنى آدم إلى أن تقوم الساعة وقد ورد ذلك فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون) صدق الله العظيم فقد جعل الله رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين وارسل معه كتابا اعجز به أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء فى عصر البلاغة والفصاحة فهو الكتاب الحق الذى لا ياتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه لانه منزل من قبل رب العالمين.

اللغة اللاتينية بديلا عن اللغة العربية

الحروف اللاتينية بديلا عن العربية

يعد (الفرقان الامريكى) بديلا للقرآن انتهت الادارة الامريكية مؤخرا من اعداد مشروع خطير هدفه (تغيير شكل حروف اللغة العربية واستبدال اللغة اللاتينية بها تحت مسمى تحديث الثقافة العربية واعتبار هذا المشروع جزءا من خطة الإصلاح فى المنطقة والتى تدخل ضمن اطار مشروع (الشرق الاوسط الكبير) الذى سيجرى اعتماده فى نهاية شهر يونيو مقدمو المشروع وهم عدد من الخبراء المختصين يقولون إن الهدف من هذا المشروع هو تحقيق تفاهم افضل ولغة مشتركة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الاخرى وان الامريكيين والأوربيين متعطشون للوقف على اسرار تلك اللغة والعديد من الكتابات الهامة القديمة والحديثة التى نسجت العقل الثقافى العربى والاسلامى ويرى المشروع ان ما تمت ترجمته من العربية إلى اللغات الاخرى يبدو ضئيلا وقليلا للغاية ولم يتح التعرف على النواحى الدقيقة لهذه اللغة وما تحمله من ثقافات متباينة ويرى المشروع الامريكى انه كطبيعة اى لغة فإنها لابد ان تخضع اللغة العربية للتطوير والتحرر من تلك الاشكال القديمة التى ظلت عليها منذ قرون خاصة ان ذلك ادى فعليا إلى صعوبة كبرى فى استيعاب اهل الحضارات والاديان الاخرى لهذه اللغة او تعلمها او الاقتراب فكريا ممن يتحدث بها ويضيف المشروع (لقد واجهتنا مشكلة

حقيقية فى العالم بعد احداث ١١ سبتمبر وهى ان الارهابيين الذين يتحدثون باللغة العربية وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنجليزية او الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقى او الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الاحداث لان الترجمة العربية إلى اللغات الاخرى يبدو انها تواجه بمشاكل حقيقية نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان اسبابها الحقيقية ويقول المشروع إن العلوم الدولية لا تستطيع ان تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رمزوها وصعوبة اشكالها هذا فى الوقت الذى يستطيع فيه اهل اللغة العربية ومتحدثوها اتقان اللغة المشتقة من اللاتينية كالانجليزية والفرنسية بل وإن العرب يتحدثون هذه اللغات مثل أهلها تماما مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت اى ظروف وفى ظل اى مسميات للغات المختلفة) ويضيف المشروع الامريكى القول: (إن إدراكنا الحقيقى هو أن هناك لغة مشتركة يمكن ان تجمع بين كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية وهو ما يجعل من الصعب بناء تواصل فكرى معهم او معرفة دوافعهم النفسية ويقول المشروع (على مدى اكثر من ٦٠٠ دراسة وبحث متخصص تم اجراؤها بمعرفة الجهات العلمية المرموقة منذ عام ٢٠٠٢ وحتى اوائل عام ٢٠٠٤ فإن النتيجة الاساسية التى خلصت إليها هذه الدراسات هى أن صعوبة التقاء اللغة العربية مع اللغة الانجليزية كانت الدافع الرئيسى وراء موجة (الكره العربى) لامريكا واسرائيل والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الانجليزية والفرنسية ويرى المشروع الامريكى ان (المشكلة ليست فى ان يقرا غير العربى النصوص والافكار والكتابات العربية باللغة اللاتينية ولكن الاساس فى هذا المشروع هو ان يتحدث العرب هذه اللغة الجديدة ويطبقوها عمليا فى كل كتاباتهم حيث إن الهدف الرئيسى من هذا المشروع هو ان يتم تطوير دراسه مادة اللغة العربية فى كل المدارس العربية والإسلامية وان يتم إلغاء المناهج القائمة حاليا فى هذه المدارس التى تعتمد على دراسة قواعد اللغة والصور الجمالية وابداعاتها والكلمات والنصوص المتشابهة مثل الشعر القديم الذى ينتهى بحروف واحده واحيانا فإن مناهج التعليم لهذه اللغة تتضمن توجيهات ومبادئ دينية قد لا تتفق على

بناء التواصل مع الاخرين من غير العرب او كما يطلق عليهم فى البلاد العربية (الاجانب) ويقول المشروع (إن المنهج الجديد لتطوير هذه اللغة هو ان يتم الغاء كل الصور السابقه فى اطار حركات الاصلاح والسعى نحو تطبيق الحرية والديمقراطية فى اوسع معانيها وأن احد الاسس الهامة لذلك هو ان يتعلم التلاميذ والطلاب فى الجامعات وكذلك المثقفون طريقة جديدة لكتابة اللغة العربية والتعبير عن المعنى الذي يريدون توصيله الى الأخرين ويرى المشروع الامريكى ان الذى سيساعد على اقناع الدول العربية والإسلامية التى تعتمد أشكال هذه اللغة كمكون رئيسى لثقافاتها هو أن الكتابة على الورق بدأت تفقد الكثير من أهميتها التى كانت قائمة قبل ذلك وان الكتابة الالكترونية فى ذاكرة الحاسب ستصبح هى الاساس فى بناء التفاهم المشترك والتواصل مع الاخرين ويقول المشروع: (إن العرب يصرون الان على ان يكون حوار الحضارات والثقافات برنامجا حقيقيا من اجل التقريب بين الشعوب العربية والغربية وعليهم ان يدكوا ان تحقيق ذلك لن يكون إلا من خلال الاتفاق على تغيير اشكال اللغة اللعربية والتاثير على المحتوى الثقافى الذي يمكن ان تعتقد فيه الاجيال القادمة ويضيف المشروع الامريكى إن الهدف من هذا المشروع ليس تحرير اللغة العربية فقط من اشكالها التقليدية التى ظلت قائمة كما هى منذ آلاف السنين ولكن اساسا على الموروثات السلبية فى الانتقام والعنف والارهاب ويرى المشروع الامريكى ان (هذا التطوير الجديد ما هو إلا مرحلة جديدة من مراحل تطور اللغة العربية التى هى بذاتها تطورت فى الكتابة لما كانت عليه قبل الدين الإسلامى وانه مع محمد (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) كان هناك شكل اخر للكتابة وبعد محمد صلى الله عليه وسلم ظهرت العديد من الاشكال الاخرى ولكن الأساس انه حتى فى اطار الاشكال التى تطورت سواء قبل (محمد) يقصد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم او بعده فإن غالبا اتخذت هذه الاشكال تصميمات متقاربة مما جعل العرب انفسهم يشعرون بأن تطور لغتهم لم يكن كبيرا وإنما كان فى حدود ضعيفة اما اليوم فإن العرب والمسلمين مطالبون بأن يقبلوا بهذه الثورة الكبرى فى تطوير هذه اللغة واشكالها خاصة مع

انتشار الحواسب الالية ويقول المشروع (إن هذا التطوير سيعتمد قبل الانتقال إلى اللاتينية على عدد من الاعتبارات الاساسية ابرزها – الغاء التنقيط – التأكد من استقامة الحرف فما هو قائم فى اللغة العربية اصلا يعتمد على نوع من التعقيد المبالغ فيه كأن يأخذ الحرف شكل الارتفاع مثل (ع) او الانخفاض مثل (ح) وهذا يزيد من صعوبة تعلمها كذلك إلغاء ما يطلق عليه الحلقات المقفلة مثل (هـ) او (ة) الهاء والتاء المربوطتين مما يصيب بالارتباك حتى أن العرب انفسهم اشتكوا من هذه الحلقات المقفلة!!

كذلك تتميز هذه اللغة القائمة حاليا بنوع من التعقيد فيما يتعلق بمواقع الاتصال بالحرف او الانفصال مع ما قبله او بعده ويستند المشروع الامريكى الى دراسة اجراها (ماثيورت ماشار) فى مركز (الحضاره) التابع للخارجية الامريكية والذى يرى ان التلاميذ العرب والمسلمين يشكون من صعوبة هذه اللغة فى تشابهات حروفها التى لا تعكس تميزا بين الحروف وبعضها إلا من خلال التنقيط ويضرب بذلك امثله مثل: (ب، ت، ث) ،(ج،ح، خ) (د،ذ) (ر، ز) (س، ش)، (ص، ض)، (ط، ظ)، (ع،غ)، (ف، ق) حيث يرى ان هذا التشابه يعقد القدره على التعلم لفترة طويلة وان استيعاب التلاميذ لها لا يكون الا بعد مرور سنوات طويلة فى التعليم بالاضافة إلى ان انتشار الكتابة لابد ان يؤثر على إضعاف روابط التشابه بين هذه الحروف وبعضها وهذا هو الذى يؤدى عمليا الى كثرة الاخطاء فى الكتابة باللغة العربية هذا بالاضافة الى ان قدره الحرف على التطويع المرن تزيد من فهم واستيعاب هذه اللغة مما يعنى ان الاشكال القديمة حاليا للغه تعد غير قادره على التوازم مع الاوضاع الدولية الجديدة ويقصد بالتطويع المرن هنا اختلاف الخطوط فى اللغة العربية ما بين خط يطلق عليه نسخ واخر رقعه كما ان العرب انفسهم لا يكتبون بطريقة واحدة هذا فى الوقت الذى تبدو فيه حروف اللغة الانجليزية واضحة وسهلة وكذلك كل مشتقات اللغة اللاتينية كما ان تداخل الحروف فى هذه اللغة يؤدى إلى تداخلها فى مواطن كثيرة وقدرت الدراسة تغيير اشكال الحروف العربية لا يؤثر فقط على البلدان العربية ولكنه سيمتد ايضا الى افغانستان وايران ومالطا والهند وباكستان إلى كازاخستان وماليزيا

واندونسيا وغيرها وكذلك فإن اللغة البربرية (الهوسا) والسواحلية تستخدم الحروف العربية وهذه هى الاهمية الكبرى لهذا المشروع الذى يجب ان يشمل دراسة تغيير الاشكال إلى اللاتينية فى اطار معالجة الحروف العربية الـ ٢٨ بأشكال كتابتها المختلفة ويقصد بذلك دراسة اول الكلمة ووسطها وكذلك ما انتهت إليه من حروف بالاضافة إلى دراسة الحروف المتصلة والمنفصلة وتطالب الدراسة بضرورة ان يكون هناك تركيز خاص لعلاج مسألة الهمزة الواردة بأشكال متعددة فى هذه اللغة فاحيانا تكتب على السطر او تكون فوق اول حرف (أ) او تكون على حرف مثل (ؤ) وتقول الدراسة (ان هذه التجربة لن تحقق نجاحها إلا إذا تم الانتباه إلى ما يعرف بأدوات التشكيل فى هذه اللغة مثل (فتحة) (ضمة) و(كسرة) ويجب ايجاد بدائل لها فى تطوير اللغة مشيرا إلى ان العرب ارتبطوا بهذه الحركات الثلاث فى كتاباتهم واحيانا فى احاديثهم بل إن اللغة العربيةبلغت فى تعقيدها احيانا درجة تشكيل الارقام الحسابية ووضع هذه الحركات عليها وان هذا يبدو واضحا بشكل كبير فى كتابهم المقدس (يقصد القران الكريم) حيث إنه ذكر كل الارقام فى اشكال كتابية مشكلة مما يزيد من التعقيد القائم وتقول الدراسة يبدو ان العرب ادركوا صعوبة ذلك فى الكتابة وان هذا الشكل يعقد من افكارهم فلجئوا إلى اعتماد الارقام من خلال النقل من الطريقة الهندية التى تمثل الارقام التى يكتب بها العرب حاليا وان العرب فى ارقامهم لم يعتمدوا على الشكل القديم للارقام الهندية مثل (١٨) او (٣) وانهم اعتمدوا على الكتابة الحديثه للهنود وهذا يعنى ان العرب ادركوا منذ أمد الصعوبة فى تطبيق لغتهم وترى الدراسة الامريكية ان تغيير الاشكال فى اللغة يجب ان يمتد إلى تغيير كتابه الارقام لتكون الكتابة الامريكية والاوربية هى الوحيدة السائدة فى البلدان العربية خاصة فى الكتابات الرسمية او من خلال اوراق تحقيق الشخصية التى يحملها العرب وان احدى المشاكل المهمة للغة الارقام العربية هى أنهم يستخدمون ما يطلق عليه علامه الصفر (٠) والذى يمثل نقطه صغيره وهذه النقطة الصغيرة تكون باستمرار عرضه للتزوير والتبديل خاصة فى المعلومات المالية مما يمثل فى كثير من الاحيان تكاليف باهظة او تحقيق خسائر كبيرة

ويقول المشروع (إن قطاعا مهما من الدول العربية خاصة فى بلاد المغرب العربى ادركوا بالفعل ان الارقام العربية ليست صائبة فى ابرز الترقيم ولذلك تخلوا عنها واتجهوا إلى كتابة الارقام باللغة الاجنبية كما ان العديد من المثقفين العرب والطلاب فى الجامعات لا يستخدمون الترقيم العربى إلا نادرا ويلجئون إلى كتابة الارقام الاجنبية لسهولتها تمييزها يذكر هنا أن المشروع قد اثير فى عام ١٩٨٤ من جانب الولايات المتحدة وبعض الدول الاوربية واقتصر فقط على الدعوه إلى كتابة الارقام الاجنبية والغاء الارقام العربية وأن الخارجية الامريكية استقدمت ما يزيد على ١٠٠اكاديمى عربى على مراحل مختلفة لاقناعهم بهذه الفكرة إلا أن المجمع الفقهى الاسلامى وهيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية تصدوا لهذه المحاولة وايدوا بقاء الارقام العربية كما هى ويقترح المشروع الامريكى الاعتماد فى الكتابة الجديدة للغة العربية على الاشكال الهندسية مثل المثلث والمستقيم والدائرة حيث يرى المشروع ان المشكلة المعقدة فى الاشكال الحالية للغة العربية هى ان اشكالها وحركاتها تزيد على ٩٥ شكلا او حركه وهذا هو بالاساس الذى يجعلها من اصعب اللغات فى التعلم او القدرة على فهم محتواها وتفاصيلها إلا ان الدراسة تبدى دهشة انه وعلى الرغم من هذا التعقيد إلا ان الكتاب المقدس للعرب يقصد القران والمكتوب بهذه الاشكال العربية لاقى انتشار كبيرا حتى فى البلدان العربية الاسلامية التى لا تتحدث العربية اصلا ويقول المشروع (اننا يجب ان نقنع العرب والمسلمين ان ترجمة هذا الكتاب المقدس (القران) إلى اللغة اللاتينية وتغيير اشكال الحروف العربية سوف يؤديان إلى انتشار اوسع له وبالتالى سيزيدان من قوتهم وقد اشار احد الذين اعدوا هذا المشروع وهو (تيودورهارتزول) إلى (أن واحد من الاغراض الرئسية لهذا المشروع الامريكى هو نشر نسخة منقحة ومعدلة من القران الكريم بتلك اللغة الجديد التى ستقدمه فى هذه النسخة المعدلة أنها ستكون معتمدة ايضا فى داخل البلدان العربية و الإسلامية هذه البلدان سيوافقون عليها كما أن هذه الاشكال المبتكرة ستتيح لاول مرة ادخال العديد من التعديلات الإيجابية على هذا الكتاب الذى يتضمن العديد من المبادئ والافكار التى تخص على عدم

التعاون مع الاخرين ونشر العنف والكراهية ويقول المشروع (إنه في إطار المطالبة بتعديل النص العربي الحالي للكتاب المقدس للمسلمين (القرآن) فإن هناك صعوبة بالغة تصل إلى حد الاستحالة وأن واحدا من الخبراء العرب المرموقين اكد مرارا انه من المستحيل ان تجد شخصا في العالم العربي الاسلامي يوافق على تعديل الكتاب المقدس (القرآن) باللغة العربية القائمة حاليا وان اى جهد دولي في هذا الشأن سيكون لاقيمة له ولكن الخطوة الاساسية في هذا التعديل تكمن في ان يوافق العرب على تغيير شكل الكتابة ثم تبدأ الاشكال الحالية للغة العربية في الاندثار شيئا فشيئا لتحل محلها الاشكال الجديدة للغة اللاتينية ويرى المشروع ان (نقل الكتاب المقدس (القران) باللغة والاشكال الجديده في البداية يجب ان يكون أمينا ودقيقا لان هذا الكتاب المقدس (القرآن) سيكون مُراقبا بدقة من العديد من الهيئات الدينية ورجال الدين في الدول العربية والاسلامية وانه من الاساسيات المهمة ان يتم تبديل وتغيير هذا الكتاب في مراحل لاحقة ويرى المشروع ان (تغيير الكتاب المقدس (القرآن) يجب ان يتم بشكل تدريجي وبطئ على الوجه التالي:

الخطوة الأولى: أن يتم التعبير عن الاية القرانية في البداية بفكره جديده ولكنها تؤدي ذات المعنى .

الخطوة الثانية: التعبير عن الاية بفكره قريبة منها .

الخطوة الثالثة: تغيير فكره الاية دون اصتطدام مع الفكرة الاصلية.

الخطوة الرابعة: تغيير الفكره بما يؤدى إلى التشكيك في الفكرة الاصلية.

الخطوة الخامسة: زيادة الالفاظ والعبارات في ذات الفكره لزيادة مساحة التشكيك في الفكره الاصليه.

الخطوة السادسة: القبول والاقناع بتفسيرات جديدة لهذه الفكرة لزيادة معناها الذى كان قائما لفترات طويلة في اذهان الناس.

الخطوة السابعه: دراسة ردود الفعل حيال كل الخطوات السابقة من الاخرين ومجابهة المعترضين على التغيير البطئ.

الخطوة الثامنة: تغيير الفكرة الاصلية واحلال الجديد ه محلها بشكل نهائى.

الخطوة التاسعة: دراسة المحتوى العام للايات السابقة واللاحقة ومدى توافقها مع الفكره الجديدة من حيث تعديل الالفاظ التى تم تعديل الاية تبعا لها.

الخطوة العاشرة: اتساق محتوى الأيات السابقة واللاحقة مع الاية التى تم تغييرها وذلك من خلال العوده من جديد الى الخطوه الاولى ويرى المشروع الامريكى (انه مع التقدير لاستخدام الاشكال الاساسية والهندسية فإن الكتابة الجديدة لابد ان تكون مختصرة ومؤدية للغرض من اقرب الطرق الممكنة فإذا كانت اشكال اللغة العربية قد احتوت على ٩٦ او٩٧ شكلا فى الكتابة فإن هذا يمثل أحد الاخفاقات المهمة لهذه اللغة فى التعبير والتواصل مع الاخرين فى حين انه من المقترح الا تزيد الاشكال الأساسية فى الكتابة على سبعه او ثمانيه اشكال).

والمدهش وفق هذا المشروع انهم سيحددون طبيعة التوجهات العدوانية أو المسالمة للعرب من خلال دراسة خطوطهم باشكال الكتابة الجديدة ولذلك فإن عددا من خبراء علم النفس اشتركوا فى اهداد هذا المشروع راوا ان تغيير اشكال الحروف العربية سيقلل من حدة العداء والكراهية (المتأصله) لدى المواطنين العرب ضد امريكا والغرب بصفه عامه كما يقولون ويضرب معدو المشروع امثلة علمية فى ذلك بالقول ان الذى سيكثر فى الكتابة من استخدام شكل الزوايا الحاده وهذا يدل على انه عدوانى وعلى هذا الاساس فإن الشخص لابد ان يخضع للمراقبة وكذلك تعديل اتجاهاته لإلغاء هذا السلوك العدوانى اما الشخص السوى فهو الذى سيعتمد على استخدام الاشكال الجديدة للكتابة من خلال الاعتماد على شكل الدوائر الموسعه التى ستحل محل الحروف العربية فى اللغة الجديدة مثل (أ) تصبح (A) و(ب) تصبح (B) ووفقا للتحليل النفسى الذى جرى الاعتماد عليه فى هذا المشروع فإن استخدام الدوائر الواسعه والخط المرتب سيكون دليلا على الارتياح النفسى لابد ان يعبر عن توافق نفسى مع المفاهيم الامريكية عن الإصلاح والتحديث ليس فى مجال اشكال اللغة العربية فحسب ولكن فى كل المجالات الاخرى

ويقول المشروع ان الحروف اللاتينية الجديدة التى يعتمد عليها المشروع الامريكى تعتمد على عدد من الاشكال الهندسية المحاسبية الجديدة والتى ستقتصر على ٧ اشكال فقط حسبما اكد المشروع ووفق المعلومات فإن هذه الطريقة ستعنى فعليا تغيير فهم الثقافة العربية كما انها ستعمل حتى فى اطار العرض الامين للقران الكريم على ان يكون هذا العرض مشوها كما انه يخالف تماما ويتناقض مع المبدأ السماوى المستقر والثابت (إنا انزلناه قرانا عربيا) وتشير التقديرات إلى أن المشروع وعلى الرغم انه فى طور الدراسة إلا أنه يتوجب انه يواجه بمعارضه قوية وأن هذه المعارضه يجب ألا تقتصر على رجال الدين والهيئات الدينية فقط بل يجب ان تمتد إلى كافة الجهات المعنية خاصة ان الامريكيين والاوربيين يتعاونون معهم فى تنفيذ البرامج العلمية من اجل وضع هذه الافكار موضوع التطبيق العلمى ولذلك فإن الدعوات التى اطلقت قبل ذلك حول تغيير الفاظ القران الكريم او الغاء بعض الايات التى تحض على الجهاد وكراهية اليهود كانت تمهيدا لهذا المشروع وجس نبض العرب وعما إذا كانوا مستعدين لتغيير اشكال كتابتهم والقبول بالقضاء على لغتهم العربية ام لا ويقول المشروع (إنه عندما وجد المخططون ان العرب والمسلمين يرفضون بشدة المساس بالقرآن او تبديله او تغيير محتوياته قرروا ان يعتمدوا على الاسلوب البطئ جدا فى التغيير وأن يكون هذا التغيير من خلال تغيير اشكال اللغة العربية خاصه انه كتاب جديد اعد باسم (الفرقان الامريكى) حاليا ووفقا لما تسرب عن المشروع الامريكى السرى فإنه تم اعداد حوالى (١٠٢) جدول مرفقا يبين حروف اللغة العربية مقارنة بالأوضاع الجديدة التى ستكون عليها وان هذه الجداول لا تقوم فقط على فكرة المقابلة بين الحرف العربى وما يناظره لاتينيا بشكل حديث بل إيضا من خلال إعداد قاموس جديد لتبيان معانى الالفاظ والكلمات التى يراد استبدالها او القضاء عليها فى العربية لتحل محلها الفاظ جديدة لا تعتمد فقط على الحروف المقابله وهناك مقترح يتضمنه المشروع ويقضى بالغاء لفظه (اليهود) على سبيل المثال من اللغة العربية لتحل محلها فى الاشكال الجديدة لفظة (الساميون) والتبرير المطروح فى ذلك ان لفظة (اليهود) ارتبطت دائما

لدى العرب باشياء بغيضة والزعيم بانهم اناس خانوا رسول المسلمين وقاموا بارتكاب الكثير من الاخطاء فى حق العرب وان لفظة (اليهودى وشعوب الشرق الاوسط بل إن العديد من المثقفين والمسئولين العرب عندما يريد أن يقدح (إسرائيل) بأقوى الشتائم والادانات فإنهم يؤكدون على انهم (يهود) اى لهم تراث غير جيد ومنفر لكل العرب) ويقول المشروع (إنه إذا كان هذا اللفظ يثير مثل هذه التأويلات فان اللغة الجديدة يجب أن تتخلى عنه ليحل محله لفظ (الساميون) وهو لفظ مقبول جدا لدى العرب وهو يدل على السمو والارتفاع بالأخلاق ويعترف المشروع بانه فى حال نجاح هذه الخطة الجديدة فإن الكثير من الافكار الأوربية الجديدة ستدخل إلى الحضارة الاسلامية التى يجب ان تنقى من الشوائب والاختلافات التى كانت سببا فى تشجيع الافكار الارهابية وضرب المدن العربية) ويقول المشروع فى هذا الاطار (إن الحضارة الإسلامية على صورتها الراهنة تتناقض مع مبادئ الماديات الحديثة او اللغة الدولية فى بناء التواصل الفكرى كما ان هذه الحضارة بطبيعتها متعصبه وان هذا التعصب يقود إلى الأصتطدام المباشر مع الحضارات الاخرى وانه قد حان الوقت للقضاء على هذا التعصب وذلك بعد أن فشلت البرامج الحوارية او برامج تبادل الطلبه)

– المهم ان المشروع الامريكى عبر عن تفاؤله وطموحه زاعما ان (الشباب والتلاميذ فى المنطقة العربية سيرحبون بهذا المشروع الجديد لان الدراسات الحديثه اثبتت انهم اكثر انفتاحا على العالم الغربى والحياة وأنهم لا يتمسكون استمرار الصراعات مع اسرائيل والغرب وأن لديهم طموحا فى ترسيخ العلاقات مع الغرب تلك إذن هى ملامح المشروع التآمرى الجديد وهو يتفق مع خطة استبدال (الفرقان الامريكى بالقران الكريم التى نشرت (ويبقى السؤال ماذا نحن فاعلون؟

هل سنصمت انتظارا للكارثة التى يبدو انها ماضية بكافة السبل ام أننا سنتحرك ونقول (لا) لمحاولة طمس هويتنا والقضاء على عقيدتنا بل ووجودنا من الاساس.

الأزهر ومجلس البحوث (عمل هزلى)

رد الأزهر ومجلس البحوث عمل هزلى

اول صدمة تلقاها المسلمون هى صدور الطبعة الاولى من الكتاب المزعوم فى الولايات المتحدة الامريكية والذى تم نشره فى فلسطين المحتلة (كبداية) منذ اوائل شهر مايو الماضى الصدمة الاخيرة تلقتها القاهرة بعد ان طلبت الادارة الامريكية طبع الكتاب الجديد فى مصر وعدة دول عربية واخيرا ارسلوا نسخة منه إلى مجمع البحوث الاسلامية عبر جهات امنية لابداء الرأى فيه وهكذا وصلنا إلى ذروة الكارثة التى لم يجد مجمع البحوث الاسلامية بدا امامها سوى ان يسارع باصدار بيان هام يندد بتحريف القرآن وبالكتاب المزعوم والذى وصفه بالعمل الهزلى (كانت جريدة الاسبوع) قد دقت ناقوس الخطر وقالت جريدة الأسبوع إن الكتاب أعد بمشاركة إسرائيلية مباشرة مع الإدارة الامريكية واستغرق اعداده عدة سنوات وانتهوا من اصدار الطبعة الاولى من (الفرقان الحق) باعتباره جزء من ١٢ جزءا اخر ستصدر تباعا وتحمل نفس الاسم يقع الكتاب فى حوالى الف صفحة ومكتوب بالخط العثمانى باللغة العربية ويقابل كل صفحة اخرى مترجمة للانجليزية وقد اتخذت الصفحات نفس الشكل الذى تتخذه صفحات القران الكريم واحتوى

فى مادته على سور مثل سوره المؤمنون التى استبدلوها بسورة اسمها (الكافرون)

دهشة

كانت الدهشة اول رد فعل للشيخ إبراهيم عطا الفيومى امين عام مجمع البحوث الاسلامية الذى تلقى نسخة من الكتاب المزعوم وصارع بإصدار بيان ندد فيه فضيلته بالمحاولات الغربية لمهاجمة الاسلام والثوابت الاسلامية عن طريق العمل على تحريف القران الكريم ونشر العمل المزعوم على شبكة الانترنت وتعجب الامين العام من إصرار الحضارة الغربية على الدخول فى صراع مع الحضارة الاسلامية بالعمل على التداخل فى ثوابتها بالمسخ او التبديل واضاف البيان على الرغم من ان الهجوم على القرآن ليس امرا جديدا بل ارتبط ببدء ظهور الاسلام واستمر مع الايام طعنا فى معناه والفاظه ومرادفاته وسوره واياته وكيفية نزوله وجمعه وكتابته وقصصه وايات احكامه وغيرها إلا انه لاول مرة تأخذ الحملة بعدا جديدا فريدا وهو وضع عمل كتب على نهج الرسم العثمانى وبصياغة توهم القارئ انها ايات قرانية وتم وضع هذا العمل الهزلى على شبكة الانترنت تحت مسمى الفرقان الحق واكد الامين العام فى البيان على انفراد القران الكريم بين الكتب السماوية التى سبقته بتوثيقه توثيقا مكينا وصل إلى الذروة حيث قال الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وما حفظه الله لا يمكن لاحد على وجه الارض ان يضيعه البته بينما اوكل الله حفظ الكتب السماوية إلى علمائها .

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (سورة المائدة ٤٤) واكد الامين العام على امتناع تحريف القران الكريم بحفظ

الله له في قلوب اهل التوتر وتيسيره للحفظ قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر :٤٠) فالقران الكريم محفوظ في قلوب الوف مؤلفة من المسلمين لا يحصى عددهم إلا الله ولهذا إذا وجد مصحف يخالف حفظ الناس تنبهوا له على الفور واضاف الامين العام انه لو اعدمت المصاحف كلها من الارض لم يقدح ذلك في نقل وتواتر القران الكريم كما انزله الله لأن حفظ القرآن غيبا فرض كفاية على الامة بل إن تعليمه وحفظ قراءاته فرض كفاية أيضا لئلا يتقطع التواتر فكيف يتطرق اليه التحريف وكم حاول أعداء الأسلام أن يطبعوا طبعات مزيفه من المصاحف ادخلوا فيها عبادات ليست من القران و انقصوا منه ايات لكن سرعان ما انكشف الامر ووقف الناس على مواضع الزيادة والنقصان فذهبت جهودهم المبيته ادراج الرياح وصار امرهم كما قال الشاعركناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها واوهى قرنه الوعل واختتم الأمين العام تصريحاته بانه لا غرابة من أن نجد مثل الذي نجده على شبكة الانترنت اليسوا هم القائلين (متى توارى القران والكعبة يمكننا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدا عن محمد وكتابه) فلا غزو إذا ان يأتي هذا الكلام مطابقا لما صرح به رئيس وزراء انجلترا سابقا (جلاستون) انه مادام هذا القران موجوداً في ايدي المسلمين فلن تستطيع اوروبا السيطرة على الشرق ولا ان تكون هي نفسها في امان واضاف ان هناك اربع عقبات امامنا للقضاء على الاسلام وهي (المصحف والكعبة والازهر وصلاة الجمعة) فلذلك هم واهمون بالقضاء على القران بكل الحيل والطرق وما اشبة اليوم بالبارحه ففي الماضي قالوا لرسول الله إئتنا بقرآن غير هذا او بدله واليوم يبثون سمومهم في هذا الافك الارعن واضاف فضيلته انه على الرغم من خطورة العمل إلا انه لا خوف على ابناء الامة الاسلامية من هذا الهراء وليأتوا بكل ما لديهم حتى يتحقق قول الله ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الاسراء ٨٨) وقوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة ٢٣، ٢٤) وعلى الرغم من عدم الخوف ينبغى ان تكون هناك يقظة لما يحاك ضد القران بليل وتبصير شباب الامة بذلك وتمكينهم من دين ربهم والاستمساك بأوامر الله عملا بقوله تعالى ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٤٣، ٤٤) واختتم البيان بالتاكيد على ان الازهر الشريف من واقع مسئوليته الدينية والقانونية لن يسمح لاى نسخة بها أخطاء للدخول إلى ارض مصر وسوف يستمر الازهر فى اداء رسالته معلما قران ربه إلى طلابه فى معاهده ملقنا إياه للوافدين إليه من بلاد الدنيا وسيترك هؤلاء المارقين ينفقون اموالهم على الافتراءات والاكاذيب السمجة التى لن يجنوا من ورئها سوى الحسرة والخسران والندم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة الانفال٣٦، ٣٧) هذا وقد اخبر الله سبحانه وتعالى ان هؤلاء الملحدين والصليبيين لا يخفون عليه فهو يعلم ما تكنه صدورهم من الحقد الدفين والكره العظيم لكتابه الكريم فقال وهو اصدق القائلين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصلت ٤٠، ٤٢) وحينما اغلقوا قلوبهم وصموا اذانهم عما فى هذا الكتاب من الهداية والرشاد طردهم الله من مجال البشر

إلى حظائر البقر.

قال تعالى: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون)

والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية ابراهيم عطا الفيومى

فى اى جبهة سنحارب

هذا هو السؤال الذى يجد المسلمون انفسهم مضطرين للإجابة عنه رغم انهم لا يجدون اجابة فى الغالب فمن اى الاجناب نبدأ بالدفاع عن الدين والارض والعرض؟ وكم معركة مضطرون نحن لدخولها مع الغرب والإرث الاستعمارى الصليبى القديم ونحن فى اسوأ حال لكن فى جعبة الشياطين كثير من المواجهات القادمة من غزو الارض باكبر عتاد وعساكر فى التاريخ إلى غزو العقول والقلوب بالفضائيات الموجهه والصحف المدنسة بافكار الاستسلام والديمقراطية الامريكية وحتى إصدار كتاب مواز للقران (من وجهة نظرهم) فربما يكون تاثيره على هؤلاء المسلمين الفقراء المرضى الارهابيين افضل من تاثير منشورات بوش التى كانت تطيرها الطائرات على ارض العراق.



أمريكا صورة جديدة لصيغة قديمة

حين إنتشرت الأخبار عن كتاب «الفرقان الحق» ذلك الهراء المكون من أجزاء والذى أعد فى أمريكا وساهم اليهود فى تأليفه ليكون بديلا عن القرآن تذكرت حادثة جرت منذ آلاف السنين حين غزا الهكسوس مصر فقد بعث ملكهم رسالة إلى الحاكم الفرعونى للجزء غير المحتل من مصر قائلا ما معناه أن صوت أفراس النهر تزعجه. علما أن المسافة بين أفراس النهر الذى يدعى أنها تزعجه وبينه مئات الكيلو مترات. ولكنها بجاحة وغطرسة القوة.

وهذه ليست أول مرة يهاجم فيها الإسلام أو القرآن الكريم وكل هذه المحاولات باءت بالفشل كما ستبوء هذه المحاولة أيضا بكل تأكيد.

وقضية أن يحاول القوى تفريغ الضعيف من أى محتوى ثقافى وفكرى لمحو شخصيته لسهولة قيادته والسيطرة عليه قضية ليست جديدة بل هى قضية قديمة قدم التاريخ. وما تفعله أمريكا من محاولات دائبة لتصوير النموذج الأمريكى لكل العالم علاوة على مهاجمتهم للإسلام وكتابه المقدس «القرآن». هو صورة من صور المحاولة المستميتة للتفريغ الثقافى والفكرى للمسلمين...

والواقع أن كل صادرات أمريكا الفكرية والاقتصادية لم تقود العالم حتى الآن إلا إلى الإنحطاط والتمزق وإنتشار الحروب الأهلية والانحلال رغم التقدم التكنولوجى والغنى الاقتصادى والرفاهية. وفى أعراض هذا الإنحطاط

وأسبابه نستأنس بكلمات المفكر الكبير «روجيه جارودى» فى كتابين من أهم مؤلفاته وهما «حفارو القبور» و«أمريكا طليعة الإنحطاط».

علاوة على الفصل السادس من كتاب «المتلاعبون بالعقول» تأليف هربرت أشيللر «ترجمة عبد السلام رضوان» وهذا الفصل بعنوان «توجيه العقول ينتقل إلى ما وراء البحار» تصدير تقنيات الإستمالة «يتحدث فيه عن تقنيات التضليل الإعلامى الأمريكى.»

وفصل «الدين الأمريكى» من كتاب «تفكيك أمريكا» للأستاذ «رضا هلال».

وكل هذه الإختيارات تصب فى معنى واحد مؤداه أن الهيمنة الأمريكية والضلال الإسرائيلى يسعيان لتفريغ المسلمين والعالم كله من محتواه الثقافى والفكرى لمزيد من الانهيار والإنحطاط والهيمنة.

الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط

لابد من وضع المشكلة فى إطارها التاريخى حتى ندرك كيف أصبح انتشار «طريقة الحياة الأمريكية» وذيوع أوهامها المتعددة أحد الأسباب الرئيسية لانهيار الأخلاق والفنون فى عالم اليوم.

ذلك أن انحطاط الثقافة ينبع من تاريخ الولايات المتحدة ذاتها من تكوينها، لأن الثقافة لا تلعب أى دور منظم فى حياة المجتمع الأمريكى، بينما لعبت الثقافة والأيدلوجية دورا مهما ودائما فى أوربا وحياتها السياسية، سواء فى العصر المسيحى، أو عصور التنوير والثورة الفرنسية، أو فى قرن القوميات، أو عصر الماركسية وثورة أكتوبر.

وكل سكان أمريكا مهاجرون من الخارج، عدا سكانها الأصليين من الهنود الحمر الذين كانت ثقافتهم تنظم علاقتهم الاحتماعية « كما فى حالة قبائل الأنكاس»، ولكن راح ٨٠٪ منهم فى الإبادة الكبرى، كما تم إقصاء البقية الباقية منهم وتهميشها. وقد جاء سكان أمريكا «أى المستوطنون الأوربيون» بحثا عن العمل وكسب المال أساسا. ومع اختلاف ثقافتهم ودياناتهم، بين أيرلنديين وإيطاليين وغير ذلك من أجناس وجنسيات مختلفة، كانت الرابطة الوحيدة التى ربطتهم جميعا هى ذلك الخيط الرفيع المشابه لما يربط العاملين فى المؤسسة أو الشركة التجارية، وأصبحت الولايات المتحدة هى منظومة الإنتاج التى يقودها المنطق التكنولوجى والتجارى، والتى يشارك فيها كل فرد منتجا أو مستهلكا، فى غاية وحيدة هى تنمية مستوى المعيشة.

وهكذا كانت كل هوية، ثقافية أو روحية أو دينية. تعتبر مسألة شخصية، فردية تماما، لا تتداخل مع مسيرة النظام. ومن مثل هذه الهياكل الاجتماعية أصبح الإيمان عديم الأهمية. وعند الأغلبية العظمى لهذا الشعب، فقد مات الإله، لأن الإنسان انقطع عن كل ما هو مقدس، وبخاصة هذا الدأب فى البحث عن معنى الحياة الذى يقود بالتبعية الإيمان بالله.

واتسع المجال بذلك أمام تفشى الخرافات وانتشار الطوائف والهروب إلى المخدرات أو الشاشة الصغيرة، بينما غطى كل ذلك صبغة تدعى الدينية وهى «البيوريتانية» الرسمية أو التطهرية الرسمية، التى تتعايش مع كل أنواع انعدام المساواة وكل المذابح والجرائم، بل وتمدها بالتبرير والغطاء الدينى!

وقد اكتشف توكفيل الحقيقة. وكان أول محلل ومراقب ثاقب البصيرة للولايات المتحدة، منذ عام ١٨٤٠، فى كتابه الأساسى عن هذه الدولة، وكانت لا تزال وليدة، حين قال: «لم أعرف شعبا مثل هذا الشعب استولى فيه حب المال على قلوب البشر» .. «إنه شعب من شراذم المغامرين والمضاربين» واليوم أيضا- نستطيع أن نعثر فى تاريخ هذا الشعب على أسس انحطاط ثقافته.

ففى العلاقة مع الطبيعة، لم تكن لـ «الحدود» طوال أكثر من قرن، نفس المبنى الذى كانت تعنيه فى أوربا. كانت الحدود الأمريكية دائما مساحة مفتوحة حتى نهاية القرن التاسع عشر[١]. ولم تغلق تلك «الحدود رسميا» إلا بالوصول إلى المحيط الهادى، وظلت تلك المساحة الشاسعة مسرحا للنهب والسلب وتدمير الغابات الكثيفة بحثا عن مناجم الذهب والفضة. وكانت العلاقة مع الآخرين ـ أيضا ـ ذات طبيعة خاصة. بدأت أولا بطرد الهنود للاستيلاء على أراضيهم ووضعهم بين خيارين: إما الإبادة وإما النفى والانسحاب إلى المعازل. وبعد ذلك كانت العلاقة بين البيض أنفسهم، خاضعة لأحكام قانون الغاب، لنهب الثروات المسروقة من الهنود، أرضا كانت أم ذهبا.

(١) «أمريكا الأرض الموعودة» دار الشروق- تحت الطبع.

وهكذا تقلص معنى الحياة إلى هذا التوسيع الكمي للملكية والأرض وكنوزها. وكان «الوست» أو «أقصى الغرب البعيد» يعني- باستثناءات قليلة- تقديس هذه الملحمة العنصرية، وقانون الأقوى في حرب الجميع ضد الجميع. ولم تلعب التطهرية المسيحية أو البيوريتانية أي دور سوى دور المبرر لتلك الأفعال والعلاقات الاجتماعية، بل والمحرك لها!

وهكذا أصبح العنف الأكثر دموية، والتحريض عليه بنفاق المتدينين، ملمحا دائما في تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها، فلقد قدم المتطهرون من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة، حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية في تاريخ البشرية ومسلحين بفكرة: «الشعب المختار»، مقننين فكرة الإبادة، وكأنها حسب روايتهم أوامر إلهية. كانوا يسرقون أراضي الأهالي الأصليين طبقا لتعاليم يهوا «إله الحرب» في «العهد القديم»، هذا الإله الذي أمر «شعبه المختار» بإبادة وذبح السكان القدامى في أرض كنعان واغتصاب أرضهم.

وبالضبط، فإنه كما سمى الإسبان حربهم لإبادة الهنود في جنوب القارة الأمريكية تبشيرية «evangelisation»، استند المتطهرون الإنجليز على أوامر يهوا بالإبادة المقدسة،لتبرير طردهم للهنود وسرقة أراضيهم إحياء للعهد القديم. فقد كتب أحدهم: «واضح أن الله يدفع المستوطنين للحرب، بينما يعتمد الهنود بعدتهم وعددهم على ارتكاب الخطأ مثل القبائل القديمة، يتحينون الفرصة لفعل الشر، تماما مثل قبائل «الأماليسيت» القديمة والفلسطنين الذين كانو يتحدون مع آخرين لقتال إسرائيل» .

«ترومان نلسون: «متطهرو ماساشوستس من مصر إلى الأرض الموعودة. يهودية». الجزء السادس عشر رقم:٢ عام ١٩٦٧»

وهذا يوضح فكرة أن الأرض «الموعودة» ليست سوى أرض محتلة بالقوة!

إن إعلان استقلال الولايات المتحدة، في ٤ من يونيو عام ١٧٧٦، الذي يعد إرهاصا لـ «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» في فرنسا عام ١٧٨٩، يعطي مثالا صارخا للنفاق عن الحرية بمعناها الأمريكي. ينص الإعلان في

سطوره الأولى على ما يلى: لقد خلق الناس جميعا متساوين، ومنحهم الله حقوقا لا تقبل التنازل عنها، كالحياة، والحرية والبحث عن السعادة». ومع ذلك.. فقد استمرت عبودية الزنوج مع هذه «الحرية» قرنا من الزمان. وكان لابد من أن تنفجر حرب أهلية علم ١٨٦٥ لإنتهاء ما كان يسمى حتى ذلك الوقت «المؤسسة الخاصة» (١) أو «نظام العبيد». وحتى بعد تلك الحرب لم يكن لهم مكان فى المجتمع.

فقد نشأ بعد ذلك إرهاب المنظمات السرية، مثل كو كلوكس كلان. واستبعدت القوانين السوداء العبيد القدامى من الحياة السياسية، كما استبعدتهم من الحياة المدنية. واستمر التمييز العنصرى حتى يومنا هذا برغم تضحيات بذلها عظماء مثل مارتن لوثر كينج.

وكذلك ظهر أبشع أنواع النفاق فيما يخص الهنود. كما ظهر لأول مرة ما أصبح المبدأ المحرك لكل الاعتداءات المستقبلية التى ستقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية عبر العالم أجمع. ويتمثل هذا المبدأ فى اعتبار كل عدوان أو إبادة تقوم بها الولايات المتحدة نوعا من «الدفاع الشرعى».

***

إن إعلان الاستقلال، الذى أقر مبادئ الحرية والمساواة وصف الهنود بأنهم «متوحشون بغير رحمة، وسيلتهم المعروفة هى شن الحرب وذبح الجميع». هكذا تكلموا عن السكان الأصليين حتى يبدروا مسبقا المذابح ونهب الأراضى، واعتبار تلك الجرائم البشعة نوعا من «الدفاع الشرعى». كما لو كان الهنود هم الذين «غزوا» أراضى المهاجرين، بينما هؤلاء الأوربيون كانوا ينهبون أراضى الهنود ويدمرون حياتهم بصفة مستمرة. ومنذ ذلك الحين ومنذ تلك «الخطيئة الأساسية» (٢) وضع حجر الزاوية الأساسى للسياسة الأمريكية. فقد قلصت الإبادة أعداد السكان الأصليين من عشرة ملايين إلى

(١) انتقل العبيد الزنوج بمقتضى هذا الإفراج من العمل فى مزارع الجنوب بالسخرة إلى العمل فى مصانع الشمال بأجر زهيد أو بمثل سابقه.

(٢) إبادة الهنود واستعباد الزنوج، واستخدام أبواق الإعلام لقلب الحقائق.

٢٠٠ ألف نسمة.

لقد قال سيمون بولفار أحد أبطال تحرير أمريكا اللاتينية فى منتصف القرن التاسع عشر: «يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية».

«ناعوم تشومسكى فى «الأيديلوجية والاقتصاد» دار النشر إى. بى، أو» (E.P.O ص٦»

وقد شهد توكفيل بربرية المستعمرين ضد الهنود الحمر الذين يملكون أسلحة لا تتوازن أبدا مع أسلحة الغزاة. ووصف بسخرية لاذعة وإنسانية ذبيحة، ذلك النصر الذى حققته «الحرية». «وهذه المسيرة المنتصرة للحضارة عبر الصحراء»، بينما «فى قلب الشتاء» كان «البرد قارصا»، وكان ثلاثة أو أربعة آلاف جندى يطاردون السكان الأصليين الرحل الذين يخطون آخر خطواتهم نحو الانقراض، وهم يحملون جرحاهم ومرضاهم وأطفالهم الرضع وعواجيزهم إلى حافة الموت. «مشهد مؤثر لا يمحى أبدا من الذاكرة».

هكذا بدأ التاريخ فى شمال العالم الجديد

وأطلق على بنيامين فرانكلين، المعمر اللامع عن التنوير عام ١٧٥٤، اسم «أبو الأمة»، لأنه «الرجل الذى أزاح الأهالى الأصلين، ليفسح المجال أمام شعبه». وقد لقن جورج واشنطون نفس الدرس للإيروكيين «iroquois»، عندما أمر قواته بتدمير مجتمعهم وحضارتهم، وكانا بمقاييس عام ١٧٧٩ على درجة من التقدم، ولم يشهد العالم مثيلا لهذا النفاق والجبن الأخلاقى الذى لقى ثناء واستحسانا لعدة قرون.

لقد وصف توماس جيفرسون، «اتحادنا» كما لو كان «العش، أو المهد الذى لابد أن تسكنه كل أمريكا الشمالية والجنوبية». وقال: «من الخير أن تبقى القارة فى قبضة العرش الإسبانى حتى تكتمل لشعبنا القوة ليأخذها منه

قطعة بعد قطعة».

وهذا جون كوينسى آدمز يحكم الفكرة التى مهدت لنظرية مونرو. ويطلق على المستعمرات «قارة أمريكا الشمالية». وكان يقول: إن هذا هو قانون الطبيعة! ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدا!

وقد استند آدمز إلى نفس القانون حين حاولت الصين وقف تصدير الأفيون عن طريق الهند، وهى المحاولات التى فجرت حرب الأفيون، واستخدمت فيها إنجلترا القوة، لدحر مقاومة الصين للمبادئ «النبيلة» لحرية التجارة. بينما وصف آدمز محاولة الصين لوقف إغراق بلادها بالأفيون بأنها ضد الطبيعة، ومحاولات تعارض طبيعة الأشياء!

ثم يأتى بعد ذلك ودرو وينسون ليحدد «مهمتنا الخاصة» بأنها «تلقين» كل شعب مستعمر: «النظام وضبط النفس (١) والتدريب على القانون والطاعة».

ومعنى ذلك من الناحية الواقعية: «الخضوع لحقنا فى استغلالهم ونهبهم». ويشرح ودرو ويلسون فى نص خاص الدور الذى تقوم به «سلطة الدولة» فى هذا المشروع: «بما أن التجارة لا تعرف حدودا قومية، وبما أن المنتج يحتاج إلى العالم ليصبح بأجمعه سوق تجارى، فلابد إذن من أن يسقبه علم بلاده، حتى يوفر له فرصة اختراق كل الأبواب المغلقة. ولابد أن يحمى رجال الدولة الامتيازات التى يحصل عليها رجال المال، حتى ولو أدى ذلك إلى تدمير سيادة الأمم التى تحاول التصدى لذلك. يجب إقامة المستعمرات أو ضمها حتى لا نترك أى ركن فى العالم» (٢).

---

(١) وعن ذلك، وضع ناعوم تشومسكى كتابه المهم (ضبط الرعاع).

(٢) دأبت الحكومات الغربية منذ عدة قرون على فتح الأسواق لمنتجاتها وتوفير المواد الخام لمصانعها، فى كل أنحاء العالم، وذلك بكل وبأى وسيلة تقدر عليها، من غزو عسكرى أو صفقات خادعة أو مكائد سياسية ومالية، ثم نسمعها اليوم تعلن بكل جرأة ووجه مكشوف، أن على الحكومات أن ترفع يدها عن الاقتصاد.

هذه المذكرات السرية توضح المعنى الحقيقى لمثل ويلسون العليانى الحرية والحكم الذاتى. وهى المثل العليا التى يثرثر بها كثيرا مثقفو الغرب.

وقد طبق ويلسون عقيدته فى الحكم الذاتى عندما أصبح رئيسا، فغزا المكسيك وهايتى والدومنيكان. وأعمل جنوده الذبح والقتل والدمار، ليضعوا البلاد فى قبضة رجال الأعمال الأمريكين.

وقد شرح وزير خارجية ويلسون، روبرت لانستينج، معنى «مبدأ مونرو» فى مذكرته التى اعتبر نشرها خطأ، وإن كان لا يشك فى صحة حججه، جاء فيها: «تدافع الولايات المتحدة عن مصالحها الخاصة، حين تدافع عن مبدأ مونرو، لأن سلامة بقية الأمم الأمريكية ثانوية لابالنسبة للولايات المتحدة، ولا تعتبر هدفا فى حد ذاته. وبرغم أن ذلك يبدو فى منتهى الأنانية، فإن مؤسس هذه العقيدة لم يكن لديه أى دوافع أخرى أكثر عمقا، أو أكثر كرما لتقديمها».

«ناعوم تشومسكى، مرجع سابق صفحة ١٥- ١٦»

***

إن دراسة الجذور المؤسسة للأسطورة الأمريكية وسياستها الخارجية، تؤكد أن تلك الجذور لم تتغير منذ قرنين من الزمان.

حتى الحرب العالمية الأولى، تمارس تلك الضغوط خاصة على القارة الأمريكية وكانت المشكلة الكبرى هى «منع السيطرة الأوربية على الأراضى الأمريكية ومؤسساتها عن طريق الوسائل المادية أو غيرها».

«دى ويت بوول، مستشار السفير الروسى فى تقريره لسكرتير الدولة «وزير الخارجية»

لانسنج: «بخصوص أهداف البولشفية»

تاريخ الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر هو فى الأساس تاريخ القضاء على الهنود. من عام ١٨٠٠ حتى عام ١٨٣٥، أبعدت تلك القبائل لما وراء الميسيسبى عبر ظروف انتقال وإقامة تعد أحلك صفحة فى التاريخ،

وتفوق سوء الحال الذى أحدثه التهجير الهتلرى. وبعد عام ١٨٤٠ وإنشاء ومد السكك الحديدية، أجبر الهنود على ترك آخر أرضيهم ليستقروا فى المعازل المشابهة للحظائر الحيوانية. وأدى هذا الصراع إلى موت الملايين، لأن المقاومة المسلحة للهنود لم تنته إلا بذبح زعيمهم «وونددنى» « wounded knee» فى عام ١٨٩٠.

تاريخ الولايات المتحدة هو أيضا تاريخ استغلال العبيد الزنوج، خصوصا فى زراعة القطن.

***

أما على صعيد السياسة الخارجية، فكانت الملامح الأساسية هى التحايل لإبعاد القارة الأمريكية عن أسبانيا والبرتغال لفرض سيطرة الولايات المتحدة وتغلغلها الاقتصادى والسياسى على القارة، وكذلك إقصاء انجلترا وفرنسا لاستغلال البترول بدلا منها.

المبدأ الأساسى لهذه السياسة التى تبيد الهنود وتستعبد السود وتطرد الدول الأوربية، حدده الرئيس مونرو فى ٢ من ديسمبر عام ١٨٢٣، فى رسالة إلى الكونجرس جاء فيها: «فللأوربيين القارة القديمة والأمريكيين القارة الجديدة» «مبدأ مونرو». وانفجار زورق حربى أمريكى فى ميناء هافانا، كان الحجة للحرب ضد الاسبان، فقدوا بمقتضاها بورتوريكو والفلبين وكوبا.

وكانت الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ والتدمير المتبادل بين الدول الأوربية بمثابة منجم من الذهب للولايات المتحدة الأمريكية، التى لم تسرع إلى الإنتصار إلا فى نهاية الحرب عام ١٩١٧.

إن أسطورة أن الولايات المتحدة «حررت» أوربا هى فى الواقع أكذوبة مضاعفة. فقد كان ذلك التدخل أولا من أجل مصالح «رجال الأعمال» والتى تهددت بإغراق بعض البواخر الأمريكية التى استمرت فى الاتجار مع انجلترا. ثم كان- أيضا- لأنه فى يناير عام ١٩١٧، وعد الوزير الألمانى

زيمرمان المكسيك بالتعاون معها ضد الولايات المتحدة لاستعادة الولايات التى فقدتها «وهى تكساس، وأريزونا، ونيومكسيكو». وكان تدخل قيصر ألمانيا هو الذى دفع الرأى العام الأمريكى ليطلب شن حملة عسكرية فى أوربا «٤ من إبريل عام ١٩١٧». هذه الحرب الأولى قد كلفت فرنسا مليونا ونصف المليون من القتلى، وكلفت ألمانيا أكثر من مليون وسبعمائة ألف قتيل، وهى الأرقام التى لا يجب أن تقارن بالاشتراك «الرمزى» للولايات المتحدة التى لم تفقد سوى عدد ضئيل من الضحايا.

إن الثراء من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٢، حول كل شئ إلى دعارة بتفاقم النزعة الإجرامية والعصابات المتحكمة فى كل شئ بالتواطؤ مع الشرطة، وبقانون «المنع» فى عام ١٩١٩ الذى أنعش الحانات الخارجة عن القانون، ملتقى العصابات الأمريكية من السبيكيزيس speakeasies والبوتليجرز bootleqers (١) وكذلك الهجرة الخارجية النسبية القادمة من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٤، أعادت الازدهار لـ «كلو كلوكس كلان klu klux klan» فارضين من جديد الرعب فى الجنوب. كذلك قادت الوطنية المتشددة «الشوفونية» الحاكمة، أبرياء مثل كساشو وفانزيتى والمحتجين الإيطاليين إلى الإعدام بالكرسى الكهربائى.

وأصبح الاهتمام السياسى الأعظم، تحطيم كل نظام اشتراكى يعارض التغلغل الاقتصادى للولايات المتحدة فى العالم بكل الوسائل بذلك أصبح الاتحاد السوفيتى العدو الرئيسى بالخطر المتعاظم والمعدى الذى مثله. وأصاب خلل مماثل أوربا الغربية، ولم يتردد القادة الأمريكيون «باسم الدفاع عن «الحريات»، أى سياسة «الباب المفتوح» للتوسع الاقتصادى الأمريكى بلا حدود» فى الاعتماد على أسوإ الديكتاتوريات.

وخلال الحرب العالمية الثانية التى دامت ست سنوات بين عامى ٢١٩٣٩

(١) عصابات من المافيا.

و١٩٤٥، أنزلت الولايات المتحدة مع إنجلترا قواتها على نورماندى «أوربا» فى ٦ من يونيو عام ١٩٤٤ «بينما كان اليابانيون قد ضربوا «بيرل هاربر» (١) منذ ٧ من ديسمبير عام ١٩٤١»، وكان الأمريكيون يحاولون حماية مصالحهم فى المحيط الهادى ضد التوسع اليابانى العنيف.

لم يتدخل الأمريكيون مباشرة ضد هتلر إلا فى يونيو عام ١٩٤٤ عندما منيت ألمانيا فى يناير عام ١٩٤٤ بأول هزيمة كبرى لها، حيث فقدت فى ستالينجراد ٤٠٠.٠٠٠ رجل بينهم ١٤٠.٠٠٠ أسير، وعلى مستوى آخر كانت المقاومة فى كل أوربا تستنزف الاحتلال الألمانى بقوة.

وكان هتلر قد وضع فرقه الأقوى وفرقه الضاربة «١٩٨ فرقة من مجموع ٣١٥» على الجبهة الروسية، و٣٨ فرقة فى إيطاليا و٦٤ فرقة على قطاع يمتد من النرويج حتى فرنسا. كل ما فعله الأمريكيون فى ظل إنهيار آلة الحرب الألمانية، أثناء الإنزال وفى أعقابه، كان قصفا جويا عشوائيا على المدنين، أسفر عن ٧٥٠.٠٠٠ قتيل و ٨٠٠.٠٠٠ جريح مدنى.

المثال الأكثر إيضاحا هو قصف دريسدن الذى أسفر عن ١٣٥.٠٠٠ ألف قتيل، بينما كانت القوات السوفيتيه تعتبر فى خططها أن المدينة لم تكن هدفا عسكريا. وكذلك هيروشيما التى قذفت بقنبلة ذرية فى ٦ من أغسطس عام ١٩٤٥، أسفرت عن ١٦٠.٠٠٠ إصابة.. ونجازاكى عرفت نفس المصير بعد ثلاثة أيام من الأولى، برغم أن اليابان كانت فى طريق مفاوضات الاستسلام، بناء على اقتراح الإمبراطور.

(انظر «٣٩ ـ ٤٥ الحرب المجهولة» بقلم پول مارى دى لاجوس. الناشر: فلامريون ١٩٩٥ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٥)

(١) قاعدة عسكرية أمريكية فى هاواى، ضربها اليابانيون تحت قيادة ياماموتو بعد أن خنقهم الحصار الذى ضربته عليهم أمريكا، خصوصا فى الوقود، مما أدى إلى اعلان الولايات المتحدة بعدها الحرب على اليابان.

إن مفهوم الشيوعية كان قابلا للتوسع بقوة. في عام ١٩٥٥، تدخلت «مؤسسة ودرو ويلسون Woodrow Wilson Foundation» و«الاتحاد القومي للتخطيط» لوضع تعريف عظيم الوضوح: «التهديد الشيوعي يتمثل في التحول الاقتصادي لدولة أو دول تقل إرادتها أو إمكانياتها في أن تصبح لاحقة ومكملة للاقتصاديات الصناعية الغربية».

في الصباح التالي لنهاية الحرب العالمية الثانية، ولمواجهة هذا «التهديد»، لم يتردد القادة الأمريكيون في استخدام جنرالات من النازين الجدد في شتي أنحاء العالم!

سياسة التعاون مع النازي، بعد الحرب العالمية الثانية، في كل أمريكا اللاتينية، كانت لها سابقة بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن مع الفاشية!

منذ عام ١٩٢٢ امتدح السفير الأمريكي في إيطاليا «التقدم نحو روما» لموسوليني الذي قضى على أي ديموقراطية في إيطاليا - بوصفها «الثورة الجميلة والشابة». وشرح لماذا قد يكون الفاشيون العامل الأقوى في الضغط على البلاسفة ومواجهتهم. ومن ثم تمتعت إيطاليا الفاشية بوضع خاص من جانب الإدارة الأمريكية وكانت إحدى الدول الأولى بالرعاية فيما يخص تسوية ديون الحرب والاستثمارات الأمريكية المتدفقة. في عام ١٩٣٣، تحدث تيودور روزفلت عن موسوليني بوصفه «هذا الجنتلمان الإيطالي المهذب واللطيف».

في عام ١٩٣٧، أكدت إدارة الدولة الأمريكية بأن «الفاشية أصبحت روح إيطاليا»، «لقد وضعت حدا للنظام الفوضوي وفرضت نظاما خاصا إيطاليا» على البطالة والإفلاس. وحتى غزو إثيوبيا، لم يغير بالمرة العلاقة الحميمة مع إيطاليا. وقد برر السفير الأمريكي لونج ذلك بأنه «بدون هذا التوجه، كانت البولشفية على وشك النجاح في مراكز التصنيع والمقاطعات الزراعية، حيث تتحكم الملكية الخاصة».

(شميت: «الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية» وجاديس: «السلام الطويل» أكسفورد ١٩٨٧)

اعتبرت إدارة الدولة الأمريكية فى عام ١٩٣٧، الفاشية متوافقة مع المصالح الاقتصادية الأمريكية، بما يعنى - أيضا - توافقها مع المفهوم الأمريكى «للديمقراطية».

ولم يكن الوضع مختلفا فى تقييم ومعاملة هتلر. ففى عام ١٩٣٣ كتب القائم بالأعمال الأمريكى فى برلين لواشنطن، بأن الأمل فى ألمانيا يتوقف على الجناح المعتدل فى الحزب الذى يقوده هتلر. الذى يخاطب كل الأشخاص المتحضرين والعقلاء (المرجع السابق).

وبما أن المحور - ألمانيا وإيطاليا - (عقب پيرل هاربور) لم يهاجم امريكا، بقيت هذه النظرة للفاشية والنازية دون تغيير!

بعد الحرب، استمرت نفس السياسة بطرق مختلفة. منذ عام ١٩٤٣ انسحبت قوات الدوتشى من جنوب إيطاليا بنصائح من تشرشل الذى تذكر شبح البولشفية الزاحفة، وقد دعمت الولايات المتحدة ملك إيطاليا الذى تعاون مع النظام الفاشى، وفرضت ديكتاتورية المارشال «بادوجليو»، مثلما أرسى روزفلت فى الجزائر فى عام ١٩٤٢، حكم الأميرال دارلان وليس حكم الجنرال ديجول. فقد كان الهدف فى كل أوربا منع وصول أى قوى مقاومة الفاشية للحكم، والتى أسهم الشيوعيون والاشتركيون فيها إسهاما رئيسى.

«عقب سلسة الهروب، فى عام ١٩٧٦، طبقا لتقرير بيك فى الكونجرس، عرفنا كل أوجه التدخلات للسى أى إيه فى الحياة السياسية الإيطالية: لقد وضع تحت المساطة والإحاطة الدعم الذى تعدى ٦٥ مليون دولار للأحزاب السياسية المؤيدة والمختارة ومعاونيهم، ما بين علم ١٩٤٨ وبداية السبعينيات. فى عام ١٩٧٦ سقطت حكومة ألدو مورو فى إيطاليا عقب ثبوت أن سى أى

إيه قد صرفت ٦ ملايين دولار دعما لمرشحين معادين للشيوعية».

«ديفيد ماك ميشيل «أكاذيب عصرنا». «أغسطس ١٩٩٠»

***

وقد جند مجرمو حرب نازيون خطرون من قبل جهاز الاستخبارات الأمريكية (CLA)» والأجهزة المعادية للمقاومة. ومن أشهر هؤلاء- لا شك- كلارش باربى وقد أخرج القوميسيبر الأعلى الأمريكى جون جى ماك كلوى من السجن مجرم حرب نازيا أسوأ من باربى اسمه «فرانز سيكنس» وقد عمل لصلحة رينهارد جيهلن الذى أوكلت إليه مهمة تطوير «جيش سرى» تحت الرعاية الأمريكية بمرافقة قدماء من الـ «وافن إس إس» [١] وخبراء آخرين من «اللويهر ماشت»: مقدمى الدغم للقوات الهتلرية العسكرية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى، وقد قدم هؤلاء الألمان مساعدات جمة للاستخبارات الأمريكية، استمرت إلى ما بعد الخمسينيات.

وقد أوكل إلى جيهلن نفسه، الذى شغل منصب رئيس الاستخبارات العسكرية النازية على الجبهة الشرقية، أوكل

إليه منصب مدير جهاز الاستخبارات والاستخبارات المضادة من جديد فى الدولة الألمانية الغربية الحديثة تحت المراقبة اللصيقة والقريبة من السى. أى. إيه.

«كريستوف سيمبسون «بلوباك» الناشر: ويدنفلد ونيكلسون ١٩٨٨»

وقد بدأ فى الواقع «الرعب الكبير» فى الولايات المتحدة بأزمة عام ١٩٢٩؛ التى أدت بالبورصة إلى الانهيار إثر المضاربات المالية التى أفضت إلى إفلاس عدد كبير من البنوك والمؤسسات وإلى ارتفاع معدلات البطالة والتى بلغت ٤ ملايين عاطل عام ١٩٣٠، ووصلت إلى ٧ ملايين عاطل عام

(١) جواسيس أقرب إلى الطابور الخامس الألمانى.

١٩٣١، وأحد عشر مليونا فى عام ١٩٣٢، ولم يؤد انتخاب فرانكلين روزفلت ومنظريه الذين حاولوا تقديم مفهوم جديد للاقتصاد الصفقة الجديدة The New Deal، لم يؤد إلى حد الأزمة. وفى عام ١٩٣٧ انخفض العائد القومى بنسبة ١٣ ٪. وكذلك فرص العمل بنسبة ٣٠ ٪..

أخرجت الحرب العالمية الثانية وحدها الولايات المتحدة من أزمتها.

وإن كان روزفلت قد رفض مساعدة فرنسا الخاسرة عام ١٩٤٠، إلا إنه اتفق مع إنجلترا على قانون «الاقتراض والإيجار» الذى حرك الإنتاج الأمريكى بصناعة آلاف المركبات، والطائرات، والدبابات والمدافع.

وقد أعطى الهجوم اليابانى الذى تم إعلان الحرب على القاعدة البحرية الأمريكية فى بيرل هاربور فى ٧ من ديسمبر عام ١٩٤١، أعطى المبرر الكافى لقرار روزفلت بالاشتراك فى الحرب بالطريقة التى يريدها. وقد سمحت القوة الاقتصادية لروزفلت، حتى قبل الاشتراك المتأخر فى الحرب، بأن يصبح محرك اللعبة كلها بالنسبة إلى أوربا الغربية. ففى يناير عام ١٩٤٣ فى الدار البيضاء «كازابلانكا»، وفى طهران فى ديسمبر عام ١٩٤٣، وفى يالطا عام ١٩٤٥، كان روزفلت هو المحاور الرئيسى لستالين لتنظيم العلم وتقسيمه فى مرحلة ما بعد سقوط هتلر.

وقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب مهيمنة على مقاليد الأمور، وهو موقف ليست له سابقة على مر العصور والتاريخ، وقد أصيب منافسوهم الصناعيون بالضعف والخور، بينما تضاعف الإنتاج الصناعى فى أمريكا أربع مرات خلال سنوات الحرب.

وامتلكت الولايات المتحدة فى نهاية الحرب نصف ثروة العالم. فى حين بلغت خسائر البشرية حدا لا يذكر إذا ما قورن بخسائر العالم. تلك الحرب، كلفت ألمانيا أكثر من سبعة ملايين ونصف المليون من القتلى، نصفهم من

المدنيين، وروسيا أكثر من سبعة عشر مليونا، بينهم عشرة ملايين مدني، وإنجلترا وفرنسا مليون قتيل، بينهم ٤٥٠ ألف مدني، والولايات المتحدة ٢٨٠ ألف جندي، «أي ما يمكن مقارنته بعدد قتلى حوادث السيارات هناك خلال فترة الحرب».

***

وقبيل حرب كوريا في عام ١٩٥٠، أبرز التقرير الذي حدد الخط السياسي للولايات المتحدة الأمريكية: المذكرة السياسية لمجلس الأمن القومي ٦٨ «NSC 86» المحرر من قبل بول نيتز، الذي خلف جورج كينان في رئاسة إدارة الدولة لفريق التخطيط. وقد استبعد جورج كينان هذا، لأنه عد شغوفا أكثر مما يجب بالسلطة. وقد كتب في عام ١٩٤٨:

«نحن نملك حوالي ٥٠ ٪ من ثروة العالم، غير أننا نمثل ٦.٣ ٪ من السكان فقط.. وفي مثل هذا الوضع، لا يمكن تجنب أن نكون هدفا للضغينة والغيرة. فمهمتنا الحقيقية، في الفترة القادمة، هي تطوير نظام للعلاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه المكانة، دون تعريض أمننا القومي للخطر. ولتحقيق هذا؛ علينا أن نتخلص من أي رومانتيكية، وأن نكف عن الحلم، مع البقاء متيقظين. ويتعين أن يكون كل تركيزنا منصبا على أهدافنا القومية المباشرة والفورية، وألا يصيبنا الغرور. ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا اليوم باتباع رفاهية حب الغير والخير علي الصعيد العالمي وينبغي ان نتوقف عن الحديث عن أهداف كبيرة غير محدودة فيما يخص الشرق الأقصى، فهو غير قابل للتنفيذ، وكذلك حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وإرسال الديمقراطية. ولن يكون بعيدا اليوم الذي سيكون علينا فيه استخدام القوة».

«دراسات سياسة التخطيط «P.P.S.» لـ ٢٣ فبراير ١٩٤٨»

وقد قدم بول نيتز في خطة «الصقور» تعريفا أكثر وضوحا لتحديد

الأهداف وتعينها بقوله: «إن الولايات المتحدة تملك لا شك قوة عالمية لذلك وجب نصب عدو شامل «فى إشارة واضحة إلى الاتحاد السوفيتى» وتحوله إلى شيطان بطريقة تبرر أى تدخل أو اعتداء من قبل الولايات المتحدة، واعتبار رد فعل دفاعيا لتهديد شامل تعرضت له مسبقا، دفع بها لاتخاذ هذا الإجراء».

وأصبحت «إمبراطورية الشر» منذ ذلك الوقت ممثلة فى الاتحاد السوفيتى: فلم تكن كوريا أو فيتنام مثلا دولتين غازيتين للولايات المتحدة،بل كانت الولايات المتحدة هى الغازية، وعلى بعد أكثر من عشرة آلاف كيلو متر من حدودها، أعلنت الولايات المتحدة أنها فى حالة دفاع شرعى!

ولم يكن الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩١٧ يعد قوة عسكرية هائلة نتيجة الجرح الغائر الذى منى به أثناء الحرب العالمية الأولى. لكنه كان يمثل خطرا داهما على استمرارية النظام الرأسمالى نفسه. نظرا إلى «العدوى» التى ينقلها لكثير من النظم المحيطة.

إن أمن الولايات المتحدة كان فى خطر، ليس فقط منذ عام ١٩٥٠ ولكن منذ عام ١٩١٧، وتدخلها كان دفاعيا ضد التغيير الذى نشأ فى النظام الاحتماعى فى روسيا وإعلان التوجهات الثورية.

«السلام الطويل». أكسفورد ١٩٨٧، «Gaddis»جاديس

ولهذا كتب السيناتور وارين هاردينج الذى تم انتخابه بعد ذلك ليصبح رئيسا: «البوليشفية تهديد يجب أن يسحق.. الوحش البولشفى يجب القضاء عليه».

«شميتز (Schmitz: الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية». بريستون ١٩٨١، صفحة ٤٠»

واعتبر وجود الاتحاد السوفيتى- فى حد ذاته- اعتداء، ومن حق الولايات المتحدة «الدفاع» عن نفسها فى إى مكان على سطح الكوكب. وقد حددت أهداف «الحرب الباردة» - بوضوح- فى الخطاب السياسى لمجلس

الأمن القومى عام ١٩٦٨: «إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط دولتنا، لكن أيضا الحضارة ذاتها. والهجمة على مؤسسات العالم الحر أصبحت عالمية، وتفرض علينا باعتراضها لمصالحنا الخاصة مسؤلية ممارسة «القيادة» العالمية».

وأصبح الاحتواء الشامل عبر الطبقة الحاكمة للصحافة والكتاب، والجامعات، والسنما والتلفزيون، مقبولا برحابة صدر «للرأى العام» من خلال هذه النظرة للعالم.

قد سبق وأفشى ألكسيس دى توكفيل Alexis de Tocquevile هذه التحفظات والنظرة المحافظة فى كتابه عن «الديمقراطية الأمريكية» فى عام ١٨٤٠: «لا أعرف دولة يوجد بها هذا القدر القليل أو المنعدم لاستقلالية العقل والمناقشة كما فى الولايات المتحدة». وفى عام ١٨٥٠ كتب مؤلف هنرى ديفيد ثورو، أحد المنشقين القلائل عن هذا الإطار «مؤلف «ولدن أو الحياة فى الغابات» : «لا توجد حاجة إلى قانون للسيطرة على حرية الصحافة. إنها تقوم بذلك بذاتها وأكثر من الواجب».

لقد وصل المجتمع إلى عقد اجتماعى حول الأشياء التى يمكن التعبير عنها، متوافقا بذلك ضمنيا على تجريم ما عدا ذلك، بحيث لا يجرؤ امرؤ فى الألف على التطرق إلى أى شئ آخر.

إنه بذلك يصبح أكثر صحة: القول الذى يضيفه نعوم تشومسكى بأنه لا يوجد امرؤ فى الألف قادر على التفكير فى أى شئ مختلف، بذلك يمارس نظام السيطرة على الفكر المتبع بطريقة ناجحة.

فى القرن العشرين، أصبحت تلك السيطرة على الفكر أكثر إحكاما. شخصيات عامة، وباحثون فى العلوم السياسية، وصحفيون، وممثلوا الصناعة، ورجال العلاقات العامة التى يتعاظم نموها، وآخرون. اعترفوا بأن

فى بلد يصبح فيه صوت الشعب مسموعا يكون ضروريا أن يظل هذا الصوت يقول ما يتناسب مع النظام العام.

وفى دولة قائمة على العنف الداخلى أو أوتوقراطية، يكفى التحكم فيما يفعله الناس، ويكون ما يفكرون فيه قليل الأهمية. وعندما يكون عنف الدولة محدودا ، يصبح من الضرورى التحكم فيما يفكر فيه الناس.

هذا الوضع معروف بوضوح فى دوائر النخبة، حيث يؤكدون على أهمية «تدبير الموافقة» «إذا استخدمنا عبارة ولتر ليبمان Walter Lippman الصحفى المرموق والمحلل السياسى» أو «صناعة الموافقة» «كما يقول إدوارد برنايز، الشخصية المؤثرة، ويحظى بقدر كبير من الاحترام فى مجال صناعة العلاقات العامة»، للتأكد من أن السكان سيرضون بقرار قادتهم ذوى البصيرة[١].

أحد الانتقادات النادرة لتلك المفاهيم، كتبه المتخصص فى العلوم السياسية روبرت داهل، وقال: «لو افترضنا أن الاختيارات السياسية مفروضة على النظام من قبل القادة «فى عالم المال وسواه» بهدف استخلاص ما يريدون، إذن نموذج الديمقراطية الذى يرتضيه الشعب يساوى باختصار نموذج السيطرة الشمولية».

«نعوم تشومسكى: «الأيديولوجية والسلطة». الناشر EPO صفحة ١٢١، ١٢٢».

***

بناء على هذا الأساس من إدارة الرأى العام، أو إن صحت الترجمة «إشغال الرأى العام» وتكوينه كما تصنع ربة المنزل رداء من التريكو، استولى القادة الأمريكيون على مقاليد الأمور فى العالم.

الهم الأول لأجنحة السلطة، هو حماية الأفنية الخلفية فى أمريكا اللاتينية.

(١) اقرأ كتاب إدوارد سعيد ونعوم تشومسكى: (صناع الإجماع).

الخطر الأكثر فداحة عقب الحرب، كان التهديد الذى مثلته فى جواتيما الحكومة الشعبية للرئيس أربنز حين قامت بإلغاء المميزات التى حصلت عليها «يونايتد فورت» والشركات البترولية الأمريكية.

ولتجنب التدخلات العسكرية المباشرة المستمرة، اهتمت مذكرة بتعريف الإجراءات اللازمة لإدماج القوات العسكرية الأمريكية اللاتينية فى النظام الأمريكى عبر «التشجيع»، جاء فيها:

«يجب زيادة حصة الأشخاص المؤهلين من أمريكا اللاتينية للتدريب فى المدارس العسكرية وفى مراكز التدريب فى الولايات المتحدة، بما فى ذلك الأكاديميات العسكرية، وتوطيد علاقات حميمة بين الخاصة من العسكريين الأمريكيين واللاتين الأمريكيين، بطريقة تشجع – من جهة – العسكريين من أمريكا اللاتينية على تفهم واستيعاب أهداف الولايات المتحدة، والاعتراف بأن المنظمات العسكرية فى غالبية الدول فى أمريكا اللاتينية تلعب دورا مهما فى سياسة الحكومة الأمريكية، والبحث- من جهة أخرى- عن التنسيق الكامل معهم، حسب المواصفات الأمريكية، فى المنظمة «المؤسسة» والتدريب والعقيدة والتسليح «العتاد» للقوات المسلحة، بهدف الاستعداد لإرسال جنود آخرين أو قوات عسكرية فى أمريكا اللاتينية، مع التأكد التام بأن العتاد الأمريكى سيكون هو المستخدم فى أى صراع هناك. مع ملاحظة أن هذه الإجراءات يقصد منها إدخال جيوش أمريكا الجنوبية فى البنية القيادية العسكرية للولايات المتحدة لمواجهة أعدائنا التاريخيين فى أمريكا اللاتينية: أوربا والسكان الهنود».

«مجلس الأمن القومى: NSC5432»

عندما أدى طغيان القتلة – بدءا من الفساد حتى الارهاب – إلى استحالة استمرارهم فى السلطة، استبدل قادة الولايات المتحدة بهم قادة «منتخبين» كما فى الأرجنتين، والبرازيل، وبينما «بعد استخدام نورييجا» وفى نيكاراجوا وذلك فى محاولة- بعد موت ٣٠ ألف شخص- لعمل «سوموزية بدون سوموزا».

وطرحت المشكلة بطريقة حادة فى أوربا صبيحة الحرب العالمية الثانية. الخطر كان مزدوجا كما أكدت السى آى إيه منذ عام ١٩٤٧، والأكثر خطورة بالنسبة إلى أمن الولايات المتحدة هو احتمال الانهيار الاقتصادى فى أوربا الغربية وما يعقبه من نتائج، مثل: «وصول عناصر شيوعية إلى السلطة». ولإيقاف هذا الخطر المزدوج، أعلن قادة الولايات المتحدة عن «خطة مارشال الموجهة إلى إعادة بناء أوربا» بشروط سياسية حازمة: أولها عزل الشيوعيين من الحكومات الغربية.

الاستجابات الغربية كانت واضحة.

– الوزراء الشيوعيون الفرنسيون استبعدوا فى ٤ من مايو عام ,١٩٤٧

– والوزراء الشيوعيون الإيطاليون استبعدوا من الحكومة فى ١٣ من مايو عام ,١٩٤٧

– الوزراء الشيوعيون البلجيك استبعدوا من الوزارة فى الشهر ذاته.

وعقب تلك الإقصاءات، فى الخامس من يونيو عام ١٩٤٧، أعلن رسميا عن «مشروع مارشال». وتلك النتائج المترتبة عليها جعلت من الممكن تطبيق هذه الخطة التى تحمل أيضا فى طياتها وسيلة للضغط السياسى، وبرنامجها للتصدير وللأعلان عن الصادرات الأمريكية إلى أوربا.

وكانت المعونة الهدف الأقل أهمية لمشروع «مارشال». ورصدت دراسة مؤرخة فى إبريل عام ١٩٤٧ ظاهرة أن المعونة الأمريكية يجب أن توجه فقط «إلى البلدان ذات الأهمية الإستراتيجية الأساسية للولايات المتحدة، إلا فى حالات نادرة جدا، حيث تسنح الفرصة للولايات المتحدة عن طريق هذه المعونات للحصول على الرضا العالمى نتيجة فعل إنسانى استعراضى».

Joint Chiefs Of Staff.(1769/1)

أعرب وزير الخارجية دين أتشيسون وبعض النواب الأمريكيين عن الموافقة، فى عام ١٩٥٠، على هذا المبدأ: «إذا حلت المجاعة بالقارة الصنية، وجب على الولايات المتحدة تقديم القليل من المساعدة، لا لمقاومة المجاعة نفسها، وتعنى فقط بقدر ما تكون كافية لإحراز نقطة فى الحرب النفسية».

«ستيفان شالوم، أكتوبر ١٩٩٠ Stephen Shalom: z Magazi

ولوضع أساس أكثر قوة لتلك العملية السياسية الاقتصادية، أثنت مذكرة مجلس الأمن القومى ٦٨ فى عام ١٩٥٠ على إستراتيجية العودة إلى الوراء والإسراع فى إبراز وكشف المثالب الداخلية للنظام السوفيتى ودق أول مسمار فى نعش هذا النظام، عن طريق عدد من الدسائس السرية، وفى الوقت ذاته إجراء مفاوضات أخرى تسمح بالوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوفيتى.

وقد شملت الوسائل السرية فى ذلك الوقت إرسال توريدات، وعملاء سابقين لجيوش النازى التى كانت تحارب فى الاتحاد السوفيتى وفى أوربا الشرقية، كذلك وضع إدارة جهاز الاستخبارات والجاسوسية لألمانيا الغربية فى يد راينهارد جيهلن، الذى أدار جهاز الاستخبارات العسكرية النازية على جبهة الشرق، مع توظيف مجرمين نازين للتعاون مع المشروع الشامل لما بعد الحرب. وعندما كان يصعب حماية عملاء من هذا النوع فى أوربا، كان يتم إرسالهم لاستكمال مهمتهم فى أمريكا وتلك كانت هى حالة كلاوس باربى الذى أرسل إلى بوليفيا، وقد ساهم إيجابيا فى انقلاب عام ١٩٨٠، حيث كانت جرائمه أكثر دموية من تلك التى ارتكبها فى فرنسا تحت حكم هتلر.

«نعوم تشومسكى: Deterring Democracy الناشر فينتاج ص ٣٩٦»

انتهاء الحرب فى عام ١٩٤٥، ثم انهيار الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٩، وضعا الولايات المتحدة أمام المشكلة الصعبة، وهى تبرير استمرار

سياسة التسليح أمام شعبها، إذ إن تلك السياسة هى أحد العناصر الأساسية وغير المستغنى عنها لعمل الاقتصاد الأمريكى.

وطرح شبح السلام غير المرغوب فيه أسئلة معقدة. إنه يهدد مباشرة الأستمرار المنتظم للبرامج العسكرية التى يستند عليها ـ منذ سنوات ما بعد الحرب ـ الجانب الأكبر من إدارة اقتصاد الدولة. وقد صرح الجنيرال إدوارد ميير القائد الأعلى السابق للجيش، بأن جيشا على قدر عظيم من التكنولوجيا، مع ما لديه من الدبابات المتقدمة والطائرات بدون طيار والأسلحة الإلكترونية المعقدة، يستوجب استثمارات عالية تؤمن «عوائد كبيرة للصناعات فى الخارج». وكل ذلك لهدف مشكوك فى صحته، وهو وجود الأهداف العسكرية.

إن الأمل فى رؤية تطور تلك التكنولوجيا ضعيف إذا غاب العدو. كيف يمكن دفع شعب إلى أن يسدد فاتورة النفقات العسكرية، بينما لا يمكن إخافته بتهديده باستخدام الخطر الشيوعى، الزعم الذى فقد مصداقيته؟

«وول ستريت جورنال» ٣١ من أغسطس عام ١٩٨٩»

كان يجب إذن البحث عن بدائل لـ «إمبراطورية الشر». ولذلك برز كل من «الحق فى التدخل الإنسانى» أو «حماية الحقوق» أو «حرب المخدرات».

وأصبحت إمبراطورية الشر الجديدة ممثلة بعد ذلك فى العراق. طوال سنوات كان صدام حسين يمثل للولايات المتحدة خطا دفاعيا ضد الإسلام المتجسد فى إيران الخومينى. لم ترفض الولايات المتحدة أن تمد بالسلاح من وصفه كتاب فرنسى بـ «ديجول العراقى». لكن منذ أن أراد استرجاع نصف إنتاجه البترولى الذى حرم منذ عام ١٩٦٢ عن طريق تهديد عسكرى- على الطريقة الاستعمارية- للكويت، تدخلت الولايات المتحدة وأتباعها لحماية «الشريعة» و «القانون الدولى» ضد هذا العدوان. بعد أن قبلت توجيه «الفيتو» الذى تملكه ضد أى عقوبات ضد إسرائيل كمكافأة لها على اعتداءاتها على فلسطين وعلى سوريا فى الجولان.

والهدف هنا من هذه الحرب، أى حرب الخليج الثانية «ضرب المثل» الواضح «للعالم الثالث» بأكمله، بأنه غير مسموح لأى شعب، بأن يصل إلى أعلى المستويات التقنية وأن يستخدم ثرواته القومية «مثل: البترول» دون سيطرة القوى الكبرى، سواء فى الأسعار أو غيره، وبالأخص محاولة الهروب من الدين الذى لا يجرؤ أحد على التفوه باسمه لكنه مفروض على العالم كله من الولايات المتحدة: وحدانية السوق وعبادة المال. والمتجرئ يواجه الدمار وشبح الهلاك.

لقد أسفر قذف العرق- رواية الصليب الأحمر- عن أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل من السكان المدنيين، أما إحكام الحصار فقد قتل ٥٠٠ ألف طفال من جراء نقص الطعام والرعاية.

وعندما أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى السعودية فى أغسطس عام ١٩٩٠، كتب رئيس القسم الدبلوماسى «للنيويورك تايمز» توماس فريدمان فى ١٢ من أغسطس: «إن الولايات المتحدة لم ترسل قواتها للخليج لمساعدة السعودية فى مقاومة العدوان فقط، لكن أيضا لدعم دول الأوبك هم الأكثر خدمة لمصالح واشنطن».

لقد لاحظت الواشنطن بوست أن هناك شيئا ما «غير متماش» وغير مطمئن تماما فى المساعى الأمريكية». كما قال توم مان مدير الشئون الحكومية فى معهد بروكلين: «بوش ما زال يتعامل مع دول الشرق الأوسط على الطريقة الاستعمارية».

«واشنطن بوست فى ١٣ من أغسطس عام ١٩٩٠»

هذه العملية الاستعمارية هى فى الحقيقة استمرار للعدوان الإنجليزى، الذى أعقب قيام الجنرال قاسم فى عام ١٩٦١ بإلغاء الامتياز «٩٤٪ من الأراضى الوطنية» المتفق عليه مع الشركات البترولية الغربية عن طريق حكومات «العرائس المفروضة» حتى ذلك الوقت من المحتل الاستعمارى.

ولخص- أيضا- سلدين لويد وزير خارجية إنجلترا أهداف لإنجلترا والغرب فى الخليج الفارسى على هذا النحو:

«أ » تأمين حرية وصول البترول المنتج من دول الخليج لإنجلترا وباقى البلدان الغربية.

«ب » ضمان حرية تدفق البترول حسب اتفاقات معقودة بالجنيه الأسترلينى لتظل تحت يدنا، مع الحفاظ على توازن مقبول لاستثمارات العرب فى إنجلترا من خلال توظيف أموال البترول عن طريقنا.

«جـ» وقف أى مد شيوعى أو متعاطف مع الشيوعية، وعلى رأس ذلك ما يسمى بالقومية العربية التى هى مستخدمة من قبل السوفيت للتغلغل والتواجد فى المنطقة.

«برقية رقم ١٩٧٩، يوليو عام ,١٩٥٨ ملف إف. ٣١٧/ ,١٣٢٧٧٩ السياسة المستقبلية فى الخليج الفارسى»، و١٥ من يناير عام ١٩٥٨ إف. أو (F.O) ٣٧١/ ٧٧٨، ١٣٢).

ولقد سجلت وثائق أمريكية من نفس الفترة، الأهداف الإنجليزية بتلك المصطلحات المشابهة لما ورد فى برقية لويد: «المملكة المتحدة تؤكد ثباتها المالى عبر استقرار الوضع فى الخليج. إذ إن هذا الاستقرار الداخلى سيتعرض للتهديد إذا تغير الوضع وأصبح خارج السيطرة، وعلى نحو آخر، فإن إنجلترا لا يمكن أن تتخلى عن الاستثمارات الضخمة لسكان هذه المنطقة داخل أراضيها، لذلك فإن الجنيه الإسترلينى فى حاجة لدعم بترول الخليج الفارسى».

«والواقع أن حتمية الإلحاح البريطانى حول مصير البترول، تتفق مع كونه مصدرا أساسيا وحيويا للاقتصاد فى كل أوربا الغربية. وهذا فى حد ذاته يعد سببا كافيا لإمداد المملكة المتحدة بالدعم وبالقوة اللازمة إذا استلزم الأمر ذلك من قبلنا «الولايات المتحدة» لضمان أستمرار السيطرة على بترول

الكويت والخليج الفارسى».

NSC 5801/1) موضوعات ساطعة فى الموقف فى الشرق الأدنى»
مجلس الأمن القومى ٤٫٥٨٢٠ من نوفمبر عام ١٩٥٨»

لقد اعتبر أيزنهاور من قبل الشرق الأوسط «المكان الإستراتيجى الأكثر أهمية فى العالم».

«ذكره ستيفن سبيجل فى: «الوجه الآخر للصراع العربى الإسرائيلى»
جامعة شيكاغو ١٩٨٥ ص٥١»

فى صبيحة الحرب العلمية الثانية، حددت الولايات المتحدة معالم خططها الجيوسياسية، إذ إن مجموعات بحث فى «معهد العلاقات الخارجية» «المؤثر جدا فى عالم المال وفى عالم السياسة الخارجية»، وزارة الخارجية، قد وضعا مصطلح ما يسمى بـ «المجال الكبير»، وهو ما يجب أن يظل خاضعا لمصالح الاقتصاد الأمريكى، ويجب أن يضم على الأقل نصف العالم الغربى والشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية القديمة. «وبرغم خضوعها، فإنه يجب- مع ذلك- فى حدود الممكن تنميتها وتطويرها لتكون نظاما كاملا ومستقلا نسبيا، وتضم فى كل الأحوال أوربا الغربية وخزانات الطاقة بالشرق الأوسط والتى تتحول لتصبح فى يد الولايات المتحدة».

«نعوم تشومسكى: «الأيديولوجية والسلطة» الناشر إبو ص٢٠»

«إن المفهوم الأمريكى للأمن القومى.. يضم كذلك مجالا للتأثير الإستراتيجى، الواقع فى نصف الكرة الأرضية الغربى، مجالا مثل باقى المجالات لكن قلبه هو أوربا، ويجب أن يمثل هذا التأثير الإستراتيجى- أيضا- سيطرة اقتصادية. إن الهيمنة على المحيطين الأطلنطى والهادى تعد نظاما موجها على امتداد القواعد الخارجية لبسط الحدود الإستراتيجية واستعراض القوة الأمريكية، واضعة نظاما أكثر قابلية لتمدد من أى نظام

آخر، وكذلك مؤثرا بحق المرور أو الاجتياز الذى يملكه ويفرضه، وذلك لتسهيل تحول أى منطقة من قاعدة اقتصادية إلى قاعدة عسكرية. ويوفر له ذلك سهولة فتح المجال للوصول إلى الموارد وللأسواق فى أوربا وآسيا. وكذلك غلق أى إمكانية للوصول لهذه الموارد أمام أى عدو محتمل،والحفاظ على التفوق النووى يمثل ركيزة لمثل هذا الفكر الاستعمارى.

لقد سمح هذا المفهوم الإستراتيجى بفهم أكبر لديناميكية الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٨».

«ميليفين ليفلر «الولايات المتحدة والأبعاد الإستراتيجية لخطة مارشال» التاريخ الدبيلوماسى صيف ١٩٨٨»

إن سياسة زيادة التسلح قد لعبت دورا مهما وقاطعا فى هذه البرمجة، «لأنه يبدو واضحا وجود إمكانية التمويل الدائم للتسلح فى هذا البلد».

«مجلة وول ستريت ١٩٥١»

إن الإنفاق العسكرى الأمريكى قد بنى وقوى الإنتاج الصناعى الأوربى بصورة لا يمكن إنكارها، وشراء العتاد الإستراتيجى الخام من المستعمرات الأوربية قد قلل عجز الدولار بنسب ساعدت على سرعة تنفيذ مشروع مارشال فى بريطانيا العظمى والتى استبعدت فى عام ١٩٥٠، على الرغم من أنه عقب هوجان، كانت النتائج بعيدة المدى قد جاءت متعارضة مع ما كان متوقعا. بينما فى حالة اليابان، كانت الإنفاقات العسكرية الأمريكية وخاصة فى الحرب الكورية تلعب دورا رئيسيا فى الإسراع الصناعة عقب الحرب.

كوريا الجنوبية استفادت فى نفس الوقت وبنفس الطريقة كباقى حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية فى تطوير صناعتها.

كان دور العالم الثالث هو خدمة المجتمعات الصناعية. فى أمريكا الجنوبية، كما فى العالم أجمع:

«كانت حماية مواردنا الطبيعية- كما قال جورج كينان- أساسية منذ أن هددت القبائل الهندية مصالحنا. كان علينا أن نفهم أن الرد المهذب يمكن أن يعود علينا بمردود غير مرغوب فيه. إن الإجراءات التعسفية، وقمع أجهزة الشرطة فى الحكومات الصديقة لا يمكن أن تحركنا أو تؤثر فى مشاعرنا، لأن النتائج قد خدمت أهدافنا بطريقة عامة. ومن الأفضل كثيرا أن نضع فى السلطة نظاما قويا بدلا من حكومة ليبرالية متسامحه ولينة ومتعاطفة مع الشيوعيين.

وفى الخطاب الأمريكى، تستخدم كلمة «شيوعيون» مصطلحا فنيا، يقصد به القادة النقابيون، ومنظمو جموع الفلاحين والمجموعات الخاصة لتقديم المساعدات المدعومة مع رجال الدين، وكل الذى يدافعون عن أهداف غير سليمة سياسيا. والأهداف السليمة معرفة على أعلى مستوى عبر وثائق فى غاية السرية.

يأتى التهديد الأكبر للمصالح الأمريكية من الأنظمة القومية، التى هى على اتصال مع نبض شارعها، وترمى إلى تحسين مستوى المعيشة المنخفض لدى الكتل الشعبية، وتصبو- كذلك- إلى تنويع موارد الاقتصاد. تلك المطالب تتصادم، ليس فقط مع ضرورة حماية «مواردنا»، لكن أيضا مع اهتمامنا بتوفير مناخ يتوافق مع طبيعة الاستثمار الخاص، ويؤمن الاستفادة المعقولة من الربح لرءوس الأموال الأجنبية».

«مجلس الأمن القومى، ١٨ من أغسطس عام ١٩٥٤»

فى يناير عام ١٩٩٠ نقلنا عن وزير الدفاع ديك شينى الذى شارك الرئيس بوش فى وجهة النظر هذه: «إن الولايات المتحدة فى حاجة دائمة لأسطول قوى وكل القوات اللازمة للتدخل عامة، لمواجهة النزاعات الخفية التى تنشب، ولحماية المصالح الأمريكية فى آسيا وأمريكا الجنوبية.

وفى المستقبل ستكون قواتنا العسكرية عنصرا فاعلا أساسيا فى ميزان القوى، لكن مشاركتنا ستتأكد بطريقة مختلفة. وهذا يحتم تطوير قدرات جديدة وإيجاد حلول ومعالجات خاصة».

أما التطورات الحالية للسياسة الاستعمارية فى فلسطين، فتظهر الولايات المتحدة فيها إفلاسها يوما بعد يوم، وكذلك فيما يسمى بعملية السلام، هذا المصطلح العبثى، إذ لا يمكن أن يكون هناك سلام إلا بتطبيق قرارات الأمم المتحدة، وبخاصة القرارات التى عالجت احتلال الضفة الغربية وبناء المستعمرات، ووضع القدس.

اتفقت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على استكمال مساعيهما الدبلوماسية من أجل تفتيت «خطر» عملية «حقيقية» للسلام. فى عام ١٩٨٩، اقترحت الحكومة الائتلافية من حزبى العمل والليكود خطة «شامير»، والصحيح أنها فى الحقيقة يمكن تسميتها خطة «شامير- بيريز». ومبادئ هذه الخطة الأساسية هى أنه لن يكون هناك دولة فليسطينية فى قطاع غزة أو فى المنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن، وأن إسرائيل لن تعقد أى مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بشكلها الثورى قبل اعتراف منها بدولة إسرائيل، ولن يكون هناك تغيير فى وضع الضفة الغربية وغزة بعيدا عن الخط المحدد من حكومة إسرائيل التى ترفض إعطاء الفلسطينين حق تقرير المصير. كما ذكرت عبارة «لن تكون هناك دولة فلسطينية أخرى»، مما يعكس الرأى الأمريكى الإسرائيلى المشترك القائل بأن هناك دولة فلسطينية قائمة بالفعل هى «الأردن»، ومن هنا فإن حق تقرير المصير للفلسطينين يعد أمرا غير قابل للمناقشة.

وعلى عكس ما يعتقده الفلسطينيون والأردنيون والأوروبيون وآخرون، فإن هذه المبادئ تعود- فى الواقع- بذاكرتهم للمبادئ أو اللاءات الأربع المذكورة فى برنامج حزب العمل، وهى، لا عودة لحدود ما قبل ١٩٦٧، ولا وقف لبناء المستوطنات، ولا تفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، ولا دولة فلسطينية.

والخطة تدعو- رغم ذلك- إلى انتخابات حرة وديموقراطية تحت الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، مع استعداد منظمة التحرير الفلسطينية إذا ما استمرت

فى التمسك بمبادئها المعلنة[1]. والولايات المتحدة الأمريكية صدقت رسميا على هذا المشروع. كما صرح جيمس بيكر[2] بقوله: «إن هدفنا اليوم أن نمضى جميعا فى اتجاه مبادرة «شامير». ونحن لا نعرض أى خطة أو أى اقتراح آخر». وفى ديسمبر عام ١٩٨٩، أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية خطة بيكر التى اشترطت أن تتفاوض إسرائيل فى القاهرة مع مصر وبعض الفلسطينين المفوضين ببحث إمكانية تحقيق وتفعيل خطة شامير، لكن لا شئ آخر.

«نعوم تشومسكى Deterring Democracy «ردع الديمقراطية» الناشر Vintage»

والحقيقة أن السياسة الأمريكية هى سياسة موجهة «عن بعد» عبر جهاز «التحكم» من جماعة ضغط أو لوبى، وهو اللوبى الإسرائيلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والذى أسمته «النيويورك تايمز»: «اللوبى الأكثر فاعلية.. والذى يتمتع بنفوذ هائلة فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأدنى».

أكدت النيويورك تايمز بأن هذا اللوبى يمثل فى ٤٥ سيناتور على الأقل، إلى جانب ٢٠٠ نائب من بين ٤٣٥ نائبا. واليهود الأمريكيون الذين يمثلون ٢,٦٪ من السكان يمثلون فى الواقع، حسب رواية «مجلة فوربس»، ٢٠٪ من المليونيرات المستعدين لدفع ثمن الآراء المؤيدة لإسرائيل، من خلال لجنة العلاقات العامة الأمريكية - الإسرائيلية التى أعدت فى عام ١٩٨٧، ٦,٩٠٠,٠٠٠ دولار لهذا الغرض.

«جريدة وول ستريت فى ٢٤ من يونيو عام ١٩٨٧»

عقب انهيار الاتحاد السوفيتى، تحول الهدف الرئيسى للسياسة الأمريكية إلى العمل على «وضع اليد» والسيطرة على الدول التى تشق طريقها نحو التنمية.

لقد ردعت الولايات المتحدة بقوة دول الجنوب، ومنعتها من استخدام

(١) أذعنت المنظمة وغيرت ميثاقها فى نهاية التسعينيات.

(٢) وزير الخارجية الأمريكى آنذاك.

مواردها لخدمة شعوبها. لقد تم هذا الردع بطريقة نموذجية كما حدث من قبل فى إيران، إذ خططت الولايات المتحدة للانقلاب الذى أعاد الشاه ردا على المحاولات الإصلاحية الجادة للرئيس مصدق.

لقد اعترفت الولايات المتحدة- أيضا- حينئذ بخطورة التهديد القومى عبر وسائل الإعلام، بعد أن أمم مصدق البترول. ولقد أدى نجاح الانقلاب الذى أعاد الشاه وخططت له وكالة الاستخبرات الأمريكية، وقلب النظام البرلمانى لمصدق، الرئيس الوطنى المحافظ، أدى إلى أن تأخذ الشركات الأمريكية ٤٠٪ من الحصة البترولية المخصصة لبريطانيا.

لقد علقت النيويورك تايمز حينئذ على ما حدث فى افتتاحيتها موضحة الأمر على كونه «امتياز جديدا» وفتحا عظيما. وأوضحت أن هناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من هذه التجربة. وأول هذه الدروس وأهمها- كما أوردت «النيويورك تايمز»: «على البلدان النامية الساعية للتطور، والتى تمتلك موارد طبيعية لا بأس بها، أن تتعظ من هذا المثال الذى تم ضربه. فإذا اتبعت من يهذى بقومية مجنونة، فإن هذا سيكلفها دون شك الكثير. إن التجربة الإيرانية تبدو مقنعة لأى مصدق آخر، وتظهر له أن عليه أن يخلع نفسه من السلطة. كما أن التجربة ذاتها تحدد وتوضح لباقى القادة وتضئ لهم التصور المحدد لأولوياتنا».

«افتتاحية «النيويورك تايمز» ٦ من أغسطس عام ١٩٥٤»

لقد فرضت الولايات المتحدة هذا الإطار العام على مناطق معينة من العالم. وهكذا، حسب فريق تخطيط السياسية فى وزارة الخارجية حساباته بقيادة جورج كنان فى عام ١٩٤٨. ولقد أوضحوا أن المهمة الأساسية فى جنوب شرق آسيا هى تقديم الموارد الأولية وفتح الأسواق أمام اليابان وأوربا الغربية. وأدى هذا الفكر إلى التدخل الأمريكى المباشر فى الهند الصينية، أولا من أجل حماية الاستعمار الفرنسى هناك، وثانيا لوضع اللبنية الأساسية للتغلغل فى المنطقة. وربما- أيضا- للتشكيك فى أن استقلال فيتنام سيتحول إلى «فيروس» معد لباقى القوميات فى كل جنوب شرق آسيا.

«ذكرها ميشيل شالر فى «تأمين الهدف العظيم»، جريدة تاريخ أمريكا، سبتمبر ١٩٨٢»

«كما رأت الولايات المتحدة أنه فى الدول التى يصعب فيها التحكم فى الشرطة والعسكريين بطريقة مباشرة، يجب قلب نظام الحكم، وأن يصل إلى الحكم فيها نظام أكثر تودداً للولايات المتحدة، وأن يوضع على رأس القمة والحكم «جيش دائم التواجد فى السلطة» على طريقة «الحرس الوطنى» أعوان سوموزا الذى ظل طوال سنوات حكمه من المقربين للولايات المتحدة».

«مكتب الاستخبارات الأمريكية للمعلومات المتداولة ١٣ مايو. مجلة OCI العدد ١٨٠٣:٦٥»

«إن برامج التعليم فى الكليات العسكرية الأمريكية تتغير حسب الأهداف. ولهذا أعلنت الكليات الحربية لتلاميذها أن الدراسات الإستراتيجية للحرب ستتركز حول الحرب فى الريف، ومكافحة الإرهاب، ومعالجة الأزمات «ذات التكثيف الضعيف»، أى الحرب المحدودة، وعلى سبيل المثال: غزو بنما، لأن الصراعات المحتملة قد تستوجب حربا «متوسطة الكثافة» مع العدو القوى فى العالم الثالث، ما يحتم اهتماما خاصا. وبالأخص إذا اعتبرنا القوة احتياجا حيويا لفرض السيطرة على اقاليم ومناطق جديدة للحفاظ على الإمكانية المفتوحة للوصول إلى الأسواق والموارد الأولية البعيدة». هكذا قال السيناتور ويليام كوهين (١)، من لجنة القوات المسلحة.

«مايكل كليز: «القوات الأمريكية تواجه الجنوب» Nation «جريدة الأمة»، الأول من يونيو عام ١٩٩٠»

المسألة ذاتها طرحها قائد البحرية «المارينز» إى. إم. جراى الذى قال:

«إن نهاية الحرب الباردة ستعيد بلورة توجهاتنا وتوجيه سياساتنا الأمنية

(١) وزير الدفاع الحالى.

فى الخارج فقط، لكن دون تغيير الأساسيات. فصراع الشمال- الجنوب هو خط أساسى فاصل. فالمحافظة على تواصلنا مع الأسواق فى العالم، وكذلك استمرارية حصولنا على المواد الخام التى تلزمنا لدعم حاجاتنا الاقتصادية دون أى صعوبات، ستحتمان علينا امتلاك قدرة عسكرية ذات مصدقية.

فهذه القوات يجب أن تتمتع بالقدرة على الهجوم والمبادرة، وشن «حملات توسيعية حقيقية»، وتتمكن من تنفيذ العديد من المهمات فى آن واحد، بدءا من قمع التمردات أو الثورات حتى «نشر القوات من جميع الأسلحة» مرورا بالضغط عبر الحرب النفسية. يجب أن نضع فى الاعتبار التطور السريع فى المعدات العسكرية التى يمكن أن تحصل عليها القوى الإقليمية فى العالم الثالث، وعلينا إذن تطوير إمكاناتنا العسكرية وتوجيهها لمزيد من الاكتشافات والاختراعات فى مجالات الإلكترونيات، والعلوم الوراثية وعلوم الأحياء التكنولوجية الأخرى.. وذلك إذا كانت أمتنا فى تأكيد مصداقيتها العسكرية فى غضون القرن القادم».

«جراى: «مارين كورب جازيت» مايو عام ١٩٩٠»

لقد لاحظ المؤرخ ريتشارد إيميرمان أن «القوة والأمن الأمريكيين يعتمدان بشكل أساسى على الحصول على الموارد الأولية من العالم وبالتدخل فى أسواقه الداخلية، وبالأخص فى دول العالم الثالث التى يجب أن تبقيها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة».

«إيميرمان، «Diplomatic History» صيف عام ١٩٩٠»

لقد تأكدت الرغبة الواضحة للإدارة الأمريكية فى الهيمنة على العالم عقب تدمير العراق. ولقد أبرزت وثيقتان للبنتاجون هذا التوجه بوضوح، الأولى تحت إدارة بول دى. وولفوفيتش، والأخرى تحت إدارة الأميرال جيريميا نائب رئيس لجنة رئاسة الأركان. وفيما يلى أربعة مقتطفات منها:

* «الولايات المتحدة هى الضامن للنظام العالمى، لذلك يجب أن نتصرف باستقلالية فى حال وقوع كارثة تتطلب رد فعل سريعا، أو عندما يصعب تجميع موقف عالمى موحد».

* «علينا التحرك لمنع تكوين نظام أمنى بأوربا، يمكنه تهديد توازن حلف شمال الأطلنطى».

* «إذابة ألمانيا واليابان فى النظام الأمنى الجماعى الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية».

* «إقناع جميع المنافسين المحتملين بعدم ضرورة التطفل للعب دور عالمى أكبر من الذى يلعبونه الآن بالفعل».

للوصول إلى ذلك، يجب الحفاظ على وضع القوة الهائلة الخاصة بنا وتخليد الهيمنة عبر إيقاع الهزيمة بأسلوب مدمر وقوة عسكرية تكفى لردع أى أمة أو مجموعة من الأمم عن تحدى إرادة الولايات المتحدة. وذلك يجعلنا نضع فى الاعتبار رغبات ومصالح الدول الصناعية المتقدمة لكى لا تشجعها على مجابهة القيادية الأمريكية، أو أن تسعى إلى إدانة النظام السياسى والاقتصاد الموجود».

«كتبها بول مارى دى لاجورس «مدير مجلة «الدفاع القومى» فى «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية، فى إبريل عام ١٩٩٢»

لقد بدأت هذه الهيمنة الأمريكية بأبشع عمليات الإبادة، ألا وهى تلك الخاصة بالهنود الحمر، واستمرت إبان عبودية واضطهاد الزنوج، وتأبيد الديكتاتوريات الأكثر دموية فى أمريكا الجنوبية، ثم فى العالم بأسره، من موبرتو[١] فى إفريقيا إلى ماركوس فى الفلبين، كما أفرزت فى النهاية خلاصة ما تدعو إليه كنيستها فى هيروشيما ومجازر العراق، والأخيرتان كلفتا الإنسانية عبر التدخل المباشر أو عبر الشركاء المجتمعين مئات الآلاف من

(١) حاكم زائير السابق.

الأرواح البشرية من خلال أبشع الغارات الجوية فى مجمل التاريخ. ولنتذكر من حلقات هذا المسلسل: أربعة ملايين من القتلى فى فيتنام، ومائتى ألف فى أمريكا اللاتينية على يد زبانتهم فى السلاح، و٢٠ ألف فى لبنان- وبلا أى عقوبة بفضل حق «الفيتو»- ومئات الآلاف فى الفلبين، ومئتى ألف فى أمريكا الوسطى. تلك هى أعداد بعض الضحايا، ضمن آخرين.

بل إن الصحفيين الأمريكيين الأكثر جدية عندما يقيمون تلك الجرائم، يحسبونها طبقا لميزانية «الدولارات والموتى». فعلى سبيل المثال نذكر فيما يلى خطاباً من هوج سيدني فى مجلة «تايم» لرونالد ريجان بخصوص نيكاراجوا: «تتشابه نتيجة ما حدث فى نيكاراجوا مع ما طالما رجوناه منذ زمن طويل، طوال جهودنا لحماية الحرية، أقل خسائر، وما حدث فعلا يعد ممتازا. فقط ٣٠٠ مليون دولار مساعدات للكونترا، و١,٣ مليون دولار أنفقت فى الحرب الاقتصادية. تلك هى خسائر الولايات المتحدة، وإذا ما قورن هذا بفيتنام، فإن النتجة لصالح ما حدث اليوم»... يكمل سيدنى: فيتنام «٥٨ ألف قتيل أمريكى و١٥٠ مليار دولار من النفقات، وأمة سقطت فى مرؤارة الهزيمة المروعة» (١)

حول هذا الأسلوب «الذى برز بشدة منذ ذلك بالحملة على كوريا والعراق والصومال ومناطق أخرى» كان تحريض وزير الخارجية دين أتشيسون قائلا: «لو أن سياستنا الحالية تتمنى الحفاظ على تايوان، فيجب علينا أن نخفى بحرص رغبتنا فى فصل الجزيرة عن شبه القارة الصينية. وحتى إن وجب علينا التدخل العسكرى، فسيكون ذلك عن طريق «خوذات الأمم المتحدة الزرقاء» نتيجة موافقة مجلس الأمن على طلب تقدم به التايوانيون أنفسهم الرامون إلى تحقيق مطلبهم الشرعى فى تقرير المصير».

«ذكر بروس كومينج: Plenty in Northeast Asia وورلد بوليسى جورنال، شتاء ١٩٨٧- ١٩٨٨»

(١) لم يذكر كاتب الرسالة حرفا واحد عن خسائر الفيتناميين: ملايين القتلى، وملايين الجرحى، ومسح مئات القرى من الخريطة.

والأكثر فاعلية أيضا لخنق أى احتجاج أيا كان مصدره، هو استئصاله عند مصدره. حتى لو جاء الاحتجاج من القساوسة ضد فاليق الموت.

فى نوفمبر عام ١٩٨٩: كتب الأب إيجناسيو إليكوريا عميد الجامعة اليسوعية، والذى اغتيل فيما بعد، واصفا السلفادور بكونها «ممزقة حقيقة بجروح شبه قاتلة». ولقد كان هذا الأب قريبا جدا من المطران روميرو، وقد كان معه عندما كتب إلى الرئيس كارتر ليشكو له بحرقة تقديم المساعدات إلى المليشيات النظامية المسلحة التى تروع القرويين والسكان. لقد أخبر المطران الأب إليكيوريا فى استبعاد- وبطريقة دموية- أى محاولة للتنظيم الشعبى بحجة نشر الأفكار الشيوعية أو الإرهاب».

«إن تلك الحرب الخاصة- كما أطلق عليها الأمريكيون الحرب المعادية للعصيان- كانت مثالا لصراع «ضعيف التكثيف أو الكثافة»، أى حرب محدودة، ولم تكن تسميتها عملية قمع للاضطرابات أو للمتمردين، أو أى مسمى أمريكى آخر، يقلل من شأن الجريمة. كانت تلك الحرب موجهة ضد النهضة، ولم تكن أى شئ سوى كونها إرهابا دوليا. فقد بدا واضحا من زمن غير قريب، أن السياسة الأمريكية توجه أسلحتها وترسانتها العسكرية لتحقيق مكاسب سياسية واجتماعية خارجية ذات أهمية كبيرة».

«إليكوريا: «الولايات المتحدة تنظر إلى ما حققه روميرو» مارس ١٩٨٥: أعيد طبعه فى جريدة اليسوعيين فى نيكاراجوا: «إنفييو» Envio يناير ١٩٩٠»

وفى مارس عام ١٩٨٠، اغتيل الأب روميرو مطران سان سلفادور عندما كان يقيم قداسا فى الكاتيدرائية.. ودائما كانت المبادئ «الديمقراطية الأمريكية» تفرض على أى احتجاج السكوت!

لم يفاجأ أحد من اغتيال المطران روميرو بعد قليل من التماسه المقدم إلى الرئيس كارتر لإلغاء دعمه العسكرى للمليشيات النظامية المسلحة، والذى أفصح فيه: «بأنها- الأخيرة- تستخدم الدعم فى ترسيخ الظلم والقمع ضد

منظمات الشعب التى تحارب من أجل احترام حقوق الإنسان الأساسية». لقد وضع المطران يده على القضية الأصلية التى يجب طرحها، بعيدا عن كل التعبيرات المستخدمة للتمويه، وكل الإثباتات المعقدة التى تحول دون فهم الحقيقة وتساعد على إخفائها وتشويهها.

لقد طالب «بضمان» من الولايات المتحدة «ألا تتدخل بصورة مباسرة أو بطريقة غير مباشرة، عبر وسائل الضغط الاقتصادى، أو الدبلوماسى أو غيرها من الوسائل التى يمكن لها أن تهدد مصير الشعب السلفادورى». «وقد قوبل الطلب بالوعد بإعادة النظر فى المساعدات المقدمة إلى الميشيات والفرق العسكرية إذا قدمت إثباتات عن سوء استخدام هذه المساعدات».

وكما اغتيل المطران، دمرت قوات الأمن المنظمات الشعبية، مرتكبة فظائع وجرائم كمجزرة ريوسامبل. التى أغفلتها وسائل الإعلام، وتركتها تمر فى صمت.

نشرت أميريكس واتش فى مقال بمناسبة الذكرى العاشرة لاغتيال المطران روميرو: «استمرارية السياسة الأمريكية المسيطرة وضحت فى علاقتها مع فرقة أتلا كاتل، التى تدرب فيها الجنود على طاعة رؤسائهم الذين كانو يعطونهم أوامر باغتيال رجال الدين الجزويت المعادين للنظام». وتكمل الجريدة: والكاتب وصف هذه الفصيلة من الصفوة «الذين صنعتهم ودربتهم وزودتهم بالسلاح الولايات المتحدة». ولقد وصف أحد أساتذة المدرسة العسكرية الأمريكية فى فورت بينيتج فى جورجيا هؤلاء الجنود بكونهم «يتميزون بالوحشية» : «لقد واجهنا صعوبات لتجعلهم يأسرون الأعداء بدلا من تقطيع آذانهم».

وفى ديسمبير عام ١٩٨١ اشتركت الفرقة فى عملية عسكرية راح ضحيتها المئات من المدنيين بين قتل وحرق وهتك عرض، يقاربون ألف شخص حسب ما أورده مكتب الكنيسة للمساعدة القانونية.

بعد ذلك بفترة وجيزة، تورطت الفرقة في قصف قرى وقتل مئات المدنين، غالبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ، بطلقات الرصاص أو بالتعذيب أو بالإغراق في مصارف المياه....

وهكذا يتلخص أساس «الحرب الخاصة» في السلفادور منذ أول عملية عسكرية ذات أهمية في مايو عام ١٩٨٠، عندما تم اغتيال وتعذيب وقطع أعضاء ستمائة مدني في ريوسامبل. وقد اشتركت في العملية قوات من السلفادور وهندوراس: وبرغم كشف المذبحة من كل من الكنيسة ومؤسستي حقوق الإنسان والصحافة الأجنبية، فإن وسائل الإعلام الأمريكية لم تتحدث عنها أبدا، لأنها كانت تشارك في الحرب النفسية التي حددتها حكومتها.

لقد أكدت اللجان القضائية لحقوق الإنسان في خطاب إلى وزير الدفاع شيني، بأن قتله الأبرياء اليسوعيين «الجزويت» تم تدريبهم حتى ثلاثة أيام قبل عملية الاغتيال من قبل القوات الخاصة الأمريكية.

لقد تطرق الأب خون ديكورتينا، عميد العلوم في جامعة الجزويت في السلفادور، إلى أبعد من ذلك، فقال مؤكدا: «إن الجنود الأمريكيين الذين اوقفوا بعد ذلك بعدة أيام في فندق في سان سلفادور بسبب حادثة أثارت الكثير من البلبلة، كانوا هم أنفسهم الموجهين العسكريين الأمريكيين الذين دبروا العملية».

كذلك، فإن أفظع المذابح التي ارتكبتها فرقة «أتلا كاتل» قبل عدة أعوام «كانت تنفذ عقب تدريبات أمريكية».

«لجنة المحامين. خطاب يوم ٢٠ من إبريل إلى سكرتير الدفاع ديك شيني: «السلفادور على الخط». انظر أيضا: ألكسندر كوكبرن «نشين» ١٤ من مايو عام. ١٩٩٠ والأب دي كورنتينا: «كاب كوديز»، أورليزم إم. إيه أول مايو عام ١٩٩٠»

***

بعد هذا التحديد والأيضاح لتاريخ الولايات المتحدة منذ افتراس وذبح سكان شبه القارة الأصليين وإلى أيامنا الحديثة، يجب تقييم ما يسمى بـ «الديموقراطية الأمريكية»، والعمل على إزالة الأوهام، واكتشاف أوهام وأكاذيب «الحرية» التى تزعم أمريكا أنها الحامية الأولى لها فى كل مكان فى العالم.

أولا، داخل حدودها، تتميز الولايات المتحدة، بالتفاوت المتزايد فى الثروات وبالتالى فى السلطات.

فى عام ١٩٠٠، كان ثمن العائلات الأمريكية يتحكمون فى سبعة أثمان الثروة القوية.

«أندريه موروا، «الولايات المتحدة الأمريكية» الناشر برس دى لاستيه ص ١٧»

فى بداية القرن العشرين، وصف جيمس تروسلو آدمز تحت عنوان: «عصر الديناصورات» السيادة الوحشية للمؤسسات البنكية والصناعية، على نفس النحو الذى مثله أحد الأفلام الحديثة لهوليوود، والذى صور عودة الزواحف العملاقة لتحكم الأرض مرة أخرى، كما لو كانت موعظة ذات أسقاطات بعيدة النظر تمثل عالمنا منذ ذلك الوقت.

هذه الفوارق فى المساواة لم تتوقف عن النمو:

«حسب تقارير البنك الدولى، من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٨، انخفض مقدار الثروة الذى تتحكم فيه الدول الفقيرة والأكثر فقرا من ٢٣٪ إلى ١٨٪ أوضح تقرير البنك لعام ١٩٩٠ أنه فى عام ١٩٨٩، تعدت مدفوعات الديون الـ ٤٢,٩ مليار دولار فوق رءوس الأموال الأساسية، مما حقق زيادة بثلاثة مليارات دولار عن عام ١٩٨٨ كما أن تدفق رأس مال من الدول الغنية. انخفض إلى أقصى حد فى العقد الأخير». «البنك الدولى، ١٩٩٠».

وقد أوضح الصحفى داريك جاكسون نتائج ذلك فى «بوسطون جلوب». وقال إن اليونيسيف تضع سويسرا فى المقدمة من حيث دخل الفرد قبل

أمريكا. ولكن أمريكا تصل إلى المرتبة الثانية والعشرين فى وفيات الأطفال، بعد أيرلنده وإسبانيا، بعد أن كانت العاشرة فى المرتبة.

وفيما يتصل بالإفريقيين- الأمريكيين تضاعفت وفيات الأطفال بالمقارنة بالمتوسط العام.

وفى بوسطن، فى حى روكسبر، الذى تتكدس فيه الأقليات العنصرية، تزيد الوفيات على ثلاثة أضعافها، مما يضع روكسبى المفترض انها تنتمى لاغنى أمة فى العالم بعد سويسرا، وفى المرتبة الثانية والأربعين فى وفيات الأطفال.

وأثبتت إحدى الدراسات التى أعقبت أحد المؤتمرات، ونشرت فى مارس عام ١٩٨٩- أثبت أن : «الخمس الأكثر حرمانا- الأقل من مستوى خط الفقر- من السكان، رأى انخفاض عائداته بستة فى المائة «٦٪» من عام ١٩٧٩ حتى عام ,١٩٨٧ فى نفس الوقت ارتفعت الدخول بنسبة ١١٪ بالنسبة للخمس الأكثر رفاهية». هذه الإحصاءات قد رصدت أيضا التضخم، وشملت المبالغ المنفقة فى الدعم الاجتماعى والضرائب. فالخمس الأكثر حرمانا انخفضت بالفعل عائداته الشخصية بنسبة ٩,٨٪، بينما ارتفعت العائدات الشخصية للخمس الأكثر رفاهية بنسبة ١٥,٦٪.

لقد اعترف التقرير ذاته «بالمعازل» الاقتصادية: «فلقد اتسعت الفجوة بين الأمريكيين الأغنياء والفقراء فى الثمانينيات، بحيث أمست فى عام ١٩٩٠، عائدات مليونين ونصف المليون من الأغنياء تساوى مجموع عائدات مائة مليون مواطن قابعين أسفل السلم الاجتماعى».

«مكتب ميزانية الكونجرس»، ١٩٨٩»

فى عام ١٩٩٦، أظهر السيد جميس جوستاف سبيث، رئيس برنامج الأمم المتحدة للتنمية، فى حديث لجريدة «لوموند» الفرنسية، التباعد المتفاقم بين الدول الغنية ودول العالم الثالث، واستنكر أسطورتين: أسطورة العالم الثالث الذى يتمتع بتنمية مستمرة، وأسطورة القطاع الخاص كمعجزة لحل مشكلات التنمية قائلا:

«هناك أسطورة أولى يجب مجابهتها،هى تلك الخاصة بعالم يتقدم بفضل عولمة الاقتصاد العالمى، ويتقدم من أفضل إلى أفضل تحت قيادة خمسة عشر تنينا». وفى الواقع- يكمل السيد سبيث- فإنه فى أكثر من مائة دولة، أنخفض دخل الفرد اليوم عما كان عليه منذ خمسة عشر عاما مضت. بصراحة، هناك ما يقرب من مليار وستمائة مليون فرد يعيشون على نحو أسوأ مما كانوا عليه فى الثمانينات». «فى مساحة جيل ونصف» -يستمر السيد سيبث- «اتسعت الفجوة بين الأكثر غنى والأكثر فقرا. ففى بداية الستينيات، كانت النسبة: واحد إلى ٣٠ بين الـ ٢٠٪ الأغنى على الكوكب والعشرين فى المائة الأفقر. اليوم قفزت هذه النسبة إلى: واحد إلى ٦٠».

إنه العالم النامى ضحية أيضا لأسطورة ثانية «غربية»: «الإيمان بأن القطاع الخاص يمثل البلسم الشافى العالمى»، تماما كالإيمان بأنه فى ظل عولمة التبادل والاقتصاد، لا يمكن أن ننتظر من الاستثمار الخاص سوى أن يقود إلى «عالم متوازن»!

فلا توجد علاقة- فى الواقع- بين حاجات دولة والاستثمارات الخاصة المباشرة فى هذا البلد. التخصيص أو الخصخصة، والتحرير، ورفع القيود: هذه من الكلمات التى تلعب دور المفاتيح السحرية فى قاموس الليبرالية فى نهاية هذا القرن من الزمان، والتى يفترض أن تقودنا إلى التنمية، ولكنها فى الحقيقة، تنمية مصحوبة بأكثر فقر، وظلم اجتماعى واضح، وهذا إلى جانب بطالة لا تكف عن التزايد.

أما فى الجامعات رفيعة المستوى، فيسود قانون السوق. فتعليم طالب فى الجامعات الأمريكية يكلف عائلته ما بين ٦٥ ألف جنيه «١٠٠ ألف فرنك» إلى مائة ألف جنيه «١٥٠ ألف فرنك» فقط للدراسة فى السنة الواحدة. وأما بالنسبة لتعليم «الجموع»، «فالنظام الأمريكى يعتبر فى الحضيض». أظهر تقرير لمتخصصين من جامعة كولومبيا أن ٤٠٪ من الشباب الأمريكى الذين يدرسون فى الكليات، اعترفوا بعدم قدرتهم على القراءة على نحو جيد. وهناك ثلاثة وعشرون مليون شاب أمريكى أمى. «الاقتصاد «جلوبال إيكونومى» ١٩٩٠».

وأما بالنسبة للصحة، فتتمتع الولايات المتحدة بأفضل العيادات، والمستشفيات ومراكز البحث فى العالم، ولكن النظام الصحى نفسه يعد كارثة حقيقية: ففى وفيات الأطفال. تتمركز هذه الدولة فى المرتبة الثانية والعشرين على الصعيد العالمى. وحصة الصحة من النفقات العامة تعد الأقل بين دول الـ OCDE (١)

كما أن عدم المساواة والظلم يولدان التلاعب والفساد. فمركز الخدمات المالية الأمريكى يؤكد أن ٢٠٪ من الضرائب الفيدرالية لا تجنى. ففى عام ١٩٨٩ على سبيل المثال، مثلت هذه النسبة مبلغ ٣٤٠ مليار جنيه مصرى. سجل عدد القضاة الذين ثبتت إدانتهم فى قضايا الرشوة والغش الضريبى بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩٠ رقما قياسيا فاق عدد الذين أدينوا للسبب ذاته خلال الـ ١٩٠ عاما الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الميزات التى يتمتع بها الأغنياء فى هذا النظام، فتقودهم إلى احتكارهم للسلطة. فقد أكد جون جاى، رئيس المؤتمر القارى وأول رئيس للمحكمة العليا الأمريكية «أن من يملكون البلاد يجب أن يحكموها». والنظام السياسى- تماما- مثل النظام الاجتماعى، صمم لكى يخدم حاجات الطبقات التى تحتكر الملكية.

فالسياسة فى دوامة التسويق: ولكل منصب ثمنه. فى عام ١٩٨٨، كانت التكلفة للحملات الدعائية لمناصب مجلسى الكونجرس قد وصلت إلى مليار وثمانمائة مليون جنيه مصرى. أى بما يعادل عشر مرات مقدار التكلفة للغرض ذاته فى عام ١٩٧١.

ومن هذا التناقض بين الاستمتاع الوقح والرفاهية المستفزة للبعض

(١) منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية. أنشئت فى باريس عام ١٩٦٠، بعضوية دول أوربا الغربية كافة، إضافة إلى أمريكا وأستراليا واليابان ونيوزيلاندا وتركيا. وهدفها رفع مستوى المعيشة فى الدول الأعضاء، وتوسيع نطاق التجارة العالمية.

والإقصاء الهامشية للبعض الآخر، يولد ويغذى هذا العنف العام الذى لا مثيل له، والذى لا يمكن حتى محاولة مقارنته بالعنف المتفاقم فى أحيائنا العشوائية فى ضواحى باريس العاصمة والذى يسبب لنا الجنون. ففى نيويورك، وحسب إحصاءات الشرطة، يقع هناك حادث قتل كل أربع ساعات، واغتصاب كل ثلاث ساعات، واعتداء كل ثلاثين ثانية. وبرغم كل ذلك، فإن نيويورك لا تتبوأ سوى المكانة العاشرة ضمن مدن الولايات المتحدة بالنسبة لانتشار الجرائم. وفى عام ١٩٩٨، تم إحصاء ٢١,٠٠٠ جريمة قتل فى سجل الولايات المتحدة الأمريكية. واليوم هناك أكثر من مليون أمريكى فى السجون، وأكثر من ثلاثة ملايين أمريكى تحت المراقبة القضائية.

هذه هى نتائج اقتصاد سوق مفترس بلا هوادة، يحكم كما كتب هوبز فى «فجر الرأسمالية» بمنطق «حرب الكل ضد الكل». فنظام السوق بلا ضوابط، بمنافساته بين الأفراد والجماعات الذين لا يعترفون سوى بمصلحتهم الخاصة. هو منطق ونظام الحرب.

والأزمة المؤسسية فى العالم الثالث عميقة الجذور، خصوصا فى أمريكا اللاتينية. فالتدخلات المكثفة للولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى أدت إلى تبنى إستراتيجية «تنمية» مبنية على الزراعة الموجهة إلى التصدير: فلقد حثت الولايات المتحدة على تهجير المجتمعات الزراعية المختلفة فى أمريكا الجنوبية، وقامت بتغيرات عميقة فيما يخص علاقة الفلاح بأرضه، مما حطم مجتمعات تقليدية دون أن تتمكن أى منظمة أو منظومة ثابتة موجودة أن تحتوى هذا التغيير أو تحل محله.

إن نمو الحضر على حساب الريف فى أمريكا اللاتينية «عام ١٩٦٠ كان سكان المدن ٦٠٪، أصبحوا ٧٠٪ عام ١٩٨٩» وفى بقية العالم الثالث. يعكس زيادة الفقر فى الريف. وزيادة الهجرة الريفية إلى المدن المكتسة حيث تفاقمت المديونية ولم يتوقف الاختلال عن التوسع «تقرير بنك التنمية فى الأمريكيتين، واشنطون ١٩٩٠».

وفى عام ١٩٨٨، أصبحت دول العالم الثالث تعيد خمسين مليار دولار، أى ما يقرب من مائة وثمانين مليار جنيه مصرى كفوائد، زيادة عما اقترضته.

بعد هذا القدر العظيم من الجرائم وأعمال القرصنة، هل يمكننا «اتهام» الذين يدينونها بمعاداة «أمريكا»؟ نعم بشرط أن نقبل أن معاداة الأمركة تبدأ برفض الخضوع والتبعية.

«كريستبان دى برى «الإكسبريس» ٧ من فبراير عام ١٩٩١»

السياسة العامة المتبعة فى أمريكا، تعبر عن سياسة كلا «الحزبين» الرسميين، وفى الواقع تعطى الولايات المتحدة الأمريكية المثال الحقيقى الأكثر وضوحا، رغم إخفاءه، على حكم الحزب الواحد، وهو حزب الأعمال والمال، وتقسيماته الداخلية فيما يسمى، وعبر جمل متضادة «جمهوريين» و«ديموقراطيين» أو عبر رمزيهما «الفيل» و«الحمار». [1] فكلاهما بلا مشروع إنسانى متميز، أو بمعنى أكثر وضوحا، بلا مشروع من أجل الجميع، ولكن على العكس، فان الهدف العام هو رفع معدلات الإنتاج فى بلادهم والاستهلاك فى كل البلدان الأخرى، ولا يخفى ذلك بوضوح فى الحملات الانتخابية.

إن تدمير العالم لمصلحة الحاجات الاقتصادية الأمريكية قد بدأ بطبيعة الحال فى أمريكا اللاتينية. ويتوجب علينا اليوم معرفة إذا كان كل العالم بأسره سيتحول إلى بورتوريكو جديدة، بلا مشروع إنسانى آخر سوى المشروع الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية والمتوج بالخضوع لرغباتها. والنتائج تظهر فى التحلل الاقتصادى والسياسى والثقافى العام حتى فى أوربا، فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا ودول أخرى، كل الموقعين على اتفاقية ما ستريخت التى جعلت أوربا «الدعامة الأوربية للحلف الأطلنطى»، والتى تنفذ أغراض الولايات المتحدة من العراق إلى الصومال. كل شئ يخدم الجات «التى أعيد تسميتها بالمنظمة العالمية للتجارة (WTO)، والبنك الدولى،

(١) الفيل شعار الحزب الجمهورى، والحمار شعار الحزب الديمقراطى.

وصندوق النقد الدولى، وهى المؤسسات التى لا تفرض- كمثال- على العالم الثالث التبعية السياسية والبؤس لدفع مديوناتها فقط، ولكن أيضا تفرض عليه قبول- وبلا أدنى معارضة- فرمانات الدولة الأكثر مديونية فى العالم، وهى الولايات المتحدة الأمريكية.

«غزو العالم وتحطيم ثقافاته»

إلى متى سيظل العالم مستسلما لهيمنة الدولة التى تحتل المرتبة الأولى فى الجريمة، والتى قضت فيها المحكمة العليا- يونيو ١٩٨٩- بأنه يمكن إعدام القصر الذين يبلغون ١٦ عاما، وقد طبق ذلك فى ٢٤ ولاية، حيث أعدام ١٨٢ شخصا بالكرسى الكهربائى أو الشنق أو الغاز، وحيث يقبع ٢٥٠٠ فى زنازينهم انتظارا لتنفيذ الإعدام؟

لكن ما هو أسوأ- حقيقة- فى هذا الواقع، هو تضليل «الرأى العام» حيث تطورت تقنيات الإعدام، و«التيك أواى» الثقافى، لغزو العالم وتحطيم ثقافاته، وتقدم ثقافة «الكاجوال» ودالاس، ومادونا، وشوازينجر، والديناصورات «جودزيلا» فى السينما، ودوشنبرج وكونينج فى الفن التشكيلى، والرسوم المتحركة الأمريكية والتى لم تعد بيضاء الثلج لكن بوباى وبطوط، وفوق الروك «الرولنج ستون» الذين سبب وجودهم فى فينسيا آلاف الأطنان من القمامة بعد حفلهم، وكل ما يجعل شبابنا ينسى ثقافتنا وقيمنا وتراثنا الإنسانى من ثرفانتس وشكسبير ورابليه ونيتشه ودوستويفسكى.

إن ماكدونالدز، والكوكا كولا، وديزنى لاند، وعلب الليل أصبحت رموزا للعبث والتقليد الأعمى، فى هذا العالم الذى أبدع الرامايانا، ومسرح «نو»، والرقص الإفريقى الأصيل، وملاحم جلجامش، وأشعار رامبو.

هل تعنى «الحداثة» النسيان والازدراء والجهل والصبيانية لصالح الجهل والأمية الثقافية والجاهلية الميكانيكية والمعلوماتية؟

هل تقبل أن يصبح كبار كهنة وحدانية السوق وعبادة أصنام المال «الأولاد الذهبيون»[1] هل نقبل أن يصبحوا طلائع الانحطاط العالمى؟

تلك الحالة الروحية تمثلت، ليس اليوم فقط، فى هذه الأرض الشاسعة والغنية، وبفضل حربين أو روبيتين أحدثتا موجات من اندفاعة الذهب نحو أمريكا عبر الأطلنطى، الأمر الذى أوحى للطبقة القائدة فى الولايات المتحدة بفردية بلا حدود «كما كان دائما الأمر فى «الحدود» [2].

إن الولايات المتحدة تعيش أعلى بكثير من إمكاناتها: فاستغلال العالم يتم على نفس النحو الذى تمت به مجازر الهنود، كما لو كانت مذابح الهنود الحمر لم يكفها. ويبرز هذا التعدى للحدود فى التسلط القائم رغم أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الأغنى رسميا فى العالم، ولنها فى الواقع أكثر مدينة- أيضا- بما يقدر بـ ٣٠٠٠ مليار دولار من الدين الخاص، ومبلغ مماثل من الدين العام، وهذا يعنى ما يساوى ثلاثة أضعاف ديون كل دول العالم الثالث مجتمعة.

ليس هناك ما يعبر عن المجتمع أكثر من التقاليد. فمنذ مطاردة الهنود، سمح بحيازة السلاح الخاص، وحتى الأسلحة الأوتوماتيكية كان مسموحا بحيازتها، ولعل هذا قد سبب بين الشباب تفشى وحشية العلاقات الإنسانية، وهذا يظهر فى أعداد الشباب الذين يقتل بعضهم بعضا بالأسلحة النارية.

التقرير الأخير لـ «صندوق حماية الأطفال» - المؤسسة الرئيسية لحماية الأطفال فى الولايات المتحدة- رصد الخط البيانى الصاعد بلا توقف للأطفال والمراهقين المقتولين بالأسلحة النارية: «منذ عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩١ قتل ما يقرب من ٥٠ ألف أمريكى أقل من تسعة عشر عاما «٩ آلاف أقل من أربعة عشر عاما و٤٠ ألفا بين خمسة عشر وتسعة عشر عاماً قتلوا

(١) الشباب الذى يعمل فى المضاربات فى البرصة.

(٢) الحدود: الغرب الأمريكى فى الماضى.

برصاصات أو حوادث أو جرائم متشابكة فى خلال الفترة ذاتها، تجد أن عدد المحتجزين لارتكاب جرائم قتل وذبح ممن هم دون سن التاسعة عشرة قد تزايد بنسبة ٩٣٪». وحسب ما ورد فى التقرير ذاته، فإنهم فى الأغلب الشباب الذين يقتلون أو يصيبون شبابا آخرين.

فبعد الموت بسبب الحوادث «التى لا يحدث فيها إطلاق للرصاص» يأتى مرض الرسطان، لأن القتل رميا بالرصاص يأتى فى المرتبة الثالثة اليوم كمسبب لوفيات المراهقين.

كما أن هناك «عنصرية اقتصادية» حقيقية تقسم الولايات المتحدة إلى أمتين. ففى هذا البلد الذى يجوع فيه الطفل بين كل ثمانية أطفال، لا يكف عدد الأطفال الذين يموتون فى الأحياء الأكثر فقرا عن الزيادة، ويتعدى معدلات موت الأطفال فى مثل هذه الأحياء الفقيرة معدله فى دول مثل سريلانكا وبنما وشيلى وجاميكا.

كما نجد فى ظلال الكابيتول أحياء متآكلة ومشوهة بأفظع صور الإنماء السيئ: من عنف، وانحلال، ومراهقين أصبحوا آباء، وبؤس، ومؤسسات تعليمية سيئة، كل هذا على أرضية من الكراك وباقى أنواع المخدرات القوية.

ولا شك أن واشنطون تستأثر بأكبر ميزانية فى المعونة الطبية، ولكن ذلك لا يمنع تفاقم نسبة الإجهاض.

«التضامن الجديد» العدد الرابع من ٤ إلى ١٢ من أكتوبر عام ١٩٩٤»

والعنف المتأصل يمارس تدميره حتى على صعيد هوايات الشباب.

لقد أسس دوكتور ريلمان فى عام ١٩٧٢ مع مجموعة أصدقائه «مجموعة عيادات هايت أشبورى المجانية»، وهى «عيادة لموسيقى الروك»، أى مؤسسة علاجية تعالج المصابين فى حفلات الروك. وقد كتب الدكتور ريملمان فى سان

(١) الكراك: نوع من المخدرات القوية التى تسبب الإدمان.

خوسيه فى كالفورنيا، واصفا ما يفعله:

«اللارسن يهز الجموع فى ملعب كرة السلة فى جامعة الولاية. النغمات التى يصدرها جيتار الإيقاع ضربات تشبه الشاكوش. والأرض ليست سوى مكان دوران الشباب الراقص من متصببى العرق الذين يتدافعون ويلقون بأنفسهم فوق الآخرين. وفى مكان قريب بجانب الكواليس، ارتدى ديفيد ريلمان قفازاته البلاستيكية وبدأ فى فحص بعض المصابين. ها هو ذا شاب فى الواحدة والعشرين من عمره، عارى الصدر، ومصاب بجرح يشبه عضة حديثة الإصابة. وتظهر إصابة بيده التى أزيلت من عليها طبقة الجلد، توضح أنه تلقى ركلة من البوت العسكرى الذى يعتبر «أحدث موضة بين الشباب» وتبدو أحدى عظام يده اليسرى مكسورة. وها هو ذا فتى آخر يرتدى فانلة المصلحة التأهلية الفيدرالية Federal Crectional Instiution «السجن» ويعانى قطعا دمويا غائر أسفل عينه اليسرى».

دكتور ديفيد يقدم نفسه لمرضاه الجدد، على أنه «دكتور روك». وتخصصه يقتضى أن يذهب لعلاج المهاويس والمصابين كل مساء فى حفلات الروك: إصابا فى الأنف، جزوع وكدمات هى حصيلة تلك الليالى. والإصابات العميقة فى الرأس والكسور ليست من الأشياء النادرة الحدوث.

«التضامن الجديد» العدد الرابع ١٢ أكتوبر ١٩٩٣»

فى أوربا لا تحدث الموسيقى من هذا النوع الأفعال ذاتها من عنف مبالغ فيه. بينما من أول حفلة لموسيقى الروك فى «الوودستوك» وحتى آخر عرض لفريق «بينك فلويد» فى ميدان سان مارك فى فينيسيا، ظهرت المدينة فى اليوم التالى وكأنها تعرضت لقذف جوى بالقانورات.

---

(١) فريق لموسيقى الروك.

(٢) ما يشبه البيادة العسكرية المطعمة بالحديد من الدخل، المسمى فى مصر (رد وينجز).

ولا يمكن بطبيعة الحال نسيان أمريكا الأخرى في أي لحظة، أمريكا إيمرسون وثوروه وجون براون ولنكولن، الثائر ضد العبودية. ولكن ليست هذه أمة العظماء التي تبرز صورتها أو رؤيتها: فثورو انسحب من هذا العالم، كاتبا «ولدن- أو الحياة في الغابة» لينبت في الطبيعة «علاقة مباشرة» مع الله، كما كتب صديقه إميرسون. ولا ننسى أنه عاد إلى المدينة لكتابة مؤلفه «العصيان المدني» الذي كتب عنه غاندي أنه كان مصدر إلهامه. لكن هؤلاء اعتبرو «مهمشين» أو ثوارا متمردين على النسق الاجتماعي السائد: ثوروا اختبأ في أعماق الغابة، ثم رفض أن يدفع الضرائب في المدينة، كاتبا عن نفسه «لقد فقد وطنه». ولقد نقب إيمرسون عن الحكمة في اليهجافاد جيتا (١) ونهر الجانج (٢) وليس نهر البوتوماك. أما لنكولن فلقد اغتالته «المؤسسة».

ولا ننسى السلالة السوداء من دي بوا حتى مارتن لوثر كينج، التي أظهرت لنا هذا الوجه الجميل لأمريكا العميقة والمزدهرة في بداية القرن العشرين مع «نهضة هارلم».

ولا ننسى «الشهادات العظيمة» لسينمائيين مثل فورد في فلمه «عناقيد الغضب»، ولا من تجرأ لإثبات المؤامرة التي اغتالت كنيدي، لكن أمريكا لا تسجل إلا كل ما يخالف أي حقيقة، تماما مثل تصوير مذابح الهنود على أنها رمز للشجاعة والبطولة في أفلام العنف.

ولا يمكننا في الوقت ذاته أن نقول أي شئ عن فلسفة أمريكا، حيث يكبت النظام صرخات الرجال بفلسفته الوضيعة والبراجمانيه التي تستعبد الإيمان والغايات.

ولكن لا يمكننا أن ننسى المساهمات العظيمة لراقصين أمريكين عظماء مثل تيدشارن وروث سان دينيس وحتى مارتا جراهام الذين جددوا هذا الفن

(١) أنشودة هندية باسم: أنشودة السعداء.

(٢) الجانج: نهر في الصين.

وأعادوا صياغته كما فعل شكسبير ومايكل أنجلو كل بطريقته وبلغته.

ولكن هوليوود فى عصر هذه العبقريات، فضلت إبراز وتقديم فريد إستير وجينجر روجرز، ماحية بذلك فى المستقبل آثار العمالقة.

كما ذكرنا هؤلاء الكتاب «المغضوب عليهم» من أول إدجار آلان بو، الذى هرب، للخروج من هذا العالم غير المحتمل، إلى «جنات مصطنعة»، أو من تأثر فى الرواية بقدرة الفوضى فى العالم «الواقعى» مثل توماس وولف، أو من هز فكر محاكم الجنايات، بحياة أصبحت فريسة «الضوضاء والغضب»، بحروبها وما هو موجود من «تفرقة عنصرية»، مثل فولكنر.

إننا لا ننسى شيئا مما قدمته أمريكا، ولكننا لا ننسى فى الوقت ذاته أى شئ مما أخذته خلال مائتى عام عقب «الزحف إلى الذهب» الذى حطم القارات وهشم الأرواح.

«الحداثة» أبتزاز وأرهاب ثقافى

إن شعبنا بلا ماض لا يمكن له أن يبدع سوى فن بلا جذور.

فيما عدا الإبداعات الأصلية لشعوب المايا، والإنكا، والأزتيك، والفنون الأصلية التى جلبها معهم مهاجرون، كتقاليد الغناء الزنجى التى تعتبر جزءا من التراث الإفريقى الذى أدى إلى ازدهار «البلوز» ثم «الجاز»، أو جماعة الفنانين الإيطاليين الذين التفوا حول فيرلينجيتى فى سان فرانسيسكو، فيما عدا ذلك لا يمكن ذكر أى فن حقيقى فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولذلك تحسد القوة الاقتصادية الأمريكية القوة الثقافية لأوربا، فى محاولة منها للانفراد بالرقص والقطيعة، مستخدمين الابتزاز والإرهاب الثقافى لإقناع التجار والمتحذلقين على الأقل بما أسموه «حداثة»، إذ فى الوقت نفسه، يهاجم نقادهم الفنيون أعمال مانيه ورمبرانت وفان جوخ وغيرهم من رموز الحضارة الفنية الأوربية متهمين إياهم بأبشع الاتهامات من التخلف والعبث ورسم الغوريلات.

وعلى الرغم من أن خوان جريس أحد أهم الرواد المعاصرين مثل براك أو بيكاسو، وأنه من أهم رائدى التكعيبية، فإنه قد كتب يقول: «إن عظمة الفنان تتوقف على قوة الماضى الذى يحمله داخله».

لقد لخص الفنان بوفيه تطور «سوق الفن» حسب المواصفات الأمريكية الموضوعية قائلا:

«الجهل فى الرسم قد أرسيت قواعده، وكلما كان الفنان جاهلا اعتبروه رائدا». ليس مهما أن تدرس أو ترسم، كل ما يهم هو أن تبحث عن أشياء جديدة- مهما كانت- لتقدمها لأن المقياس أصبح ماليا ولم يعد جماليا.

إن النظرة الاستهلاكية الأمريكية دخلت عالم الفن وحددت قواعد «سوق الفن». فالمعيار الوحيد هو الغرابة، واجتذاب المتحذلقين من المشترين، وإدخال التبذير فى «سوق الفن، تماما كما قال أحد التجار: «يجب، وبأى شكل، إدخال الطريقة الأمريكية: إن الأشياء عندما يتقادم عمرها تصبح مختلفة فى عالم الأعمال الفنية. يجب أن نعلم مقتنى وجامعى اللوحات إلقاء اللوحة فى صندوق القمامة حين تصبح قديمة مثلها مثل السيارة أو الثلاجة عندما تأتي لوحات أخري جديدة لتحل محلها».

«فيما رولى: «الحالة الثقافية«١٩٩١»

وحين تنهار كل قيم الماضى، كما حدث فى حرب «١٩١٤- ١٩١٨»

- وكانت تلك الحرب أكثر الحروب الدموية وعبثية لأنها أرجعت كلا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الورا- واحتجاجا على النفاق فى فكرة إقامة تمثال «الجندى المجهول»، قام الفنانون السورياليون بافتتاح «مبولة» وسط باريس، ليرموزا بذلك إلى انتحار حضارة، واضمحلال الفن الذى يزعم أنه مرآة تلك الحضارة. وهنا عرض الرسام ماليفيتش لوحته: «مربع أبيض فوق خلفية بيضاء»!

وبإعلان تلك الحرب، بدأ انهيار عالم من الأخلاق والدين والفن. وكتب فلامنك: «عندما أنهيت خدمتى العسكرية، أحسست بالثورة على قيود مجتمع يخضع لقوانين أنانية مشوهة. وأحسست بحاجة شديدة تدفعنى للكتابة أو الرسم. وكانت أبسط هزة تكفى لتفجير مشاعرى. وأصبح الرسم عندى متنفسا. ولولا ذلك؛ وبغير تلك «الموهبة» لتدهورت حالتى. وما لم أستطع تحقيقه فى الحياة- بأن ألقى إحدى القنابل وأساق للإعدام- حاولت أن أحققه فى الفن، وفى الرسم. وقد شفيت غلى فى تحطيم القواعد القديمة، ورغبتى فى العصيان، لأعيد خلق عالم آخر».

وبعد أعوام قليلة، وبدعوى مواصلة تلك المغامرة حتى نهايتها، لم يبق الرسام جاكسون بولوك إلا على الشكل التقنى لهذا التجديد، ولم يجد ما يقوله فى هذه اللغة الجديدة، فقال: إنه يترك الدور الأكبر للصدفة! وعلى لوحاته المفروشة على الأرض، كان الرسام يصب الألوان على اللوحات ثم يتمشى عليها بأحذية مثقوبة!!

واستولى «السوق» الفنى على تلك «البضاعة»، وتغنى النقاد بتلك «المدرسة التجديدية» فى التعبيرية التجريدية، وبذلك التكنيك الجديد فى «التنقيط». وإذا بأسطح اللوحات تشبه خراء الخرفان، وإذا بأسعارها تقفز إلى أرقام مجنونة!

ويعطى دوميك فى كتابه «فنانون بلا فن» المثال على اشتراك الفن فى الفقاقيع المالية التى تثيرها وتصطنعها البنوك الكبرى، ثم تغزو كل قطاعات الحياة الاجتماعية.

ففى عام ١٩٩١، باعت صالة كريستى المشهورة عالميا «لوحة» للرسام كونينج- أحد المشاهير الذين نفخت فيهم وسائل الإعلام، مع بولوك وموزويل، كممثلين لتلك «التعبيرية التجريدية» بـ ٤٤ مليونا و٨٨٠ ألف فرانك؛بينما توقف ثمن لوحة للرسام الأصيل رافائيل عند ثمانية ملايين و٦٨٨ ألف فرنك فقط، ولم يزد ثمن لوحة للرسام تبتيان على خمسة ملايين و٥٢٥ ألف فرانك، ولوحة

ثالثة للجريكو بـ١٢ مليون و١٠٦,٩٢٠ فرنك،ولوحة رابعة للرسام لاتور بـ ٤ ملايين و٩٩٥ ألف فرنك، ولوحتان للرسام فيرونوز، واحدة بـ ٦ ملايين و٥٠ ألف فرنك، والأخرى بـ٥ ملايين و٤٧٦ ألف فرانك، ورسمان للرسام بوسان، واحد بمليون و٤٥٠ ألف فرانك، والثانى بمليون ٣٢٠ ألف فرنك. «مجلة موسم ١٩٩١، منشورات كريستى».

وهناك عملية مالية أكثر وضوحا، تؤكد «انتصار الفن الأمريكى»، «وهو نفس عنوان كتاب ساندلر، مطبوعات كار ١٩٩٠»، حين نجح تاجر اللوحات الفنية ليوكاستيللى، بوسائله الخاصة، فى إخضاع السوق الأوربية- فى بيع اللوحات- لسوق نيويورك، وعمل التاجر بنجاح على أن يفوز روزنبرج بجائزة بينالى فينيسيا عام ١٩٦٤!

ويجدر بنا أن نلخص ما سموه فن «البوب آرت»، وهو فن مستورد. ففى عام ١٩١٧، أرسل الرسام الفرنسى مارسيل دوشام إلى «جمعية الفنانين المستقلين» فى نيويورك، «نافورة»- «كانت فى الحقيقة مبولة»، تعبيرا عن احتجاجه على عبثية الحياة: «فلا معنى لأى شئ، وخاصة فى الفن». وكان أصل ذلك فى حركة «دادا » الفنية، والتى تقول بفراغ المجتمع وسخفه وعبثيته. ومثل هذا الموقف كان رد فعل الحرب، وما خلفته فى العالم. ولكننا نجد روشنبرج يلتقط الفكرة، ومعه المتعهد ليو كاستيللى، ليستخدمها على أنها «تجيد»، وليعلن «البوب آرت» بعد سبعين عاما، وليعتبرها «مدرسة» و«أسلوبا» فما أحرى أن يسمى فن المبولة!

وهكذا نجد روشنبرج يلصق طائرا محشوا بالتبن على لوحته، وأحيانا كان يلصق عنزة صغيرة بدعوى «العودة إلى الحقيقة العارية!».

إن استيراد أوربا لهما أكبر الأثر فى تحويل السينما- عدا بعض الاستثناءات- من فن إلى صناعة. فقد أدخلت طريقة للعيش، مثل تلك التى شهدتها عنصرية «الوسترن» ليكون الهندى «قتيلا» أو «متعاونا» مع الغزاة،

وأدخلت كذلك أفلام «الرعب» بمؤثرات «خاصة» والتى تخصصت فيها هوليوود ببراعة، أو أفلام «العنف» بسرعة مائة رصاصة فى الساعة. وكل ذلك يترجم تحلل الفن والحضارة.

وأحد آثار هذا التلوث الثقافى الوافد من الولايات المتحدة الأمريكية، طليعة الانحطاط، هو تصاعد السوقية والهمجية فى الفنون الجمالية، وهو ما شهدناه بباريس فى «حمائم» لورين فى قصر رويال، وفى «لفائف» كريستو فى بون نيف.

ففى ١٣ من سبتمبر عام ١٩٨٢ رأينا مشهد تغليف كوبرى «بون نيف» وسط باريس بلفائف الأقمشة، مما احتاج إلى أقمشة بلغت مساحتها ٤٣ ألف متر مربع، و١١ متر من الحبال، وهى صفقة مالية كبيرة! وحينذاك قال الشاعر والكاتب الفرنسى «فيركور»:

«غريب أن نذهب إلى أثينا لمشاهدة البانتيون، ثم نراه مغطى باللفائف».

والغريب أن هذه المهزلة كلفت دافعى الضرائب من أهل باريس ١٩ مليون فرنك!

ولكن كريستو لم ينجح تماما كما نجح زميله الآخر بورين، الذى نجح فى انتزاع ٢٢ مليون فرنك ليقيم معرضا لقطع الحمائم الملونة بالأبيض والأسود- مثل الحمار الوحشى- فى فناء الشرف لقصر رويال.

ومن اليسار واليمين لا تتوقف «اللا ثقافة» عن نشاطها بعناد، لتشويه باريس، بعد أن انتقلت إليها عدوى التجارة والمضاربة فى الأعمال الفنية.

***

ولكن الفن لعب دورا عظيما فى كل الحضارات، لأنه يرتبط بالواقع بعلاقة حميمة. والفن يلعب دور المحرك فى المجتمع إذا كان صادقا وأصيلا. تماما كما يلعب الإيمن. ذلك، لأن الفن يكتشف للإنسان آفاقه الذاتية، وآفاق

العالم، وقد لا يدركها الإنسان بنظراته التى اعتاد عليها.

ولكن لننظر إلى نموذج أحد مشاهير الفنانين مثل «أندى وارهول» الذى يحظى بكثير من الدعاية والنجومية.

لقد استعان بتقنية الدعاية، وتكرار الصورة، وضاعف من ألوان الأحبار، لصورة «مارلين مونرو».

إننا نجد أنفسنا أمام نقيض الفن: فلا شئ يكشف فى الواقع ما فوق الواقع. وعلى العكس، يلتصق نقيض الفن بأدنى أساليب الدعاية التى تعتمد على تكرار إثارة الغرائز، فلا تحوى من الإنسان شيئا. تماما كما تفعل معنا إعلانات «الكوكا كولا» «ومكدونالدز». وقليل من النقاد يجرءون على القول: «إن الملك عار».

ومع ذلك، وحين خصص مركز بوبور «أو جورج برمبيدو فى باريس» معرضا «استرجاعيا» لهذا الرسام، اجتذب كما قيل ٨٠٠ ألف زائر، مما يقرب من الأرقام القياسية لرواد محلات «برنتان» التجارية فى أعياد الميلاد.

وما يميز فن «الفراغ» أو «الخواء» أن النقاد لا يحدثوننا عن الأعمال الفنية ذاتها، ولكنهم يتحدثون عن مقاصد ونوايا أصحابها، وهم لا يبخلون فى الإنعام عليها بالألقاب المزركشة مثل «الفورتيسزم» Vorticismأو «الأرفوزم» Orphisme، أو جماعة «الكوبرا»، أو «رسم الكائنات» وغير ذلك. مع أن ما نشهده لا يزيد على مجموعة من رقاب الزجاجات، أو سجاجيد عليها أكوام من حبال، وكريات من الصوف!

***

لا شئ يدعو إلى الصحوة، بل يغرى بالغيبوبة فى حفل موسيقى يقدم الصخب والزعيق لتصل حدة الصوت إلى ١٣٠ ديسيبيل، «مع أن الأذن تتأذى من ٩٠ ديسيبيل».

ودون الحديث عن نوعية الموسيقى، فإن تقديم سوناته للموسيقار شوبان، بمثل هذا التضخم الميكروفونى يمكن أن يصيب الوعى بالخدر، والحس النقدى بالغيبوبة، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك الضجيج، دور فن اضاءة الليزر حتى يكتمل تأثير التنويم المغنطيسى!

وكذلك الأمر بالنسبة للعمارة التى يجب أن تكون إفراز مجتمع. ففى عالم يكتب «البانك» على قمصانهم «اللا مستقبل»، وفى الشارع نفسه بوبورج الذى يرى من عنده الأفق كنيسة نوتر دام التاريخية، ظهرت فجأة الأنابيب الملونة التى تذكر بمصنع لعزل المخلفات أو إعادة تصنيعها.

لقد قادت هذه الفكرة المسيطرة للبحث عن التجديد من أجل التجديد، على طريقة «جديد فى جديد» فى كل المجالات، قادت إلى طرد الإنسان من الثقافة، وتعرية الثقافة الإنسانية.

«البوب آرت الحديث»، و«الموجات الجديدة»، و«الرواية الجديدة» و«الفلسفة الجديدة»، كل ذلك- أيضا- للتعبير بطريقة لا تصدم، عن وجود المنتج الإعلانى داخل ما يحمله هذا الجديد، والذى له نقاط التقاء مع الاقتصاد الذى يحكم النظام:. لقد عرفه أحد المهتمين والمدركين للموقف: «يهدف إبراز الأمر المرحلى إلى استبعاد المسألة الفلسفية للغايات النهائية».

«مايكل ألبرت، «الرأسمالية ضد الرأسمالية» (١) الناشر، «سوى» ١٩٩٣ ص٢٣٠»

وهكذا ولد ما أسماه جيل ليبوفستكى «عصر اللا شئ».

لكن هذا لا يمكن أن نتعتبره جريمة شعب، وإنما هو جريمة مؤسسات وقادة. فلا يوجد شعب سئ، وإنما- فقط- يوجد شعب مغيب ومخدر.

فالشعب الألمانى الذى أفرز عباقرة أبدعوا وأضافوا الثقافة والعلم

(١) نشرته بالعربية مكتبة الشروق.

والإيمان وأثروا حياتنا، اتبع هذا الشعب- ولمدة خمسة عشر عاما- جاذبية أناشيد الموت الهتلرية.

إن ديماجوجية «الشعب المختار» تحاول حرمان الأمريكيين من معرفة أو إدراك ذكريات ماضيهم، ليستمر توريطهم عبر الـ «فاليوم» الجماعي: التليفزيون والسينما والصحافة، في مغامرات جديدة «للمجتمع الصناعي العسكري»، والتي تتغذى الثروة والقوة فيها عن طريق نمو البؤس والسيطرة العسكرية والاقتصادية على العالم.

إن نفاق سادة القارة مستمر بصورة مأساوية منذ كريستوفر كولومبس وحتى رونالد ريجان ومنذ كتب كولومبس إلى ملك إسبانيا: «الذهب هو أغلى نفائس الكوكب، ومن يملكه يملك كل ما يحتاج إليه، ويملك- أيضا- ما يقي الأرواح شر المحرقة».

«كتبه ماك إليستر: «إسبانيا والبرتغال» مينا بوليس ١٩٨٤»

لقد أعلن رونالد ريجان أن ثراء ورخاء الولايات المتحدة يرجع إلى كونها «أمة مباركة من الله». لكن أحد رجال الدين الإسبان جرؤ على استهجان ما قاله ريجان إياه بأنه «تجديف وهرطقة»، لأن ثروة وقوة الولايات المتحدة لا تأتي من مباركة الله، ولكنها ترجع إلى استغلال العالم وبخاصة العالم الثالث عبر التبادلات غير المتوازنة وغير المتعادلة، وفرض استيراد المنتجات الأمريكية بالقوة، وغزو رءوس الأموال الأمريكية للدول التي تنخفض فيها المرتبات، وعبر الفوائد الاستغلالية «للقروض».

هذا هو تقييم خمسة قرون من الاستعمار وخمسين عاما من تطبيق نظام «بريتون وودز» والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ثم منظمة التجارة العالمية. ولم تتوقف منذ ذلك الحين دق علامة الصليب على أسنة السيوف، كصنم يمثل الذهب والموت. ها هي ذي القصة كلها، فهي لا تخرج- أبدا- عن هذا الإيطار، وهذا هو لب القضية.

الحالة الدينية لأمريكا
الدين الأمريكى

هدف التعديل الأول للدستور هو إنشاء حائط فاصل بين الكنيسة والدولة.

توماس جيفرسون

المسيحية الأمريكية هى الضلع الثالث لمثلث ضلعيه الآخرين: الديمقراطية، وفلسفة.. دعه يعمل دعه يمر.

ناثان أوهاتش

يسوع الأمريكى أقرب لما هو أمريكى مما هو مسيحى.

هارولد بلوم

عندما جاء المستوطنون الأوائل، اعتبروا أمريكا هى (أورشليم الجديدة) أو (كنعان الجديدة) وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء.

ليونارد ياسن

(١) الكتاب المقدس والدستور

لم تكن مغامرة كولبس إلا مغامرة دينية انتهت بانتصار المسيح فى أمريكا.

لقد أراد كولبس الذهاب شرقا. بالإبحار غربا، لاكتشاف طريق جديد للهند، وفى حين أن مغامرة كريستوفر كانت شأن دولة (أسبانيا) إلا أنها قبل ذلك كانت مهمة دينية، فأسبانيا الأمة الأكثر إخلاصا للكاثوليكية فى أوربا، كانت تعتقد بمسؤولية كبرى تجاه الفاتيكان، وتجاه نقاء ايمانها الكاثوليكى. ولمدة ٨٠٠ عام، حارب الكاثوليك فى أسبانيا المسلمين حتى نجحوا فى استردادها، وطرد المسلمين إلى إفريقيا، عبر جبل طارق وإجبار يهود أسبانيا على اعتناق الكاثوليكية أو عزلهم وطردهم.

إن اكتشاف العالم الجديد كان لأسبانيا ضمن رسالتها الدينية لهداية الوثنيين من جهة وتنقية ايمانها الكاثوليكى بالحرب من جهة ثانية، وأخيرا مثلت مغامرة اكتشاف العالم الجديد لأسبانيا امتدادا للحروب الصليبية التى استمرت لقرون بالتوسع فى الأرض وإغناء مملكة الله وكنيسته.

وكان كريستوفر نفسه يحمل الرؤية الدينية على أساس أن الله هو الذى يسير التاريخ، وبكلماته، فإن الله جعله رسولا للجنة الجدية والأرض الجديدة بعد أن حدثه بها يوحنا المقدس فى سفر الرؤيا وأراه النقطة التى يجدها عندها.

وكتب كريستوفر كلومبس عام ١٤٩٢، أنه ليس مدينا بنجاحه لجهده، وإنما لايمانه المسيحى المقدس. وأضاف لنتوجه بالشكر إلى الله والمخلص

يسوع المسيح، الذى ضمن لنا نصرا عظيما وازدهار: إن اكتشاف أمريكا قبل أى شئ آخر، كان نهاية حج عظيم ونهاية للبحث الروحى العظيم.

ومثل أسبانيا فإن فرنسا (الكاثوليكية) أرسلت ببعثات الجيزويت (الجماعات اليسوعية)، وبمستوطنيها، فى القرن الثامن عشر إلى آلاباما ونيو أورليانز وأركنساس ولويزيانا.

وكان التدافع الكاثوليكى إلى العالم الجديد دافع إنجلترا كأمة بروتسانتية لاستعمار أمريكا. بل يمكن القول أن التنافس البحرى بين الانجليز والأسبان كان تنافسا بروتستانتيا كاثوليكيا. حتى هزمتها انجلترا وضمرت الأسطول البحرى الأسبانى فى معركة أرماد عام ١٥٨٨ فقبل ذلك التاريخ بأربعة أعوام كانت السفن الانجليزية قد وصلت إلى نورث كارولينا وفرجينيا .

وفى عام ١٥٨٥ نقلت ٧ سفن إنجليزية ١٠٨ مستوطنين إلى ساحل نورث كارولينا، وفى عام ١٥٨٧ أقام ١٥٠ مستوطنا أول صلاة بورتستانتية فى العالم الجديد. ثم كلف الملك جيمس الأول، فى ١٠ إبريل ١٦٠٦ شركتى لندن وبلايموث بالاستيطان فى أمريكا الشمالية وأسست شركة لندن أول مستعمرة على ساحل فيرجينيا (مستعمرة فريجينا) عام ١٦٠٧ وأقام المستوطنون وانشئوا فيها كنيسة جيمس تاون.

وفى ٣٠ يوليو ١٦١٩ اجتمع أول فوج من المستوطنين فى كنيسة جميس تاون لوضع قوانين ونظم مستعمرة فيرجينيا وفى العام التالى ١٦٢٠ وصلت المجموعة الثانية من المستوطنين إلى شاطئ نيوانجلند، على ظهر السفينة (ماى فلاور) ووقعوا فيما بينهم (عهد ماى فاور) حددوا فيه طريقة الحياة التى يرغبونها واسس المجتمع المثالى فى أورشاليم الجديدة أو كنعان الجنية (أمريكا).

وتأكد قرأت عهد ماى فلاور أن أولئك المستوطنين الأوائل هاجروا من أوربا بحثا عن الحرية الدينية ولنشر البروتستانتية البيورتيانية (التطهرية)

بعيدا عن تحكم كنيسة إنجلترا الانجلكيانية، مثلما رفضوا من قبل تحكم كنيسة روما الكاثوليكية. وفى حين أخضعت كنيسة فيرجينيا رسميا لكنيسة إنجلترا ١٦٦٢، حاول بعض المستوطنين تحويل الكنيسة لأن تكون أكثر بروتستانتية، ومؤسسة أقرب إلى تعاليم جون كالفين، وظل أخرون بعيدا عن كنيسة الدولة لإنشاء كنيسة أكثر بيورتيانية. لقد كان البيوريتانيون يأملون فى تغيير ميثاق الكنيسة وعلاقتها بالدولة، وكان أملهم فى العالم الجديد إنشاء نموذج أخر للكنيسة، يتأسس على فصلها عن الدولة وعن تحكم العائلة المالكة.

وعلى هذا الأساس، أقام البيوريتانيون مستعمرة بليموث (١٦٢٠)، ومستعمرة ماساشوتس (١٦٣٠) واستطاعوا أن يفرضوا تصورهم الأخلاقى والدينى هناك ومن ماساشوتس، انتقل البيوريتانى روجر ويليامز إلى بوسطن ليؤسس مستعمرة رود إيلاند، على أساس الحرية الدينة، وسمح ويليامز لوجود المعمدانيين والكويكرز (الأصحاب)، وهناك أسس الاسقفيون أول كنيسة لهم وأقام اليهود لهم معبدا. وأنشأ رجل الدين الايرلاندى جورج بيركلى كلية كنجز كوليج (أصبحت فيما بعد جامع كولومبيا فى نيويورك). وعلى نهر ديلاوير أقام السويديون مستعمرة بالقرب من مدينة ولنجتون الحالية، وبذلك أدخلو (اللوثرية) إلى العالم الجديد. وبعد ذلك فى عام ١٦٦٤، استعمرت إنجلترا نيونيذر لاند لتصبح نيويورك وكتب حاكمها الإنجليزى ادموند اندروز، عام ١٦٧٨: لدينا هنا أديان من كل الصنوف: كنيسة إنجليزية ومشيخيون واسقفيون وكويكرز ومعمدانيون من كل نوع، إلى جانب بعض اليهود، ولذلك تخلى الحاكم الإنجليزى عن فكرة سيطرة كنيسة الوطن الأم. كما ازدهرت الانجيلية فى نيويورك، حيث تأسست أول كنيسة انجيلية، بها عام ١٦٩٧، وفى أقل من ٥٠ عاما، أصبح فى نيويورك ٢٠ كنيسة انجيلية، مقابل ١٨ فى نيوجيرسى و ١٤ فى ديلاورى. كما أن جامعة كنجزكوليج التى بدأت عام ١٧٥٤ الانجيلية، ثم أصبحت جامعة كولبيا عام

١٧٨٤ فتحت أبوابها بعد ذلك أمام الجميع وبسبب موقف الكنيسة الأنجيلية المعارض للثورة الأمريكية ضد انجلترا، ازدهرت الكنيس المشيخية فى نيوجيرسى وأسس المشيخيون هناك نيوجيرسى كولينج (أصبحت فيما بعد جامعة برنستون)، ثم انتشرت المشيخية فى كل مستعمرات الوسط الأمريكى خصوصا بعد قدوم المهاجرين من أيرلندا الشمالية.

وفى بنسلفانيا، أنشأ ويليام بين، مستعمرة للكويكرز الانجليز والايرلنديين الفارين من المحاكم والتفتيش.

أما ميريلاند، فكانت جنة الكاثوليك حيث أسسوا أول كنيسة فى مدينة سان مارى العاصمة الأولى لميريلاند، وفى الوقت ذاته، انتشرت المعمدانية بين الزنوج فى ميريلاند، ومنها إلى فيرجينيا فى الجنوب وبنسلفانيا ونيويورك ونيوجيرسى فى الشمال، وتضم ميريلاند عام ١٧٧٤ نسبة ٥٠٪ من المعمدانيين.

وبدءا من ستينيات القرن الثامن عشر. تطلع الأمريكيون فى المستعمرات إلى الحرية الدينية إلى جانب الحرية المدنية، واحتج عدد من رجال الدين بمن فيهم انجيليون، على سيطرة الكنيسة الانجليزية الانجيلية.

من ذلك، ما قاله ويليام ليفنجستون فى الكنيسة المشيخية عام ١٧٦٨، بأن محاولة انجلترا فرض سيطرة الكنيسة الانجيلية على الأمريكين هو تهديد للحرية والضمير.

وفى فيرجينيا معقل الكنيسة الانجيلية كتب توماس جيفرسون عام ١٧٧٧ لائحة للحرية الدينية ليتقدم بها كحاكم للمجلس التشريعى، لاقرارها بعد أن جربت فيرجينيا لمدة تزيد على قرن ونصف قرن، ارتباطا وثيقا بين الكنيسة والدولة وسيطرة الكنيسة الانجيلية بالرغم من التعدد الدينى، واقترح بترك هنرى، ألا تسيطر كنيسة واحدة، ولكن أن تعتبر المسيحية الدين الرسمى، وكان الاعتارض على الاقتراح بحجة أن اعتبار المسيحية الدين الرسمى

ليمكن أن يكون وسيلة لإنجلترا لفرض مذهبها المسيحي وكنيستها، وكان جيمس مادسون عضو المجلس التشريعي وقتئذ من قام بجمع أفكار من التاريخ تعارض الاقتراح بالاضافة إلى جميع التوقيعات الرافضة له .

وكان رأى مادسون (عام ١٧٨٥) أن السلطة المدنية يجب ابعادها عن تقرير المسائل المتعلقة بالاعتقاد والعبادة، وأن أعضاء المجلس التشريعي لا يملكون الحق أو افتراض الحكمة لوضع أنفسهم كقضاء للحقيقة الدينية.

وقال: إذا قبلنا، قانونيا، أن تكون المسيحية دين فيرجينيا لاستبعاد الأديان الأخرى، فما الذى يمنع مستقبلا من أن نقبل قانونيا استبعاد المذاهب الأخرى لمصلحة مذهب مسيحى معين.. إن الثورة الأمريكية قامت للتخلص من كل طغيان مدنى أو دينى، وكسب مادسون وخسر هنرى.. وكان الرابح الأول توماس جيفرسون، باقرار التشريع الذى طرحه. ومن المهم هنا، ابراز مساهمة جيفرسون فى مسألة الحرية الدينية.

لقد بدأ جيفرسون من حقيقة أولية هى (إن الله القادر خلق العقل حرا) ولذلك، فإن الإنسانية يجب أن تعمل كل ما تستطيعه لتبقى العقول دون قهر أو ازعان.. ولنضع فى الاعتبار أن الله الحكيم القادر نزه نفسه عن قهر عقول وأجسام الرجال والنساء، فكيف نقبل أن يسمح بعض الرجال لأنفسهم بالسيطرة على اعتقاد الآخريين، وقد يقول قائل.. أنه دون سلطة الدولة فإن كل أنواع الأخطاء والمعصية سوف تنتشر. ويجيب جيفرسون بأن الخطأ تمكن محاصرته بالحقيقة(الإيمان) وأن الإيمان يبقى إذا ترك وشأنه.

ويخلص جيفرسون إلى أنه لن يمارس أى ضغط على أحد لدعم أية كنيسة أو مكان عبادة أو رجل دين.. وأنه ما من أحد سيقابل معاناة بسبب آرامه الدينية، وإنه سيكون من حق الناس التعبير بحرية عن أفكارهم الدينية وأيا ما كانت تلك الآراء فإنها لن تؤثر بأية طريقة على وضع المواطنة أو على حقوقهم.

وعندما اجتمعت وفود الولايات الثلاث عشرة فى فيلادليفيا عام ١٧٨٧، للنظر فى مسودة اطار الحكم الفيدرالى، تضمنت المادة السادسة من مشروع الدستور أنه لا اختبار دينيا سيكون مطلوبا لشغل أى منصب فيدرالى.. وأنه لا اشتراط لحلف اليمين. وأنه لا تحديد لمرجع دينى.

وأرسل جيمس مدسون، الذى وضع المسودة، نسخة منها إلى جيفر سون فى باريس، ولكن جيفرسون نبه إلى خلو ديباجة الدسور من الاشارة إلى ضمان الحريات الإنسانية التى تبدأ بالحرية الدينية (بتعبير جيفرسون).

وخلال عملية الحصول على الموافقة على مسودة الدستور (دولة بدولة) اكتشف مدسون أن أخرين يشاركون جيفرسون الرأى، ولذلك فأنه وعد فى حالة التصديق على الدستور، باعداد (لائحة الحقوق) لتقديم إلى الكونجرس الجديد وقدم مديسون اللائحة للكونجرس عام ١٧٨٩، وجرت الموافقة عام ١٨٠١ على تعديلات الدستورية العشرة. وكانت العبارة الأولى فى التعديل الأول للدستور أن الكونجرس لن يصدر أى قانون بصدد ترسيخ مؤسسة للدين أو منع ممارسته بحرية.

وقد كتب جيفر سون فى عام ١٨٠٢ (خلال فترة رئاسته الأولى)، رسالة إلى جماعة من رجال الدين فى إحدى كنائس ولاية كونيتكت: إن هدف التعديل الأول فى الدستور هو (إنشاء حائط بين الكنيسة والدولة).

وفى الحق أن الأباء المؤسسين للجمهورية، أرسو دعائم الحرية من الاضهاد الدينى وضمان الحرية الدينية.

فعندما تولى جورج واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة، الرئاسة عام ١٩٨٩، توجهت إليه الأنظار وسط مخاوف من استبداد داخلى بعد التحرر من الاستبداد الخارجى (إنجلترا) فالروم الكاثوليك بعد أن صدرت بحقهم قوانين لمنع الهجرة من الدول الكاثوليكية ومنع انتشار بعثات الجيزويت كتبوا

للرئيس واشنطن عن ذلك، ورد عليهم فى ٢ مارس ١٧٩٠ بقوله، أنه يأمل أن يرى أمريكا بين الأمم مثلا للعدل والحرية، وأن الأمريكيين لن ينسوا واسهام المواطنين الكاثوليك فى الثورة الأمريكية وتأسيس الجمهورية.

وكتب يهود نيويورك للرئيس عن مخاوف من أن يلاقوا فى ظل الجمهورية الوليدة ما لاقوه من قبل من اضهاد وتعصب وأجاب عليهم واشنطن فى ١٧ أغسطس ١٧٩٠، بقوله: لا تميز بين الأمريكيين.. إننا لا نتكلم فقط عن تسامح وإنما لابعد من ذلك عن حقوق طبيعية اساسية: إن حكومة الولايات المتحدة لم تدع فرصة للتعصب ولن تساعد الاضطهاد.. إن أحفاد ابراهيم (اليهود) مثل كل الأمريكيين لهم حق العيش والتمتع مثل باقى الأمريكيين وكتب الرئيس جون الدامز عام ١٨١٦، رسالة لابنه، مهاجما ادعاء اتباع كالفين أنهم يملكون الحقيقة الدينية المطلقة.

إن كل كنيسة تتصرف على أساس أن لديها احتكار مطلقا للحقيقة، وأن لديها (الروح القدس)، فى قارورة. كما أن كل كنيسة تعتقد أن أعضاءها فقط لديهم تذاكر مضمونة لدخول الجنة.. إننى شخصيا أرفض الاعتقاد أن ملايين وملايين الرجال كتب عليهم أن يكونوا بؤساء وأن عددا من أتباع (الكالفينية) كتب عليهم أن يكونوا سعداء دائما .

وفى حين أن الرئيس توماس جيفرسون، اتهم بالالحاد لفرضه الاحتفال بعيد الشكر، بسبب طبيعته الدينية إلا أنه كان يعتقد أنه مسيحى حقيقى- كما قال عام ١٨٠٣- ولكنه لا يميل الى المؤسسات الدينية لأن الإيمان بالنسبة لهم مسألة شخصية وفردية، كما كان يعتقد أن الاخلاق والسياسة تحكمها الاعتبرات الوضعية. بعيدا عن رجال الدين والكهنوت.

كما أن الرئيس ابراهام لنكولن رفض الأنضمام لاى كنيسة بالرغم من تأكيده أنه مسيحى. وكان الرئيس تيودور روزفلت الذى تولى الرئاسة بعد

ظهور فلسفة ويليام جيمس البراجماتية يقول أن الدين هو (الأعمال الجيدة) وأن ذهابه إلى الكنيسة (شكلى) وفى رسالته إلى الكونجرس عام ١٩٤١ أكد الرئيس روزفلت أن حرية كل فرد فى عبادة الله على طريقته الخاصة، تأتى إلى جانب الحريات، التى يجب دعمها مثل حرية الكلام والتعبير والتحررمن ربقة العوز والتحرر من الخوف، ولم يخل بدع الرؤساء الأمريكيين للحرية الدينية، أن معظمهم أبدى ميولا دينيا، فالرئيس واشنطن قدم طروحات دينية خلال الثورة الأمريكية قبل أنه يصبح رئيسا وطالب بالدولة تظللها الكنيسة، ودعى الرئيس ويلسون- فى عيد الشكر عام ١٩١٧- كل الأمريكيين فى منازلهم وفى أماكن العبادة المختلفة إلى الصلاة وتقديم الشكر للرب الحاكم للأمم وقبل وفاته، وصف فرانكلين د. روزفلت، الأمريكيين بأنهم عالقون بالعهد القديم ويؤمنون بالوصايا العشرة باعتبارها القانون الأساسى للرب، واعتبر الرئيس داويت ايزنهاور، أن الرب هو الذى وهب الصيغة الأمريكية للحكومة، وأن الإيمان الدينى هو الاعتبار الأول والأساسى لأن يكون المرء أمريكيا، وكان الرئيس كارتر يحضر خدمات الكنيسة، ويصلى فى الأماكن العامة، ويمتنع عن تقديم الخمور فى البيت الأبيض فى مناسبات معينة.

وفى الحق أن الفصل بين الدولة والكنيسة فى التجربة الأمريكية- كما ورد فى التعديل الأول للدستور- كان جهدا لحماية الدين من الدولة، وليس حماية الدولة من الدين، فالتعديل الأول للدستور قصد به السماح بأقصى حرية لـ (المتدين) لقد كان الدين هو أول موضوع لتعديل الدستور (التعديل الأول)لإبعاد الدولة عن المجال الدينى، ويبدأ نص التعديل بـ (المؤسسة) (الكونجرس) لينفى تدخلها فى الدين بإنشاء مؤسسة دينية أو بمنع ممارسته بحرية.

ولذلك كان على الرؤساء الأمريكيين أن يتحركوا فى الممارسة بين شعب (متدين) ودستور (علمانى) ومن ثم كان عليهم أن يظهروا أشكالا من (التدين) أو على الأقل احترام الدين فى الحياة العامة وأن يكونوا علمانيين

فى السياسة والحكم.

وهكذا فإن الحائط الفاصل بين الدولة والكنيسة (بتعبير جيفرسون) قد يعلو أو ينخفض، ويتوقف الأمر على مدى تدين الأمريكيين ومدى علمانية الدولة والسياسة، وتنعكس هذه الحقيقة بجلاء فى أحكام المحكمة العليا الأمريكية، بأعتبارها حامية الدستور، فقد حكمت المحكمة. العليا عامى ١٩٢٩ و١٩٤٠ بدستورية القوانين التى أجبرت أعضاء جماعة (الكويكرز) على أداء الخدمة العسكرية والاشتراك فى العمليات الحربية، وتلك التى ألزمت جماعة (يهوه) بتحية العلم الأمريكى والتى قضت بفصل كل من يرفض المشاركة فى التحية الجامعية من تلاميذ المدارس. ورفضت المحكمة دفع تلك الجماعات الدينية بأن هذه القوانين تتعارض مع النص الدستورى مع حرية الممارسة الدينية.

غير أن المحكمة العليا أعادت النظر فى أحكامها السابقة، فبعد حكم ١٩٢٩ بمنع الجنسية عمن لا يحملون السلاح دفاعا عن الولايات المتحدةحكمت المحكمة العليا عام ١٩٤٦ بأحقية الشخص فى التجنس بالجنسية الأمريكية برغم أنه لم يكن راغبا فى حمل السلاح دفاعا عن الولايات المتحدة، لأسباب دينية، وفى عام ١٩٤٣ تراجعت عن حكما بالالزلام بتحية العلم الأمريكى.

أى أن المحكمة العليا استجابت لطبيعة المتدينة للشعب الأمريكى. وبالمثل فعل الرؤساء الأمريكيون فى العقدين الأخريين الرئيس كارتر اعتبر نفسه أنه (مسيحى المولود ثانية) وركز فى حملته الانتخابية عام ١٩٧٦ على القيم الدينية والتقاليد المحافظة وإعادة بناء العائلة الأمريكية على هذا الأساس أما الرئيس ريجان، فقد أقحم الدين فى السياسة أكثر من أى رئيس أخر. حتى أنه فاز على كارتر المولود ثانية مسيحيا عام ١٩٨٠ فكان- ريجان- فى حملته الإنتخابية يطوف الولايات المتحدة الأمريكية حاملا الإنجيل معلنا أن فيه الحلول ليس فقط فى موضوعات إقامة الصلاة فى المدارس ومنع الإجهاض وتحريم الشذوذ الجنسى بل أنه منح إعفاءات ضريبية للمدارس الدينية.

التدين فى أمريكا مقارنة بدول أخرى
لنسبة ٪ إلى عدد السكان خلال ١٩٩٠ - ١٩٩٣ (*)

البلد	يعتبرون أنفسهم متدينين ٪	يؤدون الخدمات الدينية أسبوعيا ٪
الولايات المتحدة	٨٢	٤٤
المكسيك	٧٥	٤٢
كندا	٧٠	٢٨
اسبانيا	٦٤	٣٠
بريطانيا	٥٥	١٤
المانيا	٥٤	١٨
فرنسا	٤٨	١٠
السويد	٢٨	٤

(*) المصدر:
world values studies croup, in the National Time, Nov, 1995

الأديان فى أمريكا (*)

الأديان	النسبة إلى عدد السكان %
البروتستانتية	٦٠٪
الكاثوليكية	١٧٪
الأرثوذكسية الشرقية	١٪
المسيحية	٨٨٪
اليهودية	٢٪
الإسلام	١٪
ملحدون	٢٪
لا دين	٣٪
أديان أخرى	٤٪

(*) المصدر:
Barna Research Group, Princeton Research Canter,

الدين الأمريكى (*)

الكنائس	عدد الأتباع
الكنائس المعمدانية (Baptist)	٣٩,٥٢٣٨١٥
الكنائس المنهجية (Methodist)	١٣,٤٨٣٤٨١
الكنائس الخمسينية (Pentecostal)	١٠,١٤٣٢٨٣
الكنائس اللوثرية (Lutherian)	٨,٣٢١١١١
المورمون (Latter - day saian)	٤,٨٨٩٢٧٩
الكنائس المشيخة (Presbyterian)	٤,١٧٤٢٢٠
الكنائس المسيحية الشرقية (East Orthodox)	٣,٣٥٣٨٢١
الكنائس الأسقفية((Episcopal	٢,٥٣٦٥٥٠
الكنائس الاصلاحية (Reformist	١,٧٠١٤٩١
الكنائس الكاثوليكية (الروم الارثوذكس)	٦٠,٢٠٨٤٥٤
الكنائس السبتية (Adventist)	٩٧٢٢٢١
شهود يهود (Jehovahs Witnesses)	٩٦٦٢٤٢
المنظمات اليهودية	٢,٠٠٠٠٠٠
يهود محافظون	١,٣٠٠٠٠٠
يهود اصلاحيون	١,٠٠٠٠٠٠
يهود ارثوذكس	

(*) المصدر:
1997 Yearbook Of American & Canadian Churches

المجموعات الكنسية البروتستانتية (*)

المعمدانية الجنوبية	٨٪
الكنيسة المنهجية المتحدة	٧٪
معمدانيون آخرون	١٠٪
بروتستانت آخرون	١٠٪
منهجيون	٣٪
الكنيسة المتحدة للمسيح	٣٪
الكنائس المعمدانية الأمريكية	٣٪
الأسقفيون	٢٪
اللوثريون	٢٪
الكنيسة المشيخية للولايات المتحدة	٢٪
الكنيسة اللوثرية الأمريكية	١٪
الكنيسة المشيخية المتحدة	١٪
المورمونية	١٪
الكنيسة اللوثرية لأمريكا	١٪
اللوثريون المعمدانيون لميسورى	١٪
مشيخون آخرون	١٪
لوثريون آخرون	١٪
كنائس أخرى	٢٪
	٦٠٪

(*) المصدر: Princeton Research center, Galloup . Different Surveys

(٣) أمركة المسيحية

بالرغم من تأثر الأمريكيين البالغ بمبدأ (المنفعة) عن هوبز، و (الانتخاب الطبيعى) عند دارون، و(موت الإله) عند نتشيه، ويليام جيمس، فإنهم ظلوا من أكثر الأمم تعلقا بالدين.

وكما أوردت شهرية ناشيونال تايمز (نوفمبر ١٩٩٥) فإن ٩٥٪ من الأمريكين يعتقدون بوجود الله. وأن بين كل ٥ أفراد هناك ٤ أفراد يعتقدون فى المعجزات والحياء بعد الموت وعذرية مريم، كما أن ٨٢٪ من الأمريكيين يعتبرون أنفسهم أشخاصا متدينين مقابل ٥٥٪ فى بريطانيا، و٥٤٪ فى ألمانيا، و٤٨٪ فى فرنسا، أما من يؤدون أسبوعيا الخدمات الدينية فى أمريكا، فنسبتهم ٤٤٪ مقابل ١٨٪ فى ألمانيا و١٤٪ فى بريطانيا و١٠٪ فى فرنسا.

هنا، يصدق قول جورج ستنتيانا بأن الإنسان الأمريكى هو إنسان مثالى يعمل للمادة صحيح، أن الولايات المتحدة إبنة كالفين. كما قال جيمس هوبورن، إلا أن كالفينية أمريكا أصبحت مادية.

لقد حمل المهاجرون الأوائل العقيدة الكالفينية، التى أتهضوا بسبب ممارستها فى إنجلترا، وقبل أن ينزل المستوطنون الأولون من سفينة (ماى فلاور) وقعوا وثيقة دستورية أولية، ترسى أسس السلوك الدينى والاجتماعى بينهم، ولكن عقيدة كالفن شهدت تحولات كبرى فى أمريكا.

لقد قال كالفين أن هؤلاء الذين يصيبهم الخلاص، يصيبهم من جراء إيمانهم وليس من جراء أعمالهم فنحن ذوو قدر مكتوب ولا قيمة لأعمالنا إلا

إذا شاء الله خلاصنا.

أما الكالفينية الأمريكية فتحول الأمر إلى أنه إذا كان الإيمان هو الذى ينقذنا دائما وأن تضحية المسيح هى التى ستحررنا، فإن أعمالنا ضرورية- أيضا- لخلاصنا، لأنها تشهد وحدها على رغبتنا فى عمل الخير وعلى جهودنا ونجاحنا وفشلنا وعلى تقدمنا البطىء على الدروب المؤدية إلى الله، وعلى أننا قادرون على تحسين أحوالنا إذا كنا نريد ذلك .

وبذلك ستصبح الكالفينية الأمريكية (دين العمل) ففى حين أن كالفين لم يكن يؤمن بزوال الخطايا، من خلال الاعتراف والتوبة، بل من خلال الحساب عنها برمتها، تبدو الكالفينية الأمريكية عملية متفائلة.

وستتوافق الكالفينية الأمريكية مع الفردية الأمريكية فلا وسيط بين الإنسان والله، ولا اكليروس أو كهنة تفسير النص المقدس، وفى كتابه (تنوع التجربة الدينية) والذى صدر عام ١٩٠٢ يؤكد فليسوف البراجماتية الأمريكية ويليام جيمس فردية و براجماتية التجربة الدينية فى أمريكا فالدين- ما يقول- سوف يعنى أحاسيس وأفعال وتجارب الأفراد لأقصى درجة يمكن أن يفهموا بها أنفسهم فى علاقتهم مع ما يعتقدون أنه (حقيقى).

وبتأثير الحرية والتنافسية فى المجتمع الأمريكى، ظهرت منذ وقت مبكر (سوق قومى للدين) وقبل وقت طويل لن تكون (سوقا رأسمالية) بالمعنى الاقتصادى، كما يقول البروفيسور جون بتلر من جامعة ييل، والآن، مع غياب كنيسة رسمية للأمريكا تعددت المذاهب والكنائس مقابل التوحد الجامد فى الكنيسة الكاثوليكية.

تعددت المذاهب بين معمدانيين بيض وسود، ومورمون ومشيخين ومنهجين وأسقفيين، وكويكرز، وبتيين، وشهود يهوه، وعلميين مسيحيين، وتتكاثر الجماعات الدينية لتتجاوز ٣٥٠٠ جماعة من الأميش إلى الديفيديين (نسبة إلى ديفيد قورش) ولكن كل تلك المذاهب والكنائس والجماعات، تركز

على (فردوس الدنيا) وليس على العالم الآخر، كما قال ماكس لرنر.

وفى الوقت نفسه، ومنذ أن لاحظ توكفيل ذلك عام ١٨٣٥، تعتبر الكنيسة قوة محركة نحو (النظام) مقابل (الانقسام) الذى تحدثه الديمقراطية. فالمنضمون للكنيسة (بما فيها الكنس اليهودية) كانوا ١٧٪ من البالغين الأمريكيين لدى الاستقلال عن بريطانيا وأصبح ٣٧٪ فى فترة الحرب الأهلية (١٨٦١- ١٨٦٥)، وازدادوا إلى ٥٠٪ فى العقد الأول من القرن العشرين، وصولا إلى ٧٠٪ فى التسعينيات.

وكما يقول البروفيسور جون ويلسون أستاذ الأديان فى جامعة برنستون، فإن (الدين الأمريكى) مثل نوعا من التضامن الاجتماعى فى مجتمع (فردى) تزايد اندماجه الاقتصادى خلال الحرب الأهلية، وزاد اندماجه الثقافى بعد الحرب العالمية الثانية، ففى حين أن الجنوب دخل التيار السياسى الأساسى (العام)، ضاقت الفوارق الاقليمية بين الأمريكيين فى نظام الحياة وطرق التصويت الإنتخابى والتفكير وحتى طريقة الكلام، من خلال القنوات التلفزيونية القومية الثلاث، وأعمدة الكتاب التى تنشر فى الصحف على المستوى القومى، إلا أن الكنائس ظلت حتى بعد صراعات الحقوق المدنية فى الخمسينيات والستينيات مؤسسات للتضامن الاجتماعى، حيث لم يتجاوز عدد السود المنضمين إلى كنائس يسيطر عليها البيض أكثر من مليونين، إذ ظل الأمر أن يكون المرء مسيحيا دون تجاوز العرق والطبقة، بل أن الأفضلية كانت لجهة أن الطريق الطبيعى لنمو أية كنيسة هو نموها بين أهلها وعرقها.

فالكنيسة التى تلبى الحاجات الروحية والمجتمعية لجماعة بشرية متشابهة، تنمو بشكل أكبر، وعندما حاول المجلس الوطنى للكنائس أن يتجاوز الطبقة والعرق، واجهوا صعوبات كثيرة.

إذن عبرت الكنيسة- فى حال أمريكا- عن التعددية والتضامن وكانت مجالا للأقليات وللمجموعات الدينية للتعبير والاحتجاج.

وفى هذا الاطار جـاء ظهـور الكنائس المرئيـة (المحطات والقنوات التلفزيونية الدينية) للتعبير عن الاصولية الانجيلية فى مجتمع مادى حديث.

يقول ناثان أو هاتش فى كتابه (ديمقراطية المسيحية الأمريكية- ١٩٨٩) أن المسيحية الأمريكية هى الضلع الثالث لمثلث ضلعيه الآخرين: (الديمقراطية وفلسفة.. دعه يعمل دعه يعمر).

ويقول هارولد بلوم فى كتابه (الدين الأمريكى- ١٩٩٢) إن المسيحية الأمريكية تجربة براجماتيتة أمريكية وإن (يسوع الأمريكى) أقرب لما هو أمريكى مما هو مسيحى، وذلك ما تكشف عنه تجارب كنائس المورمون، والمعمدانية الجنوبية والعلم المسيحى والسبتيين والخمسينية وشهود يهوه.

المورمـــون

أعطى المورمون معانى جديدة للالوهية والخلق والانسان والقيامة والجنة لصالح الحياة المدية والارادة الانسانية، ولذلك اعتبرت (المورمونية) مسيحية مستحدثة أو مبتدعة ومسيحية أمريكية أيضا.

والمورمون، إسم ملك يهودى عاش فى أمريكا- كما يدعى اتباعه- نحو ٦٠٠ ق.م يوضح كتاب المورمون مصير ذلك الشعب، الذى وصل إلى أمريكا فى ذلك التاريخ، وادعى مؤسس المورمونية جوزيف سميث (١٨٠٥-١٨٤٤) أنه لجأ ذات يوم وهو فى الخامسة عشرة من عمره إلى الرب، وسأله أن يطلعه على الحقيقة فبعث له بنور سماوى، تلاه ظهور ملاك كشف له عن كتاب الحق (كتاب مورمون) المكتوب على لوحات ذهبية بلغة مصرية قديمة، مدفونة فى تل كومورا وعلى الرغم من أن المورمـون بدأوا التنظيم فى الشرق الأمريكى (فاييت نيويورك) عام ١٩٣٠ لأنهم مثل الرواد المستوطنين الأمريكيين الأوائل (الفرونتييرز) تحركوا صوب الغرب، فوجدوا لفترة فى اوهايو وميسورى والينوى، حتى أسسوا كنيسة (قديسى اليوم الأخر) فى الغرب الأقصى، فبعد أن منعوا فى اوهايو من بناء معبدهم، هربوا عام

١٨٣٩ إلى نوفوا- الينوى، وهناك أقاموا معبدهم وأسسوا حكومة وجهزوا أنفسهم لمواجهة هجوم (الاغيار).

والاغيار بمفردات مورمون كل من هم ليسوا من المجتمع المورمونى ومن يرفضون المورمونية فى تعاليم وسلطة مؤسس الموورمونية جوزيف سميث، أى من يرفضون مبادئ المورمونية مثل الاعتدال والملكية المشاعية، وتعدد الزوجات واعتقادهم أنهم شعب الله المختار، وفى عام ١٨٤٤ قبض على جوزيف سميث ووضع فى السجن ثم هجم رجال مسلحون على السجن واغتالوه وأخاه حيرم.

وتحت القيادة القوية لخلفته برجهام يونج (١٨٠١-١٨٧٨) تحرك المورمون من الولايات التى لا ترحب بهم إلى حيث لا توجد ولايات، بل ويوجد الأخون والأخوات من المورمون.

وقد اعتبر يونج ذلك الهروب به (خروج) وقال عام ١٨٤٥، أنه خرج للأمة (المورمون). إلى إسرائيل الحقيقية من الولايات المتحدة إلى منظمة بعيدة فى الغرب لا تقوى عليهم فيها البغضاء والاضطهاد والتعصب وليؤسسوا عهدا جديدا فى تاريخ الكنيسة وتاريخ الأمة، وفى عام ١٨٤٧ بدأ الطريق الطويل والمؤلم من نوفو- ألينوى، إلى أوماها- نبراسكا، حتى وصلوا إلى حوض بحيرة (سولت ليك) واعتبر يونج تلك الأرضى القاحلة (أرض العسل) التى وردت فى كتاب المورمون و (أورشاليم الجديدة)

وفى الحق أن المورمون لم يأتوا إلى ولاية يوتا من الشرق الأمريكى فقط، بل أتوا أيضا من إنجلترا واسكتلندا وويلز وألمانيا ومن الدول الاسكندنافية.. فلماذا كانت هذه الجاذبية للمورمون فى الغرب.

لقد نادا المرمون بالعودة إلى نقاء كنيسة العهد الجديد واعتبروا- بعد الاضافات التى أدخلها سميث على الكتاب المقدس- أن أمريكا هى الأرض الموعودة وأن أورشاليم الجديدة ستكون فى أمريكا (يوتا) وليس فى فلسطين

ومثلت المرومونية عقيدة جدية بسيطة، حيث أصبح التعميد بعد الموت، وبات الخلاص يتحقق من خلال المراسم المرمونية والأعمال الحسنة بالاضافة الى السمو الأبدى للإنسان بعد الموت. كما أن المورمونية باجباتها المحددة وسلطتها القوية المركزية أوجدت نوعا من التضامن داخل الجماعة المورمونية التى يمكنها أن تدافع وتحمى، وتطعم وتسكن، وتضع حاجزا بين المورمون القديسين وعالم الاغيار غير الربانى، بين مملكة إسرائيل الجديدة وعالم الأشرار.

وقد سمح المرمون بتعدد الزوجات وكان سميث يمارس هذا التعدد مع المورمونيات، وإن توقفوا عن ذلك رسميا عام ١٨٨٩، كمقابل لانضمام (يوتا) للاتحاد الفيدرالى.

يقول هارولد بلوم فى كتابه (الدين الأمريكى) ١٩٩٢ إن جوزيف سميث كصاحب رؤية، وبراجماتى، كان لديه منذ البداية الاهتمام الأمريكى بالجنة الأرضية، وإن يونج علم المورمون أن أساطير المملكة السماوية يجب أن تتحقق هنا (فى أمريكا) والآن.

وتوافقت المورمونية مع تقديس للفردية، بل تجاوزت ذلك لدرجة تأليه الإنسان وأنسنة الإله فالإله عند المومرمون بدأ كإنسان وخاض صراعا فى الزمان والمكان حتى رفع إلى الجنة. كما أن الإله عند-المورمون- خلق الناس كما ننسل نحن الأولاد، بل إن يسوع المتسجد جاء من أب وأم. وإن العذراء كانت لمدة من الزمن زوجة للإله.

ويفسر سماح المورمون بتعدد الزوجات باعتقادهم بأن (الزواج سماوى) من أجل إقامة مملكة السماء على الأرض فإنسان- الإله على الأرض ينجب قديسين، ثم يتحول القديسون إلى آلهه، هكذا تجمع المورمونية بين الديانة المصرية القديمة (الخلود) واليهودية (مورمون نفسه يهودى) والمسيحية فى توليفة أمريكية تتوافق مع المابية- المثالية الأمريكية. وبالرغم من أن المورنية-

مثل اليهودية- هى ديانة تحولت إلى شعب فإن المورمون بعد قرن ونصف قرن سيطر ليس فقط على كل ولاية يوتا، ولكن أيضا على معظم مناطق الغرب الأمريكى على جوانب الصحراء.

المعمدانية الجنوبية..

لأن كانت المعمدانية هى القوام الرئيسى للبروتستانتية الأمريكية، فإن المعمدانية الجنوبية تمثل الفردية البراجماتية على الطريقة الأمريكية.

فالمعمدانيون الأوائل الذين قدموا إلى نيو انجلند، ثم انتشروا فى فيرجينيا، بدءا من عام ١٧٥٤، تعرضوا للاعتقال والحبس حتى ضمن لهم ماديسون الحرية الدينية، ولذلك كانوا من المطالبين بالحرية الدينية وانضموا إلى أتباع جيفرسون فى اقتراح أن تبتعد الدولة عن الدين.

وما لبث أن انتشرت المعمدانية بين الزنوج ميريلاند ومنها إلى بنسلفانيا ونيويورك ونيوجيرسى، وخلال القرن التاسع عشر انتشرت المعمدانية فى الجنوب بعد انقسام الكنائس الأمريكية تجاه موضوع العبودية، التى منعت بالقانون عام ١٨٦٣- وفى عام ١٩٠٨ أصدر ادجريونج مولنز كتابه (بدهيات الدين الأمريكى) أسس المعمدانية الجنوبية، وهى:

* البدهية الدينية، أن كل الأرواح لها حقوق متساوية فى تحديد طريقها إلى الله.
* البدهية الاكليركية، أن كل المؤمنين لهم حقوق متساوية فى الكنيسة.
* البدهية الأخلاقية، أنه لكى يكون المرء حرا فيجب أن يكون مسئولا.
* البدهية الاجتماعية بأن تحب لجارك ما تحب لنفسك.

إن المعمدانية منذ انضمام يوحنا المعمدانى استهدفت من العماد ايقاظ الخاطئ من الخطيئة الأصلية، وهى خطيئة آدم، التى هبطت إلى جميع الرجال والنساء، فهؤلاء الذين عمدوا فى المسيح يمكن أن يحققوا خلاص نفسهم.

ولكن المعمدانية الأمريكية لن ترجع إلى مسألة الخطيئة الأصلية بل ستركز على مسئولية الفرد عن أعماله أمام الله وستركز المعمدانية الجنوبية على (القدرة الروحية للفرد) بالمعنى اللاهوتى (قدرة إلهية) والمعنى الأخلاقى (الحرية والمسئولية).

ويشرح هارشل هوبز فى كتابه الاعتقاد المعمدانى والرسالة ١٩٧١ القدرة الروحية بقوله: إننى أعرف القدرة الروحية فى حدود عملية.. عندما يقول فرد إن الكتاب المقدس يعنى كذا بالنسبة لى، فلا أستطيع أن أقول له إنه على خطأ ولكن يمكن أن أقول له إن ذلك الفهم ليس له معنى بالنسبة لى.

وبذلك، يمكن أن يأخذ قول أحد رجال الكنيسة معنى عاما، ولكن لكل فرد أن يقرر منهم كلمات رجل الكنيسة، ما هو مفيد له. إن القدرة الروحية تعنى أن أى شئ فهمه من الكتاب المقدس يجعلنى أكثر قربا من الله.

هنا تبدو المعمدانية الجنوبية (الأمريكية) براجماتية فى تعاملها مع النص المقدس، فردية فى تعاملها مع اللهو وشخصية فى نظراتها للخطيئة. إنما الفلسفة البراجماتية الأمريكية فى جانبها الروحى.

كنيسة العلم المسيحى (كريستيان ساينس)

تأسست كنيسة، العلم المسيحى (christian science) فى ٢٣ أغسطس ١٨٧٩، فى بواسطن إعتمادا على أفكار مارى بكر إدى (١٨٢١-١٩١٠).

وقد أصدرت مارى بكر إيدى عام ١٨٧٥ كتابا (العلم والصحة)، الذى تضمن مذهب (العلم المسيحى) وخاطبت به بولع الأمريكيين بالصحة والحياة، وتعلقهم بالمسيحية أيضا. وأكدت فيه إزدواجية الطبية الإنسانية بين الروح والمادة، وأن الإنسان كائن روحى وجنسوى، أيضا.

وتروى إيدى أنها سقطت على الجليد فى فبراير ١٨٦٦، فأصيبت بجرح لم تنفع فيه جراحة أو دواء، الا انها تعافت من تأثير الجرح بايمانها

المسيحي.. وتقول: كانت تلك البداية أو التفاحة (تفاحة نيوتن) الساقطة، التي قادتني لأن أكون نفسي وأن أجعل الآخرين كذلك.

وأصبحت السيدة تمارس أعمال الشفاء الإيمان والتأثير الروحي في المريض، وأسست كلية لنشر العلم المسيحي، كما أصدرت مجلة تحمل الاسم نفسه، ما زالت تصدر حتى الآن في شكل جريدة هي كريستيان مونيتور.

وقد توافق مذهب العلم المسيحي مع مبدأ تقديس الإنسان في الحياة الأمريكية. ففي كتابها، تعتبر ماري بكر إيدي، أن الإنسان هو صورة الله، بل نجدها تتحدث عن (الإنسان الأعلى- السوبر مان) الإنسان المثالي في صورة الله الذي لا يختفي، ويعكس دائما بحضوره القوة (السوبر مان) الإنسان المثالي في صورة الله، الذي لا يختفي ويعكس دائما بحضور القوة والسلام. ولذلك تنفي فكرة الثالوث المقدس بادعاء أنه اختراع وثني وان الثالوث المقدس هو الحياة، الحق، والمحبة.

كما تنكر عودة المسيح، بل تنكر ألوهيته أصلا، إن الموت لا يستطيع أن يدمر حياة أي منا لأن ليس هناك موت بل يقظة من رقاد طويل.

كنيسة سبتية اليوم السابع

تجد سبتية اليوم السابع جذرها في عقيدة الملية (المجئ الثاني للمسيح لبدأ العصر الألفي السعيد). وقد بدأت الميللية الأمريكية عام ١٨٣٥، عندما ادعى القص شارلز فيني أن الألفية السعيدة ستبدأ في أمريكا بعد ثلاث سنوات أي في عام ١٩٣٨, ثم تنبأ ويليم ميللر بأن المسيح سيعود ثانية بين ٢١ مارس ١٨٤٣ و١٢ مارس التالي، اعتمادا على سفر دانيال وقد اجتذبت نبوءة ميللر جمهورا من المعمدانية والمهجبين والمشيخيين والابراشيين، الا أن النبوءة تحولت إلى (خيبة كبرى). وبعد ذلك ظهر كريس سكوفليد (١٨٤٦- ١٩٢١)، الذي اعتبر أن التحقيب الرباني لتاريخ العالم يتضمن سبع حقب، وأن العالم- وقتئذ- يشهد الحقبة الأخيرة، التي سيعود فيها المسيح إلى

أورشاليم لتبدأ الألفية السعيدة. ثم ظهر المعمدانى اسحق هالمان، خلال الحرب العالمية الأولى، الذى تنبأ بعودة المسيح ليضع نهاية للحرب.

وكما يقول هارولدبلوم، فإن الميللة (الألفية) كانت حركة احتجاج ضد الحداثة فى المجتمع الأمريكى إلا أن عقية سبتية اليوم السابع، طبعتها ايلين هارمون وايت (١٨٢٧-١٩١٥) بطابع أمريكى.

تعتبر السيدة وايت أن العالم يعيش الآن فى الدينونة التى بدأت عام ١٨٤٤ (عام الخيبة الكبرى) وأن المسيح منذ ذلك التاريخ دخل قدس الأقداس لتطهير خطايانا وترى أن سفك دماء يسوع على الصليب لم يحقق الكفارة كاملة، ويجب دوام زمن الكفارة مادام يوجد وقت للإمتحان والتجربة. ويحرم السبتيون الكحل والتبغ والمخدرات والقهوة والشاى واللحوم فى معظمها، ويحفظون يومى السبت والأحد، ويعتقدون لدى عودته سيكمل الكفارة بالقضاء على كل الشياطين والكفار، وأن الخلاص يشمل ١٤٤ ألفا وهؤلاء من السبتيين وبالرغم من السمات اليهودية لعقدية سبتية اليوم السابع، فإنها توافقت مع الأمريكيين فى ربط الخلاص بالاعمال فى الدنيا، وفى تأكيدها للمعنى الدينى للصحة.

كنيسة الخمسينية

ومثل المورمونية والمعمدانية الجنوبية، تعتبر الخمسينية (Pentecostalism، واحدة من أصول الديانة الأمريكية، وتعود الخمسينية إلى عيد الخميسين أو العنصرة عند المسيحيين وهو عيد الحصاد عند اليهود ويحتفل به فى يوم الخميس التالى لعيد الفصح، وعندما أخذ المسيحيون يوم الخمسين عند اليهود كان ذلك لأن (الروح القدس) ظهر لحواريى المسيح كالسنة منقسمة من نار، واستقرت على كل واحدة منهم فامتلأوا جميعا من الروح القدس،وبدأوا يتكلمون بالسنة أخرى (أعمال الرسل ٢: ١- ١). وقد بدت الخمسينية فى أمريكا على يد شالز فوكس بارهام، فى توبيكا بولاية نبراسكا عام ١٩٠١، ثم

ما لبث أن اصطحب معه ويليام سيمور إلى لوس أنجلوس عام ١٩٠٦ (عام زلزال سان فرانسيسكو) حيث كان تأسيس الكنيسة الخمسينية عام ١٩١٤، التى كونت جمعيات الرب واستقطبت الزنوج.

ولا تعتقد الخمسينية فى عقيدة التثليث، بل تعتقد فى وحدانية الاله، وفى أن الروح القدس هى يسوع المسيح، الذى يمكن أن يملأ أرواح أتباعه منها وينعم عليهم بالنعم.

واعتبر القس الخمسينى وأين إلزى، أن بعض الممارسات مثل الشراب والقمار مقدس، أى من قبيل العلاج والتطهير بالخطيئة.

غير أن الخمسينية الأصولية على يد القس جيمى سواجرت، تعتبر صخرة ضد الالحاد والاجهاض ونظرية دارون والشيوعية واللبرالية والشذوذ الجنسى. باعتبارها خطايا.

إلى أن الخمسينية تتخطى التابوا، باعتقاد أن الخمسينى الحقيقى، الذى هو قبس من الروح القدس يمكن أن يحيى الموتا، إذا وصل إلى درجة ما من العرفان.

شهود يهوه

بيد أن عقيدة شهود يهوه ظهرت فى الولايات المتحدة باعتبارها الانشقاق الأكثر تطرفا فى حركة المللينية (سبتية اليوم السابع) أو بشكل ما الخمسينية المتطرفة.

وقد بدأت عقيدة شهود يهوه مع شارلز تاز رصل (١٨٥٢-١٩١٦) فى ولاية بنسلفانيا. ونشر رصل عام ١٨٨٦ كتابه (العوالم الثلاثة أو مخطط الفداء) وقال فى، إن نهاية العالم ستكون فى عام ١٩١٤، ففيه تنتهى أزمنة الأمم ويرتفع غضب الله عن اليهود، ويصبح لزاما عليهم أن يعودوا إلى فلسطين لانشاء دولة يهودية، إذ لا سبيل إلى قيام مملكة الله دون عودة شعب يهوه إلى وطنه.

ويعكس ما تنبأ به رصل، فإن العالم لم ينتهى عام ١٩١٤، بل إن الحرب العالمية الأولى بدأت فى ذلك العام. ولما توفى عام ١٩١٦، تولى الحركة تابعه جوزيف رذرفورد فى الفترة ١٩١٧-١٩٣٨، وأطلق عليها اسم (شهود يهوه) واشتق الاسم من العبارة (أن شهودى يقول يهوه) الواردة فى سفر أشعيا. ثم تلاه فى قيادة الحركة ناثان هرمر كنور عام ,١٩٤٢

ويعتبر شهود يهوه أن يهوه (الاله اليهودى) أوقد مشعل الحقيقة على يد رصل، الذى ائتمن هو جماعته لاعلى رسالة البر بيهوه لنشرها بين البشر الأشرار. وينكر الشهود لاهوت المسيح وعقيدة التثليث وقيامة المسيح بالجسد، بل يعتقدون أن يسوع هو إبن يهوه، وأن رسالته ليست تطهير البشر وانما الاحتفاء بقوة يهوه، وإن رسالته ليست تطهير لبشر وإنما الاحتفاء بقوة يهوه وتاكيد سلطته وأن موت المسيح هو ابدى نهائى.

ويعتقد الشهود أن نهاية الدينونة بدأت عام ١٩١٤، بعد استكمال الوجود الأنسانى ٦ آلاف عام، وإن العالم- الآن- فى انتظار مجئ المسيح الذى ليس هو المسيح بن مريم، وإنما مسيحهم المنتظر ليقيم حكمه فى أورشليم وينبنى ذلك الاعتقاد على ما ورد فى سفر دانيال حول الزمن، الذى كتب فيه على الشعب وأورشليم ختم الخطيئة والمعصية، وخروج الأمر من لدن يهوه إلى المسيح المنتظر لاعادة بناء أورشليم ثم خلاص اتباع يهوه.

العقائد المسيحيه الأمريكية

	الأصل	النص المقدس	التعاليم الدينية
المعمدانية	حركة إصلاح جذرية، ضد تعميد الأطفال، ومع فصل الكنيسة عن الدولة، انشقاق قادة جون سميث فى انجلترا عام ١٦٠٩.	الكتاب المقدس بعهدية، خصوصا فى الجنوب الأمريكى فى الالتزام الحرفى.	تعارض شرب الكحول والتدخين، وتتوجه نحو الكمال الأخلاقى.
تلوسة المسيح	بين الأنجيليين المشيخيين منذ ١٨٣٢.	نتكلم عندما تتكلم النصوص ونصمت عندما تصمت.	الاهتمام بالنواحى الاجتماعية والكمال الأخلاقى.
الأسقفية	انفصال الملك هنرى الثامن عن كنيسة روما عام ١٥٣٤. تأسست فى أمريكا عام ١٧٨٩.	العهد القديم ٣٩ سفرا وليس ٤٦ سفرا كما يعتقد الروم الكاثوليك.	التسامح، العمل، الاجتماعى.
شهود يهوه	أسسها عام ١٨٧٠ تشارلز تاز رصل.	الكتاب المقدس بعهديه.	نظام اخلاقى متشدد، قيم العائلة، تجنب التدخين وتحية العلم ونقل الدم.

	الأصل	النص المقدس	التعاليم الدينية
المورمونية	أسسها جوزيف سميث فى العشرينيات من القرن التاسع عشر.	الكتاب المقدس بعهدية وكتاب المورمون.	التشدد الأخلاقى، تعدد الزوجات قبل إلغاته، الذاتية.
اللوثرية	بدأها مارتن لوثر فى ألمانيا عام ١٥١٧، كانشقاق على الكاثوليكية.	التفسير الفردى - اللوثرى للنصوص.	مذهب مملكتى الأرض والسماء، الفردية الدينية.
المنهجية	بدأت فى كنيسة انجلترا بحركة جون وزلى عام ١٧٣٨. وتأسست فى امريكا عام ١٧٨٤.	تفسير النصوص بالعقل والتجربة.	الاهتمام بالأخلاقيات والعمل الاجتماعى.
الأرثوذكسية	انفصال عن كنيسة روما عام ١٠٥٤.	تعاليم المجمعات المسكونية حتى المجمع السابع.	قيامة المسيح.
الخمسينية	حركة فى الغرب الأمريكى أوائل القرن العشرين.	تعاليم الروح المقدس.	الفردية الدينية، التسامح.

	الأصل	النص المقدس	التعاليم الدينية
الشيخية	كالفينية بدأت فى القرن الـ ١٦.	النص المقدس.	الفردية الدينية، التسامح.
الروم الكاثوليك	المسيح، ثم بطرس الرسول.	تعاليم باب الفاتيكان.	المحافظة، عدم السماح بالطلاق والزواج ثانية.
الكنيسة المتحدة للمسيح	تمثل اللوثرية والكالفينية.	النص المقدس.	التسامح – العمل الأجتماعى.

(٣) تهويد المسيحية

عندما دخل المهاجرون البروتستانت الأوائل، أولى المستعمرات نيو انجلند- اعتبروا أمريكا هى (أورشليم الجديدة) أو (كنعان الجيدة)، وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء حين فروا من ظلم فرعون (الملك الأنجليزى جيمس الأول) وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) بحثا عن أرضا الميعاد الجديدة.

وبالمشابهة، أصبحت مطاردة المهاجرين الأوربيين البروتستانت للهنود الحمر فى العالم الجديد (الأمريكى)، مثل مطاردة العبرانيين القدماء للكنعانيين فى فلسطين. وكان المهاجرون البروتستانت البيوريتانيون (التطهريون) يلهجون باللغة العبرية فى صلواتهم، ويطلقون على أبنائهم أسماء يهودية من قصص التوراة ميل سارة وألعازار وابراهام وداود.. كما أطلقوا أسماء عبرية على مدن كثيرة فى المستوطنات الأولى، مثل، سالم (شالوم) وهبروقن وكنعان...

وهذه الصيغة العبرانية- اليهودية، التى اصتبغت بها البروتستانتية البيوريتانية، مع قدوم المهاجرين الأوائل إلى أمريكا ليردها الباحث اليهودى هنرى فاينجولد إلى يهود المارنو، مع طرد المسلمين واليهود من شبه جزيرة اليبيريا خلال فترة الاسترضاد المسيحى.

ويروى فاينجولد فى كتابه (صهيون فى أمريكا) الذى صدر فى نيويورك

عام ١٩٧٤، أن كريستوفر كولمبس عندما فشل فى اقناع ملك البرتغال يوحنا الثانى، بامكان تنفيذ مشروعه الخاص بالابحار غربيا للوصول إلى الشرق، اتجه إلى ديجودى ديجا اسقف سلامنكا، الذى كان من يهود المارنو، فاقنع الأخير يهود المارانو الذين كانوا يشغلون مراتب عليا فى الادارة والتجار فى أسبانيا، وتبنوا مشروع كولمبس ودعموه بالخرائط والتمويل اللازم. حتى أن السلطات الأسبانية شكة فى أن يكون كولمبس يهوديا، ولذلك ما يعلق عليه فاينجولد، بقوله أنه إذا كان بوسع المرء أن يتشكك فى نسب يهودى لكولمبس، فلا شكك فى الدور الذى لعبه يهود المارانو فى جعل بدأ رحلاته أمرا ممكنا وهو دور لا سبيل إلى المجادلة فيه .

ويدلنا أرثر هرتزبرج فى كتابه (اليهود فى أمريكا) الصادر فى نيويورك ١٩٩٠، على أول تيار للهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة.. ففى عام ١٥٢٨ أحرق فى المكسيك يهودى تحول إلى المسيحية وبعده أقام الأسبان محاكم تفتيش لليهود المتسترين وراء اعتناق المسيحية، والفارين من أسبانيا إلى المكسيك، بعد انكشاف نشاطهم فى (تهويد المسيحية) وفى تلك الظروف كانت هجرة يهود المارنو إلى جنوب غرب الولايات المتحدة عبر المكسيك.

أما التيار الثانى للهجرة اليهودية فقد بدأ مع وصول أول مجموعة يهودية أوربية إلى نيوامستردام (نيويورك الحالية) عام ١٦٥٤، وكانوا يؤدون صلواتهم فى البيوت (بسبب الاضهاد الدينى)، حتى أسس أول كنيسة لهم فى نيويورك (وأمريكا كلها) عام ١٧٢٩. وقد كان ألئك اليهود الأروبيون، من بين مؤسسى الولايات الثلاث عشرة الأولى التى تألف منها الاتحاد.

بيد أن هجرة المارانو وغيرهم من يهود أوربا. ضمن المستوطنين الأوائل فى أمريكا لا تقدم تفسيرا كافيا لتهويد المسيحية فى أمريكا. فعدد اليهود لن يزيد عن ١٥٠٠ يهودى من إجمالى عدد السكان الذى ناهز أربعة ملاين فى تعداد ١٧٩٠.

وكما يقول هرتزبرج، فإن معظم ذلك العدد الضئيل من اليهود الأوائل فى الولايات المتحدة كان من الباعة والسماسرة وأصحاب الحرف الصغيرة، أى من اناس لم يكن لهم كبير وزن.

إن تهويد المسيحية الأمريكية، يرجع فى الأصل إلى حركة الاصلاح الدينى فى أوربا فى القرن السادس عشر. وتوصف هذه الحركة بأنها بعث (عبرى) أو (يهودى) تولدت عن وجهة نظر جديدة عن الماضى والحاضر اليهودى، وعن مستقبله بشكل خاص. فلم تكن أوربا قبل عهد الاصلاح الدينى، والحاضر تعتبر اليهود الشعب المختار، إلا للعنة بل تعتبرهم مارقين، قتلة المسيح.

وتشير المؤرخة اليهودية باربراتوخمان، فى كتابها (الكتاب المقدس والسيف)، الصادر عن جماعة نيويورك ١٩٦٥، إلى العداء الشائع لليهود فى أوربا الذى بلغ أشده إبان الحملات الصليبية. ويشير مؤرخون آخرون إلى أن المحاربين الصليبيين المسيحيين هم أول من بدأ المذابح اليهودية وهم فى طريقهم إلى فلسطين.

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى، وأن الله طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقابا على صلب المسيح، وكانت الكنيسة تعتقد أيضا، أن النبوءات الدينية التى تتحدث عن العودة تشير إلى العودة إلى بابل، وأن هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قروش. ولذلك الاعتقاد كان فيلسوفه القديس أوغسطين، الذى اعتبر أن القدس مدينة العهد الجديد وأن فلسطين هى إرث المسيح للمسيحيين. غير أن حركة الاصلاح البروتستانتى تنكرت لهذا الاعتقاد الكاثوليكى، وروجت لفكرة أن اليهود أمة مختارة مفضلة، وأصبح العهد القديم المرجع للاعتقاد البروتستانتى، ومصدر المسيحية النقية الثابت، وجزأ من طقوس العبادات والصلوات فى الكنائس، وكتاب للتاريخ عن الأرضى

المقدسة والأنبياء، والنبوءات بنهاية الزمان والعصر الألفى السعيد مع المجئ الثانى للمسيح.

ويعتبر مارتين لوثر، كمؤسس وزعيم لحركة الاصلاح البروتستانتى، مسؤولا إلى حد بعيد عن ظهور مناخ القرن السادس عشر الروحى والدينى، الذى أوجد أرضا خصبة لانتشار المسيحية اليهودية.

لقد كتب لوثر عام ١٥٢٣، كتابه (المسيح ولد يهوديا) الذى اعيد طبعه سبع مرات فى العام نفسه، وقد شرح فى هذا الكتاب المواقف المؤيدة لليهودية، وأدان اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لليهود محتجا بأن المسيحيين واليهود ينحدرون من أصل واحد. وقال فى : (إن الروح القدس شاءت أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الله ونحن الضيوف والغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التى تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادهم، تماما كالمرأة الكنعانية.

وكان لوثر، يؤمن أن نبوءة التوراة حول إنقاذ كل إسرائيل كامة ستحقق، وكان يلوم البابوية لتحريفها المسيحية وصدها بذلك اليهود عن اعتناقها.

لقد كان هدف لوثر النهائى هو تحويل اليهود إلى البروتستانتية، ولكنهم بدلا من أن يرتدوا إلى المسيحية كانوا يحكمون الانصار لتهديد المسيحية. ولذلك نجده يعبر عن كرهه لليهود، فى كتابه ما يتعلق باليهود وأكاذيبهم الذى ألفه عام ١٥٤٤، وطالب فيه بطردهم من إنجلترا بقوله: من الذى يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم فى يهودا.. لا أحد. إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم، لا لشئ الا لنتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا.

وبرغم ذلك فإن حركة الاصلاح الدينى التى أطلقها لوثر، مثلت ثورة على الاعتقاد الكاثوليكى، وبشرت بعهد جديد من التسامح المسيحى- اليهودى.

وبعد انفصال الملك هنرى الثامن عن روما، اقتحمت حركة الاصلاح الدينى بريطانيا وتمركزت فيها بالأمر الملكى، الذى أصدره عام ١٥٣٨ إلى كل كنائس انجلترا، وليوجد بذلك البيئة الملائمة لانتشار المسيحية اليهودية. وتقول باربرا توخمان فى كتابها، إن ملك إنجلترا حينما أمر عام ١٥٣٨، بترجمة التوراة للغة الإنجليزية ونشرها وأتاحتها للقراءة من قبل العامة، كان بذلك يضع اليهودية تاريخا وعادات وقوانين، لتكون جزءا من الثقافة الإنجليزية، ولتصبح ذات تأثير هائل فى هذه الثقافة على مدى هذه القرون الثلاثة التالية. وسار يطلق على التوراة المترجمة التوراة الوطنية لإنجلترا، والتى أصبح لها من التأثير على روح الحياة الإنجليزية أكثر من أى كتاب آخر، وذلك ما جعل قصص التاريخ اليهودية المادة الرئيسية فى الثقافة الإنجليزية والمعرفة التاريخية للإنجليز.

وتستنتج توخمان فى كتابها (الكتاب المقدس والسيف) أن حكايات العهد القديم أصبحت زادا يوما للعقل البروتستانتى، حتى بات المؤمنون من تكرار قراءتهم لها يحفظونها عن ظهر قلب، وحتى أن المسيح (يسوع الناصرى) لم يعد المسيح إبن مريم بل مجرد نبى آخر من عديد الأنبياء. وتصف المؤرخة اليهودية ذلك بأنه (غزو عبرانى) كما تسميه مسمى لوثة العهد القديم.

غير أن الغزو العبرانى للمسيحية،وصل ذروته فى عهد الثورة البيوريتانية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، فالبيوريتانية مثلت أشد أشكال البروتستانتية تطرفا باعتبارها كالفينية، ولذلك غالت فى اجلال الكتاب المقدس مع اعطاء الاولوية للعهد القديم سيرا على تعاليم جون كالفين. وقد وجدت البيوريتانيون فى العهد القديم (مثالا ساويا للحكومة الوطنية ودلالة واضحة للقوانين التى يجب على البشر اتباعها، وإذا عصوها فالعقوبة ماثلة للعيان وآنية. ولذلك طالبت مجموعة

(اللفلرز) البيوريتانية المتطرفة، الحكومة بأن تعلن التوراة دستورا للقانون

الإنجليزى. واستعاض البيوريتانيون بالعادات اليهودية عن المبادئ المسيحية، بل إن بعضهم كان يعتبر العبرية اللغة الوحيدة للصلاة وتلاوة الكتاب المقدس. وجرى تعميد الأطفال فى الكنائس باسماء عبرية بدلا من أسماء القديسين المسيحيين، كما تغير يوم الاحتفال الدينى بقيامة المسيح إلى يوم السبت اليهودى.

ذلك اللاهوت البرتستانتى، انتقل فى أوائل السابع عشر، مع المهاجرين الإنجليز الأوائل إلى العالم الجديد (أمريكا)، خاصة أن دافع الإنجليز كأمة بروتستانتية للاستعمار أمريكا، كان وقف تقدم الأمم الكاثوليكية أى البرتغاليين والأسبان والفرنسيين إلى العالم الجديد. ويذكر أدوين سكوت جوستاد فى كتابه (التاريخ الدينى لأمريكا) الصادر عام ١٩٩٠، أن القس ريتشرد هاكلايت قال للملكة اليزابيث الأولى أنه إذا كان من كنيسة حقيقية ومخلصة ينبغى أن تكون فى شمال أمريكا، فهى البروتستانتية الإنجليزية وليس الكنيسة الكاثوليكية الأسبانية، وإن الرب ينادى إنجلترا لهذه المهمة كما نادى يوحنا المقدس.

ولم يكن الحظ محالفا للملكة اليزابيث لتشاهد المستعمرات الإنجليزية الأولى فى العالم الجديد، بل كانت من نصيب الملك جيمس الأول (الأول فى سلالة ستيوارت)، ففى عام ١٦٠٧، أسس شركة لندن أول مستعمرة على ساحة فيرجينيا، وحملت أول مستوطنة بها اسم الملك وطلق عليها (جيمس تاوين)، وأقيمت بها أول ابراشية حاملة اسم القيس هاكلايت. وفى السبعينيات القرن السابع عشر، وصل عدد الابراشيات إلى ٣٠ ابراشية، وتضاعف العدد بنهاية القرن حتى أصبحت فيرجينيا معقل الإنجيلية.

وكان المهاجرون الأوائل من البروتستانت، الذين حملوا معهم التقاليد والقناعات التوراتية وتفسيرات العهد القديم الذى انتشرت فى انجلترا واوروبا فى القرن السادس عشر. وكانت بينهم البيوريتانيون الذى هاجروا من

انجلترا بعد الحرب الأهلية، التى نشبت فى انجلترا نتيجة تمرد كرومويل، والذى وقف إلى جانبهم البيورتيانيون، وانتهت بعودة النظام الملكى واضطهاد الملكيين للبيوريتانيين.

ووصل البيوريتانيون إلى فيرجينيا، واسسوا جامعة هارفارد عام ١٦٣٦، بتبرع من الممول جون هارفارد بقيمة ١٨٠٠ جنيه استرلينى وبمكتبته، ثم اسسوا جامعة نيوهامبشير فى القرن الثامن عشر. وخلال ذلك، فر أحد البيوريتانيون وهو روجز ويليامز ليؤسس مستعمرة رود ايلاند ,١٦٣٣

وقد حمل البيورتيانيون معهم إلى شمال أمريكا اللغة العبرية، وكان اول كتب ينشر فى العالم الجديد هو ترجمة سفر المزامير. كما أن جامعة هارفارد التى أنشاها البيريتانيون جعلت أحد شروط القبول فيها القدرة على ترجمة النص العبرى الأصلى للتوراة إلى اللاتينية.

واعتبر البيوريتانيين أنفسهم العبرانين الحقيقين. وكما يقول فاينجولد، فإن المستوطنين البيوريتانيين أصبحوا النموذج الأوحد للعهد القديم العبرى، وقد اسموا أنفسهم أبناء اسرائيل الى طريقهم إلى أرض الميعاد واحتفوا بيوم السبت كيوم راحة لهم. وخلال القرن الثامن عشر، اصبح الاعتقاد بالبعث اليهودى يشكل جانبا مهما من اللاهوت البروتستانتى الأمريكى، حيث احتلت معتقادات المسيح المنتظر والعصر الألفى السعيد مكانا بارزا.

وهكذا، يقول سيليج ألدر، أنه منذ فجر التاريخ الأمريكى كان هناك ميل مسيحى قوى للاعتقاد بأن مجئ المسيح المنتظر، لا حق لعودة الدولة اليهودية، وإن ذلك الاعتقاد كان يشكل جزءا من مصفوفة التاريخ الفكر الأمريكى، التى كانت تتضمن دائما خيطا من العصر الألفى السعيد فى الفكر الأمريكى المسيحى.

ويشير لويس جاسبر إلى أن ذلك النيار المحافظ فى البروتستانتية

الأمريكية استهوى البيوراتينية، وكان أتباع هذا المذهب الذى يؤمن بالتفسير الحرفى للنبوءات التوراتية وبالاحياء القومى للشعب اليهودى يشكلون نسبة كبيرة من البروتستانتيين الأمريكيين مع نهاية القرن التاسع عشر. غير أن الاعتقاد البروتستانتى بالاحياء القومى لليهود وقيام مملكة إسرائيل قبل المجئ الثانى للمسيح، تحول إلى حركة سياسية كمسيحية يهودية سبقت الحركة الصهيونية فى الدعوة إلى قيام وطن لليهود فى فلسطين. فالمؤتمر الصهيونى فى بازل عام ١٨٩٧، سبقه صدور كتاب (يسوع أت) للمول والمبشر الأمريكى وليام بلاك ستون عام ١٩٧٨، والذى دعى فيه لعودة اليهود إلى فلسطين فى إيطار الإيمان بالعصر الألفى السعيد بعد المجئ الثانى للمسيح، وكانت لدعوة بلاك ستون بالغ الأثر فى أعضاء من الكونجرس والرأسماليين الكبار مثل جون روكفلر وليام روكفلر والصحافة والثقافة وانتهاء بالرئيس الأمريكى هاريسون.

تلك الحركة السياسية المسيحية اليهودية، حولت المؤسسة والجمهورية فى أمريكا إلى ما يسميه الباحث المصرى شفيق مقار بمسمى (عباءة اسرائل) أو إلى مسيحية- صهيونية فاصبح الرأى العام الأمريكى مجندا بأغلبية ساحقة لإنشاء وطنى قومى لليهود فى فلسطين، أما فى صفوف أعضاء مجلس الكونجرس، فكانت المشاعر الصهيونية هى الغالبة. وتورد وجينا الشريف فى كتابها (الصهيونية غير اليهودية) شهادة أمام الكونجرس جاء فيها أن انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى واستردادهم (يهودا) من أيدى التركى البشع يماثل قيادة موسى لبنى اسرائيل واخراجهم من العبودية.. وأن حكومة الولايات المتحدة يجب أن تستخدم كل ما لديها من نفوذ فى العمل على انشاء الدولة اليهودية كى تشع منها على العالم تعاليم الدين اليهودى ومبادئه السامية.

وتستنتج مؤلفة (الصهيونية غير اليهودية)، أن الانتماء الصهيونى سرى

فى طريقة الحياة الأمريكية وتخلل نسيجها قبل عقود من ظهور ما بات يعرف باسم (اللوبى الصهيونى) .

ويفصح عن مدى ذلك التغلغل. ما اظهره الجمهور الامريكى العريض من تحمس بالغ للانتداب البريطانى على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم ادانته عالية الصوت لسياسة بريطانيا فى فترة ما بين الحرب تجاه فلسطين، كلما بدا أن تلك السياسة خرجت على خط بلفور بل أن الواقع على الصعيدين الحكومى والتشريعى أى الادارة والكونجرس، أن الانتماء الصهيونى بات مرادفا فى اذهان كثيرة لكون المرء أمريكيا، بل وأمريكيا كما ينبغى أن يكون الامريكى.

وقد نشطت الحركة المسيحية- الصهيونية فى انشاء منظمات ولجان مسيحية تستخدم اسم فلسطين، وتهدف إلى تعبئة الرأى العام وممارسة الضغط على الادارة والكونجرس لمصلحة الصهيونية السياسية، وشارك فى عضويتها بشكل أساسى، قيادات دينية بروتستانتية، بالاضافة إلى مسؤولين حكوميين وسياسيين ورجال أعمال وصحفيين وبالتنسيق مع المنظمات اليهودية الصهيونية.

وكانت من أوائل تلك المنظمات واللجان (منظمة فدرالية أمريكية الموالية لفلسطين) التى أسسها القيس شالز رصل عام ١٩٣٠، للدفاع عن الوطن القومى اليهودى .

وتبنت المنظمة مؤتمرا سمته (المؤتمر الميسيحى الأمريكى)، عقد فى مدينة نيويورك فى ١٥ ديسمبر ١٩٣٦، وحضره أكثر من ٢٠٠ شخصية من المسؤولين الحكوميين ومن رجال الدين. وأصدر المؤتمر اعلانا يطالب (المجتمعات المتحضرة بمساعدة اللاجئين اليهود الفارين من المانيا وأوربا الشرقية لدخول فلسطين ملاذهم الطبيعى، ولعل أبرز تلك المنظمات المسيحية

الصهيونية (اللجنة الفلسطينية الأمريكية) التى تأسست عام ١٩٣٢ لحشد المؤيدين للصهيونية من غير اليهود. وقد ترأس اللجنة عام ١٩٤٢، السيناتور روبرت وجنر ومعه زعيم الأقلية لشالز ماكمارى، وضمت فى عضويتها ٦٨ من أعضاء مجلسى الشيوخ عام ١٩٤٢ سميت (المجلس المسيحى لفلسطين) وكان معظم أعضاءها من القساوسة البروتستانت.

ثم اندمجت اللجنة الفلسطينية الأمريكية مع المجلس المسيحى عام ١٩٤٦، فى منظمة جديدة عرفت باسم لجنة فلسطين المسيحية الأمريكية).

أما الكنائس البروتستانتية الأصولية فقد شكلت منظماتها الخاصة بها منذ ١٩٤٢ مثل (الرابطة الوطنية للانجليين). وقد لعبت تلك المنظمات المسيحية الصهيونية، دورا فعالا فى تكتل الادارة والكونجرس والرأى العام لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين تحقيقا لنبوءات التوراتية. وبعد قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ انصبت جهود المسيحية الصهيونية على تأكيد شرعية اسرائل وحقها فى الضفة وغزة (أرض اسرائيل التوراتية)، بالاضافة الى تأكيد دعم أمريكا لليهود لأن الرب يبارك من يباركهم ويلعن من يلعنهم، حسبما ورد فى سفر التكوين، وستتكفل لتلك الجهود منظمات مسيحية صهيونية أخرى مثل شبان المسيح، والأغلبية الأخلاقية والائتلاف المسيحى فى ربط الدين والسياسة، عندما تنفذ إلى داخل الحزب الجمهورى وتسيطر به على الكونجرس. وهذا مقال نعود اليه فى مقام لاحق.

(٤) الأصولية المسيحية تتقدم

فى أثناء المؤتمر القومى للحزب الجمهورى عام ١٩٩٢ فى هيوستن- تكساس، ظهر المرشح الجمهورى للرأسة بطريرك بوكنان والواعظ التلفزيونى والمرشح الرئاسى السابق بطريرك روبر سون، ونائب الرئيس داك كويل، وسط ملصقات وصيحات عن الحرب الثقافية فى أمريكا. وافتتح بوكنان المؤتمر بصيحة تحذير من الحرب الدينية التى ستقسم أمريكا من الداخل، قائلا: إنها حرب ثقافية فى خطورة الحرب الباردة، لأنها تحدد أى أمريكا ستكون فى المستقبل، فهى حرب على روح أمريكا وكان المعنى أن الائتلاف المسيحى الأصولى، الذى أفسح له الحزب الجمهورى الطريق داخله منذ ١٩٧٦، يتقدم إلى المنافسة على الرئاسة والسيطرة على الكونجرس.

لقد قامت أمريكا للحضارة الغربية خبرة بين الكنيسة والدولة، منذ اقرار اللائحة الدستورية لولاية فيريجينا، عام ١٧٧٧ (قبل الثورة الفرنسية بعقدين) والتى لم تحدد كنيسة رسمية أو دينا رسميا للولايات. وكان التعديل الأول للدستور الأمريكى عام ١٨٠١، يستهدف- كما قال الرئيس توماس جيفرسون- انشاء حائط فاصل بين الكنيسة والدولة). بيد أن الفصل بين الدين والدولة فى التجربة الأمريكية، لم يتحول يوما إلى فصل بين الدين والمجتمع (الحياة). فأكثر من ٩٠٪ من الأمريكين يعتقدون فى الله. وجمعت (المسيحية الأمريكية) بين الخلاص الفردى والمادى والدينى أيضا. ويرغم أن الكونجرس يرفض حائط بين الكنيسة والدولة فان ذلك لم يحل دون استخدام

الحكومة للرموز والطقوس الدينية. فنقرأ على الدولار عبارة (فى الله نثق) وكانت تحية العلم خلال الحرب الباردة تتضمن عبارة (بأمر الله). والقوات المسلحة (قسس) برتب عسكرية تدفع أجورهم الحكومة وليس الكنيسة وبكل مجلس من مجلسى الكونجرس مكتب قس. كما تلعب الكنائس دورا مهما فى الجنازات الرسمية. وتضئ شجرة عيد الميلاد خلف البيت الأبيض كل عام. وبين أخر ٨ رؤساء للولايات المتحدة كان هناك ثلاثة منهم اعتبروا متدينين واثنان اعتبرا نفسيهما مسيحيين ولدا ولادة ثانية.

وعادت ما يظهر الرؤساء الأمريكيون بمظهر من لا يتحدون الشعور الدينى لدى الأمريكين مثل تجنب تقديم الخمور فى المناسبات الدينية، وحضور الصلوات فى الكنائس.

وهكذا، فإن المسيحية فى الحياة اليومية فى أمريكا، توافقت مع الفردية والديمقراطية والبراجمايتية لتصبح ما أطلق عليه (الدين المدنى).

غير أن الفهم المدنى للدين لم يمنع ظهور الأصولية الدينية فى أمريكا ونعنى هنا بالأصولية التيار الذى يعتقد فيه (عصمة الكتاب المقدس) أى الاخذ بالمعنى الحرفى للإنجيل والعهد القديم. وقد اطلق على هذا التيار لدى ظهوره فى سبعينيات القرن التاسع عشر تيار (اللا ادارية) أو (من لا يدرون) حتى ظهر تعبير (الأصولية) فى الصحافة الأمريكية فى عشرينيات القرن الحالى بمناسبة انقسام الكنائس حول نظرية دارون. واستطاع الأصوليون الانجليون أن يشغلوا الرأى العام بقضية رجون سكوبز أحد مدرسى ولاية تنيسى الذى اخترق المنع الحكومى بتدريس نظرية دارون حول نشوء الانسان، الا أن الاصولية الأنجيلية ظلت غير ذات سمعة لأنها كانت توصف بأنها ضد الحداثة وضد الأنتلجينسيا وبالتعصب.

برغم استفادتها من ظروف الكساد العظيم (١٩٢٩)، فان الأصولية

الإنجيلية وجدت فرصتها التاريخية خلال الأربعينيات، فقد هاجم الأصوليون السياسات الاجتماعية التى اعتمدها الرئيس روزفلت لمواجهة الكساد تحت مسمى (الصفقة الجديدة) إلا أن معاداة الشيوعية هى البيئة التى جعلت من الحركة الأصولية الإنجيلية حركة شعبية. فقد نشطت الجمعية الوطنية الإنجيليين، التى شكلت عام ١٩٤٢، لتضم ٢٢ مجموعة كنيسة و١٠٠ كنيسة، ودخلت فى مواجهة مع المجلس الأمريكى للكنائس المسيحية.

وبعد الحرب العالمية الثانية. اهتمت الجمعية الوطنية للإنجيليين بثلاث قضايا شملها برنامج الاتحاد الانجيلى وهى:

(١) معارضة العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة والفاتيكان.

(٢) التلطيف من معاداة الكاثوليكية والهجوم على مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة.

(٣) الضغط لمنع موافقة مجلس الشيوخ على منح المدارس العامة ثلاثة ملاين دولار. على أساس أن ذلك سؤدى إلى سيطرة واشنطن على العملية التعليمية وتعليم الأجيال الصاعدة على أسس لبرالية وعلمانية.

واتخذت الجمعية الوطنية للانجيليين خطأ أيبولوجيا يتفق مع الاجماع القومى على معادة الشيوعية ولذلك اعتبرت الحركة الانجيلية المبكرة (موالية لنظام) كما سعت للحصول على تأيد الحكومة فى الحصول على موجات بث اذاعى دينى مستقل. وكونت الجمعية الوطنية للإنجيلين ما سمى (الاتحاد المزيعيين الدينين) والذى ضم ١٥٠ من الوعاظ الاذاعيين، وبدا المؤتمر السنوى فى واشنطن عام ١٩٥٦ ثم أصبح يعقد صلوات افطار مع الكونجرس واحيانا ما كان الرئيس الأمريكى بنفسه يحضر المؤتمر السنوى. ونجح الإنجيليون فى الضغط على لجنة الاتصالات الفيدرالية والتى أعلنت عن تغيير فى سياستها فى عام ١٩٦٠، وبموجب ذلك التغيير أصبح للإذاعات

الدينية حق شراء أى وقت من البث الاذاعى بدلا من نظام الحصة السابق. وبذلك تمكن اتحاد المذيعين الدينيين من شراء أوقات البث على الشبكة المحلية ثم اتجه المذيعون الإنجيليون الى برامج استعراض الكلام Talk show التى بدأتها شبكة بات بوبرتسون مع بداية الستينيات.

وإلى جانب البث الإذاعى والتلفزيونى، أسس الإنجيليون ارساليات للتبشير مثل منظمة (شبان المسيح) للتبشير بين شباب أمريكا الشمالية، ولتدريب جيل كامل من الإذاعيين للعمل على الموجات القصيرة وراء البحار.

وكان أحد (شبان المسيح) القس بيلى جراهام، الذى جذبت شعبيته الملايين فى المدن الرئيسية من لوس أنجلوس إلى نيويورك، حتى أن مجلة (تايم) خصصت له غلاف عدد ٢٥ أكتوبر ١٩٥٤ باعتباره (الإنجيلى الجديد).

وكان ضمن مصادر قوة الحركة الإنجيلية الصحافة الإنجيلية مثل مجلة الأقتصادات المسيحية (كريستيان اكنونوميكس (Christian Economics، التى تأسست عام ,١٩٥٠ للدعوة للحرية الاقتصادية والرأسمالية. كما تأسست عام ١٩٥٦ مجلة المسيحية اليوم (كريستيانتى تودى (Christianity today، وكتب مؤسسها بيلى جراهام فى أول افتتاحية، أن رسالة المسيحية اليوم هى تطبيق وحى الكتاب المقدس فى كل المسائل الاجتماعية المعاصرة، واستحضار معانى الرسالة الإنجيلية الأصولية حركة شعبية. ونظمت الجمعية الوطنية للإنجيليين برامج لمعادة الشيوعية فى الكنائس الأعضاء بالجمعية، التى أصبحت تضم ٤١ مجموعة كنيسة وتخدم ١٠ ملاين من البروتستانت وقتئذ. وبتركيز الإنجيلية الأصولية على معاداة الشيوعية وحركة الحقوق المدنية كان التضامن بين اليمين المسيحى واليمين السياسى (الحزب الجمهورى). كما ظهرت- على استيحاء- فى الحملة الانتخابية الرئاسية للمرشح بارى جولد ووتر عام ١٩٦٤، إلا أن اجندة اليمين المسيحى ركزت حتى منتصف السبعينيات على مسائل قيم العائلة ومعارضة الاجهاض والشذوذ الجنسى.

لقد كانت برامج ومحطات البث التلفزيون الذى أطلق عليها (الكنائس المرئية) وسيلة حشد للجمهور وأداة لتوفير التموين، من خلال اتحاد الوعاظ الدينيين وبعد أن كانت منظمة (شبان المسيح) للتبشير، فإن برامج المذعيين الوعاظ الإنجيليين أمدت الحركة بزعامات جديدة. فظهر جيرى فالويل فى برنامج (نادى السبعمائة)، جيمس روبنسون (بروبرسون)، وبول كراوتش(لنمجد الرب) وأسست الزعامات الجديدة تنظيمات أصولية إنجيلية مثل (الأغلبية الأخلاقية) و(رعوية المغامرة الكبرى) و(منظمة ميك إيفانز)، و(التجمع المحافظ) و(السفارة المسيحية الدولية)، و(الكونجرس المسيحى الوطنى).

وكشف استطلاعات جالوب عن أن نحو ٧٠ مليونا من الأمريكين يشاركون الشبكات التلفزيونية الإنجيلية (الكنائس المرئية) التى بلغ عددها ١٠٤ محطات تلفزيونية، بالاضافة إلى ١٠٠٦ قناة تلفزيونية بنظام الشفرة (الكابل).

وفى اطار الاحياء الإنجيلى تزايد عدد دور النشر المسيحية إلى ١٣٠٠ دار نشر متخصصة فى العناوين المسيحية، اضافة إلى ٧ آلاف مكتبة لتوزيع الكتب المسيحية، وتقدر مبيعاتها بنحو ٣ مليارات دولار سنويا. ونشأت صناعة للموسيقى المسيحية تشمل موسيقى البوب والروك والراب والميتال، وتقدر مبيعاتها بنحو مليار دولار سنويا. كما انتشرت الدوريات الإنجيلية مثل أسبوعية (المسيحية اليوم) و(أسبوعية العالم)، و (شهرية الوعاظ) بالاضافة الى (الأشياء الجديدة) و (الأبوية المسيحية) و(التاريخ المسيحى) إلى جانب دوريات للرياضة والموسيقى ورعاية الكلاب على الطريقة الإنجيلية. ومع الاحياء الإنجيلى أصبحت هناك ٢٠ مدرسة مسيحية ابتدائية وثانوية ألف كلية التعليم بعد الثانوى. ودخل الأحياء الإنجيلى إلى (السوق) بمنتجات (مسيحية) مثل قمصان الـ (تيى شيرت)، والقبعات وأدوات المطبخ ولوازم الرحلات

وبرمجيات الكومبيوتر.. واستفادت الأصولية من الثورة التكنولوجية، حيث نشهد الآن على الانترنت المسيحية على الخط. كما أصبحت الكنائس المختلفة لها خطوط على الشبكة الدولية .

وبهذا الزخم، قرر الأصوليون الإنجليون دخول (الحلبة السياسية) بعد أن جربوا ذلك في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٦٤, ويعتبر عام ١٩٧٦، عام الإنجيليين بدخولهم (السياسة التصويتية) بدعم المرشح الرئاسي الديمقراطي جيمي كارتر الذي اعتبر نفسه (مسيحيا ولد ثانية).

وبعد معارضة كارتكر لصدور تشريع بمنع الاجهاض نشط اليمن الإنجيلي على المستوى المحلي بدلا من المستوى القومي لدعم المرشحين للكونجرس ومقاعد حكام الولايات المتحدة. وتكونت شبكة قومية تحت مسمى (الأغلبية الأخلاقية) عام ١٩٧٩ لحشد ٣ ملاين ناخب لانتخابات عام ١٩٨٠, وبالفعل أصبح إنجيليون قوة تصويتية مؤثرة في فوز الرئيس ريجان وبعض أعضاء مجلس الشيوخ مثل جيمس هيلمز وهأورري هاتش في انتخابات عام ١٩٨٠, واختار ريجان عدد من النشاطات من الإنجيلين لمراكز مهمة في الادارة، كما دعم بعض أعضاء الكونجرس اجندة الإنجيليتين التشريعية على الكونجرس لمنع الاجهاض والسماح للصلاة في المدارس.، إلا أن سيطرة الديمقراطية على الكونجرس، حالت دون مرور تلك التشريعات. ولذلك اتخذ اليمين الإنجيلي تكتيكات جديدة مثل الاستخدام المتزايد للمظاهرات والجوء للعنف تجاه عيادات الاجهاض إلى جانب الاستمرار في زيادة قدرته التصويتية لدعم مرشحي الرئاسة والكونجرس. وعندما فشل في دفع القس باك روبرتسو للفوز بترشيح الحزب الجمهوري تحول اليمين الإنجيلي إلى دعم المرشح جورج بوش في انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٨، حيث صوت ٨٠٪ من الإنجيليتين لبوش.

ومع بداية التسعينيات أصبح الإتلاف المسيحي بزعامة روبرتسون قلب

اليمين المسيحى ودخل فى تحالف مباشر مع الحزب الجمهورى، وليكون ما سمى الائتلاف اليمينى المسيحى.

وقد شهدت السياسة الأمريكية مع انتخابات ١٩٩٢، ما أصبح يعرف بمسمى (حزب الله) وهو تعبير أطلقته مجلة (كريستيان سنشرى). على الإنجيليتين والجمهوريين اليمينين، فالأصوليون ومن اعتبروا انفسهم ولدوا ثانية شكلوا ١٧٪ من القاعدة التصويتية ٢٥٪ من القاعدة المؤيدة للرئيس بوش غير أن بفوز المرشح الديمقراطى بيل كلينتون برئاسة فى الانتخابات ١٩٩٢، تحولت حركة اليمين المسيحى للسيطرة على الكونجرس. وكشف استطلاع شمل اللجنة القومية للحزب الجمهورى عام ١٩٩٣، عن سيطرة اجندة اليمن المسيحى على أعضائها حيث أيد ٩٢٪ الصلاة فى المدارس، عارض ٩٣٪ الشوذو الجنسى ورفض ٨٤٪ استخدام الاموال الفدرالية فى المدارس. وفى انتخابات التجديد النصفى للكونجرس عام ١٩٩٤، سيطر الجمهوريون على مجلس الكونجرس للمرة الأولى منذ ما يزيد عن ٤٠ عاما. وأصبح الإنجيليون حكم الولايات وأعضاء فى مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وذلك ما تقرر فى انتخابات التجديد النصفى للكونجرس وحكام الولايات عام ١٩٩٦.

هكذا، أصبحت الأصولية الإنجيلية القوة المحركة فى النظام السياسى الأمريكى، وبما أهلها لدور مؤثر فى السياسة الخارجية والدفاعية الأمريكية.

إن الإنجيلية الأصولية، انطلاقا من مبدأ عصمة الكتاب المقدس، تحولت لأن تصبح (مسيحية صهيونية) تعتقد فى النبوءات التوراتية حول نهاية العالم وإحلال مملكة جديدة بعد العودة الثنية للمسيح (معركة هرمجدون)، وضرورة تجميع اليهود فى الأرض المقدسة قبل عودة المسيح، ولذلك اعتبر الإنجيليون الأصوليون أن قيام إسرئيل عام ١٩٤٨، واحتلالها القدس عام ١٩٦٧، تجسيدا لصحة نبوءات التوراة واعتقاد بقرب المجئ الثانى للمسيح الذى

سيحكم العالم من القدس.

بدلا من تنسيق الإسرائيليين كما يعتقد الإنجيليون تمهيدا لقدوم المسيح، فقد اجلت الحركة الأصولية الإنجيلية هذا الموضوع إلى حين اكتمال نبوءات التوراة بقيام مملكة ألف عام السعيدة، وسارت أكثر التزاما بتوفير جهودها لتحقيق شرعية الدولة اليهودية، وحقها فى أرض إسرائيل التوراتية بما فيها الضفة الغربية. وفى هذا الاطار تشكلت المنظمات الإنجيلية الأصولية (الصهيونية) الممالئة للإسرائيل وفى مقدمة تلك المنظمات، الأغلبية الأخلاقية. ويعتبر رئيسها القس جيرى فالويل.. أن الوقف ضد إسرائيل هو اعتراض على الله.. وأن دعم أمريكا لإسرائيل يمنح أمريكا مباركة الرب.. وأعلن عن صهيونيته بقوله: (إننى صهيونى وإيمانى بأن أرض فلسطين والاردن هى للشعب الإسرائيلى).

استهلاك الإعلام المسيحى فى أمريكا (*)

خلال الشهر الماضى	نعم
هل قرأت مجلة مسيحية	٣٧٪
هل قرأت كتابا مسيحيا غير الكتاب المقدس	٣٤٪
هل استمعت لموعظة مسيحية فى الإذاعة	٣٩٪
هل استمعت لمحطة إذاعية كانت تذيع موسيقى مسيحية	٤٥٪
هل شاهدت برنامجا تليفزيونيا دينيا	٤٩٪

(*) المصدر: Barna Research,1992

الدوريات المسيحية (*)

المسيحية اليوم	Christianity Today
العالم	World
المقيمون	Sojourners
الأشياء الأولى	First thing
تاريخ المسيحية	Christian History
الأبوة المسيحية	Christian parentage
حياة الطلاب	Campus Life
المختار الكاثوليكى	Catholic Digest
قوة الصغار	Tean Power
الاكليروس	Clergy Journal
أطياف الرياضة	Sports Spectrum

(*) المصدر: Barna Research

برامج الكنائس المرئية حسب عدد المشاهدين (*)

البرنامج	مقدمه	عدد المشاهدين شهريا بالمليون
نادى السبعمائة	بات روبرتسون	١٦,٣
الحملة الصليبية الأسبوعية	جيمى سواجرت	٩,٥٥
ساعة من القوة	روبرت شيللر	٧,٦٤٢
مجدوا الرب	جيم باكير	٥,٧٧٤
توقع معجزة	أورال روبرتس	٥,٧٧٤
ساعة من إنجيل زمان	جيرى فالويل	٥,٦٠٤
كينيث كوبلاند	كينيث كوبلاند	٤,٩٢٥
دراسة فى الكلمة	جيمى سواجرت	٤,٥٨٥

وتقود المنظمة حملات لدفع السياسيين الأمريكين لمناصرة إسرائيل، مثل السيناتور جيسى هيلمز والرئيس ريجان بالاضافة إلى تنظيم رحلات لإسرائيل. ودافعت المنظمة عن أسرائيل بعد ضرب المفاعل النووى العراقى ١٩٨١، ومجازر صبرا وشتيلا ١٩٨٢، كما قادت (الأغلبية الأخلاقية) المنظمات الإنجيلية الأصولية الأخرى ضد شراء المملكة العربية السعودية أسلحة أمريكية عام ١٩٨١، ولاجتذاب تأيد الرأى العام والكونجرس لنقل

(*) المصدر:
David W. Clark ,Religious Television Audienc, The Scientific Study Of Religion

سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس.

أما القس بات روبرتسون، مؤسس (الالاف المسيحى) فقد أعرب عن صهيونيته بقوله: نعرف نحن المسيحيين من حميم قلوبنا أن الله يقف بجانب إسرائيل وليس بجانب العرب الإرهابيين. وقد أيد روبرتسون، غزو بيروت ١٩٨٢، وضرب لبيا ١٩٨٦ والعراق ١٩٩١، وشارك فى عملية تهجير يهود إثيوبيا (الفلاشا) إلى إسرائيل.

ومن تلك المنظمات الإنجيلية، (مؤسسة جبل المعب)، التى تركز هدفها على بناء المعبد الإسرائيلى فى خلال الحرب الباردة سعى الأصوليون والإنجيليون إلى عسكرة الصراع مع الشيوعية، وعارضوا التجنيد النووى خلال حكم الرئيس ريجان، وحشدت منظمة الأغلابية الأخلاقية، اليمين المسيحى، تحت لافتة (الحملة الصليبية ضد التجميد النووى). ووزع فالويل رئيس المنظمة نشرة تحت عنوان: الحرب النووية وعودة المسيح، تربط الحرب النووية مع الاتحاد السوفيتى بالمجئ الثانى للمسيح. كما ساندت الأصولية الإنجيلية انقلاب ريوس مونت فى جواتيمالا (بعد اعتناقه البروتستانتية)، وشاركت فى فضيحت ايران- كونترا، واسقاط حكومة ساندينستا. وفى السلفادور قادت المنظمات الإنجيلية الأمريكية تظاهرات وحملات دعائية لتأيد النظام الحاكم. وفى الفلبين نظم تلك المنظمات بعثات تبشيرية بعد انتخاب كورازون أكين. وفى جنوب أفريقيا شارك الإنجيليون الأمريكيون نظرائهم هناك فى حملات دعائية مضادة للمؤتمر الوطنى الافريقى. ويبث الإنجيليون القناة التبشيرية المسماة (نجمة الأمل) من المنطقة، التى سيطر عليها الرائد سعد حداد، ومن بعده أنطوان المتعاونان مع اسرائيل فى جوب لبنان. والآن تقود الأصولية الإنجيلية حملة صليبة عالمية تحت ستار حماية المسيحيين المضطهدين فى روسيا والصين والدول الإسلامية، وتهدد بصدام الحضارات.

الجنس فى أمريكا

يامارتن لوثر ومالكولم إكس: حرية التعبير رائعة مثل الجنس

مادونا

الجنس هو أقصى تعبير عن الحلم الأمريكى فى الحرية والتحرر والحراك.. ويرى الأمريكيون فى الجنس إمكانية كبرى للانعتاق الفردى وموردا لاينضب للمتعة والتجدد فى المجتمع.

المسح الوطنى للصحة والحياة الاجتماعية ١٩٩٤

حرية الجنس فعل تمرد ضد المجتمع الذى يوظف لذة الجنس.. ولكن الرأسمالية حولت الجنس إلى بضاعة.

هربرت ماركيوز

عالم محطم، وهيمنة

حرب الخليج والاستعمال

(- سيدى. هل صحيح، أنكم اجتحتم الباستيل أمس، ١٤ من يوليو عام ١٧٨٩، منتهكين بذلك القانون؟ وأنكم قطعتم عنق حاكم السجن بالرغم من كل القوانين الإلهية والإنسانية؟ بل إنكم أيضا تجولتم برأسه، وهى تدمى، على سن رمح فى كل أنحاء باريس؟!

- نعم سيدى. كل هذا صحيح!

- إنكم مجرمون! أو ملعونون! كذلك سيقومون فى المستقبل بالاحتفال بذكرى جريمتكم الشنعاء وكأنها عيد قومى!).

هل هذا حلم؟... لا!

نسمع هذه الكلمات كل يوم منذ عامين أو أكثر. صحيح أن الممثلين مختلفون، لكن (المنطق). هو نفسه: يتظاهر رجال السياسة ووسائل الإعلام بالاعتقاد بأن تاريخ الخليج لم يبدأ إلا فى ٢ من أغسطس عام ١٩٩٠.

ارتكب صدام حسين خطأ بالرد على الحزب الاقتصادية التى ارتكبت ضد بلاده، بالغزو العسكرى للكويت، معطيا بذلك الولايات المتحدة الذريعة التى كانت تنتظرها منذ نصف قرن، منذ محاولة مصدق تأميم البترول الإيرانى [١]، والتى أدت فى ذلك الوقت لتحرك أمريكى فى الخليج.

---

(١) فرشاه إيران من شعبه، ثم أعانته المخابرات الأمريكية وأجلسته على كرسى العرش.

هكذا، أصبح ممكنا إطلاق تعبير (الدفاع عن حقوق دولية) على ما حقيقته الحفاظ على الوضع الاستعمارى الراهن.

كيف أصبح الدفاع عن (الحق الدولى) مسئولية هؤلاء الذين لم يتوقفوا عن انتهاكه، مثل الولايات المتحدة فى بنما أو فى جرينادا - حتى لا نتكلم إلا عن السنوات الأخيرة - أو هؤلاء الذين لم يتوقفوا عن تركه ينتهك من قبل دول أخرى، مثل إسرائيل التى ضمت القدس أو التى تحتل وتضرب غزة والضفة الغربية؟

(الدفاع عن الحق) لا يمكن أن يكون انتقائيا، لا يمكن تطبيقه بعناد فى حالة (ضم الكويت) ونسيان ضم القدس. صحيح ان القدس ليست سوى مدينة مقدسة، لكن الكويت مقدسة ألف مرة بما أنها محاطة بآبار البترول!

رغم كل الأكاذيب حول الحرب النظيفة - الأشبه بالعملية الجراحية! - شن الأمريكيون على العراق حربا كاملة مستخدمين الوسائل التقنية الأكثر تعقيدا وسادية: بربرية قدمت إعلاميا كأنها لعبة إلكترونية، مع لوحات التصويب التى لا نرى عليها أبدا الضحايا المزقين. لم يعدوا سوى الموتى الغربيين، أما الآخرون فلا يعدون!

اختبر الأمريكيون الصواريخ الموجهة بالليزر، واختراعات أخرى للشيطان ضد العراق. تشهد انفجارات القنابل النفاثة - ذات الأقل بقليل من الدمار الذى تخلفه القنابل النوية - على ارتقاء تفوق الولايات المتحدة فى المجالات البربرية. يتباهون بإلقاء ٦٠ ألف طن من المتفجرات فوق بغداد، حتى اليوم الرابع للحرب. هذا يعادل خمس مرات ما ألقوه على هيروشيما!

لم تكن تلك أصغر جرائم الولايات المتحدة والغرب كله، ولا واحدة من أصغر الدلائل على انحطاطهم الأخلاقى، حيث إن السياسيين وأجهزة الإعلام قبلوا دون إباء السخط، حشرجات موت آلاف الجنود العراقيين الذين دفنوا

أحياء بفعل بلدوزورات شوارزكوف. فهذا يعنى فى نظرهم (الحفاظ على الأرواح البشرية!) - كما عبر المتحدث الرسمى للبنتاجون - أرواح البيض، وبخاصة الأمريكيون، فهى الأرواح الوحيدة التى تعد تؤخذ فى الحسبان... ولم يكن هناك أى موجات من الغضب فى الرأى العام العربى.

رجعت العراق أمة لعصر ما قبل الصناعة، هكذا اعترفت الأمم المتحدة.

شمال - جنوب

قبل ظهور مصطلح الدول النامية، كان هناك نمو مستقل عنا. تلك هى المأساة الكبرى لعصرنا.

أدت خمسة قرون من الاستعمار إلى نهب ثروات ثلاث قارات، وإلى تدمير اقتصادياتها، وتكبيلها بالديون.

قبل الدول النامية، كان هناك نمو مستقل عن أوروبا التى أسست وجهة نظر خاصة للتاريخ، فى البداية تحت اسم (العناية الإلهية)، ثم (التطور)، ثم التقدم)، ثم (النمو). وجهة نظر من خلالها تكون القوة التقنية للتعامل مع الطبيعة والبشر هى المعيار الوحيد للقيم.

لعبت لغة المصطلحات دورها فى تسويغ كذبة مزدوجة. (الدولة نامية) فى المجال الاقتصادى، لا تعنى دولة متخلفة أو متأخرة فى التطور التاريخى، ولكنها تعنى تبعية إستعمارية تعوق فرص التنمية الذاتية، وتكرس الاقتصاد المحلى لخدمة الاقتصاد الأقوى.

يخفى مصطلح (على طريق التمني) حقيقة ازدياد ثراء الدول الغنية على حساب الدول الفقيرة.

ابتكر المواطنون الأصليون - قبل أن يتم اكتشافهم من قبل الغرب - أشكال ثقافات متساوية على الأقل مع أجمل إنجازات أوروبا، وذلك بشهادة مرتزقة الغزو أنفسهم، الذين انبهروا ب (تنوشيتلات) - المكسيك حاليا -

أكثر من انبهارهم بفينسيا.

إنه لمن النفاق، ادعاء (التضحيات الإنسانية)، ومحاولات إضفاء الشرعية على ذبح ٨٠٪ من سكان هذه القارة بسبب الأشغال الشاقة فى مناجم الذهب والمزارع. لتحقيق حاجات العواصم الاستعمارية الغربية فقط. جاء ذلك فى شهادة السيد بارتولوم لاس كاساس فى كتابه: (العلاقة الصامتة لتدمير الهند الغربية)، وهو الذى طرد من أسقفيته فى التشيباس على أيدى المستوطنين من تجار العبيد.

أين الهمج؟ قال الأسقف: الهمجية جاءت من أوروبا!

لا تنتهى مطاردة الهنود إلى الماضى فقط، أو إلى العنصريين من المستوطنين الأوائل، فهى مازالت مستمرة فى الولايات المتحدة وكندا وحتى غابات الأمازون. حيث يقوم كبار ملاك الأراضى بذبح الهنود.

حضارة اختفت من التاريخ:

لا نستطيع أن نفهم شيئا من الأوضاع الفوضوية، وأحيانا من احتضار بعض مناطق العالم - مثل إفريقيا السوداء - ولا من موجات التطرف والتدمير المادى والروحى لمجتمعاتهم وثقافاتهم، وذلك إذا ما تجاهلنا خمسة قرون من الاستعمار، ترتب عليها الإخفاقات والانتفاضات وموجات الجنون التى نعانى منها اليوم.

تقدم الهند النموذج التقليدى لعمل الآلية الاستعمارية، حيث عانت المصائب الثلاث:

- خلق طبقة متميزة من العملاء يخدمون المستعمر نظير أجر عال على حساب بقية الشعب.
- نهب خيرات البلد.

– تسخير الاقتصاد كله لخدمة المستعمر، بشكل يصعب الفكاك منه، حتى بعد التحرر من المستعمر.

كتب السفير المقيم فى مورشيد آباد فى عام ١٧٦٩: (إن هذا البلد الجميل الذى كان مزدهرا فى ظل أكثر الحكومات استبدادا وتعسفا، أصبح على شفا الخراب منذ اشترك الأنجليز فى إدارته).

كشف التقرير الرسمى لشركة الهند فى عام ١٧٧٠ عن أنه (هلك أكثر من ثلثى السكان فى الضواحى التى كانت سابقا مزدهرة فى برنيش، والمأساة كبيرة فى أماكن أخرى أيضا).

كتب الحاكم العام للهند، اللورد كورنواليس عام ١٧٨٩ هذه الشهادة: (يمكننى أن أعلن بكل ثقة [1] أن ثلث أراضى الشركة فى هندوستان أصبحت الآن غابة تسكنها الحيوانات المتوحشة فقط).

اشترط (القانون العقارى الدائم) عام ١٧٩٣ الذى أعلنه اللورد كورنواليس فى البنجال وبيهار، ضرورة أن يكون (الزاميندار) – هم المكلفون باستقطاع الضرائب بعد هذا القانون– من ملاك العقارات.

ضمن الانجليز بذلك تجنيد متعاونين أقوياء معهم طوال أكثر من قرن. كتبت جمعية رابطة كبار الملاك إلى نائب الملك فى عام ١٩٢٥: (يمكن لسموك أن تعتمد دون تحفظ على تأييد ودعم ملاك العقارات).

كانت أول نتيجة لهذا النظام الجديد هى تحويل الهند إلى ملكية خاصة، واغتصبت بذلك من الفلاحين الفقراء أراضيهم التى كانت تتيح لهم إنتاج قوتهم، مما أدى إلى المجاعة ووفاة مليون شخص فيما بين عامى ١٨٠٠و ١٨٢٠، ووفاة خمسة ملايين شخص فيما بين عامى ١٨٥٠و ١٨٧٥، ووفاة ١٥ مليون شخص فيما بين عامى ١٨٧٥، ١٩٠٠.

(١) كان عليه أن يضيف: وبكل فخر !

والتنصل من جريمة الإبادة الجماعيه، تم تلفيق التهمة لزيادة عدد السكان، بينما تقول الأحصائيات: إنه فى مقابل زيادة تعداد بريطانيا ٥٨٪ فى الفترة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٠ زاد تعداد الهند بنسبة ١٨,٩٪.

أتاحت الثورة الصناعية الإنجليزية استغلال بقية شعوب العالم. فالهند التى كانت فى ذلك الوقت مصدرة للمنسوجات القطنية إلى جميع أنحاء العالم، تحولت إلى مستوردة للمنسوجات القطنية الإنجليزية، مما أدى لتهديد ١٨٪ من السكان - وهو الذين يعملون فى صناعة النسيج - بالبطالة وانعدام الدخل.

وبفضل لعبة حرية التجارة، زادت الصادرات الإنجليزية إلى الهند من ١ مليون ياردة عام ١٨١٤ إلى ٥١ مليون ياردة عام ١٨٣٥. هكذا بعد ضرب الفلاحين تم ضرب الحرفيين فى مقتل.

الأكثر دلالة أيضا: زادت صادرات الحبوب والطعام من الهند التى أصبحت تعانى بالعل من المجاعة، من ٨٥٠ ألف جنية فى عام ١٨٤٩ إلى ١٩ مليون جنية فى عام ١٩١٤.

أكد تقرير الجنرال سيرجون مارجرو، مدير الخدمة الطبية الهندية أن ٦١٪ من الشعب يعانى من سوء تغذية.

أدت سيطرة رأس المال الأجنبى على الاقتصاد إلى تحويل الهند بعد تحررها من الاستعمار إلى اقتصاد تابع للغرب.

احتفظت روس الأموال الأجنبية بسيطرتها على هذا البلد، بعد استقلاله فى عام ١٩٤٧، فكان لها ٩٧٪ من البترول، ٩٣٪ من الكاوتشوك، ٦٢٪ من الفحم، ٧٣٪ من مناجم الحديد...إلخ.

يمكننا أن نقوم بنفس التحليل فى تفكيك البنيات الاقتصادية (وأيضا البنيات السياسية والروحية) لبقية الدول المستعمرة من قبل إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا... (نادى قدامى المستعمرين). ولنأخذ مثلا آخرا:

الجزائر:

التطرف الجزائرى لـ FIS [١] ليس سوى حالة خاصة لظاهرة عالمية. كانت سهلة التوقع، كما هو سهل توقع انفجارات أخرى فى المستقبل، فى أشكال مختلفة، ليس فقط فى المغرب العربى والعالم العربى، لكن أيضا فى مجمل الدول الإسلامية، وأيضا فى أمريكا اللاتينية وإفريقيا وفى آسيا، بكلمة واحدة: فى مجمل العالم الثالث.

لن يمكن فهم شئ إذن مما يحدث فى الجزائر إذا ما فسر على أنه فقط مجرد رد فعل لانحلال الـ FLN[٢]، ضد فسادها، سياسة الحزب الواحد الاستبدادية القمعية.

لا يمكن الاقتراب من أى مشكلة راهنة إلا فى سياقها التاريخى، محليا وعالميا. مشكلة التطرف مثل غيرها من المشكلات. التطرف هو الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة وفرضها على الآخرين.

أعطى الغرب الاستعمارى، منذ خمسة قرون - والعرض مستمر- مثال التطرف الأكثر فتكا، وهو الادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمى الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفى أو تدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية.

برز الغرب تسلطه على العالم، ونبهه لثرواته، وقمعه لحرياته باختلاقات كثيرة، منها ما كان باسم رسالته فى قيادة العالم، ومسئوليته فى نشر الحضارة، بل وفى بعض الاحيان نشر المسيحية!.. تحت تلك الشعارات، نهب الغرب العالم وأباد بعض حضاراته بمعظم أفرادها! هكذا وصف جول فيرى

(١) Fis: اختصار اسم جبهة الإنقاذ الإسلامية. وهى تعرف به فى كل أنحاء العالم، وخاصة فى فرنسا والجزائر. (المترجمة).

(٢) FLN: جبهة التحرير الوطنى. الحزب الوحيد الحاكم فى الجزائر منذ استقلالها عام ١٩٦٠ وقبل اطلاق حرية تشكيل الأحزاب عام ١٩٨٤. (المترجمة).

النظام الاستعمارى ويرهن عليه.

تولد من هذا التطرف الأول للنظام الاستعمارى الغربى، كل أنواع التطرف الأخرى فى العالم، والتى تشكل ردود أفعال متوقعة للدفاع عن الهوية الشخصية، الثقافية أو الدينية، للشعوب المستبعدة.

أفسد الحلم الخادع بالعودة إلى الماضى ردود الفعل، كأنه العصر الذهبى – السابق للغزو العربى – للحفاظ على الهوية. وكأنه ليس هناك خيار سوى بين محاكاة الغرب فى انحطاطه، أو الجمود على أشكال الماضى التى لا تناسب المستقبل.

ناب كل من صندوق النقد الدولى (IMF)، البنك الدولى، وآخرون مثل الجات، عن هذا النظام الاستعمارى، واستمروا فى فرض قواعد السوق الغربى ونمطه فى التنمية على دول العالم الثالث. يتفاقم الرعب الناتج عن فقدان التوازن بسبب الهيمنة العالمية الأمريكية منذ أول حرب استعمارية عالمية فى الخليج الفارسى العربى.

فقدت سفينة الفضاء (الأرض)، التى نبحر نحن كلنا على متنها،اتزانها، وهى مهددة اليوم بعد خمسة قرون من الهيمنة الغربية المطلة بالسقوط، إذا ما استمررنا فى هذا الطريق. لم نكن نتخيل إدارة أسوأ من ذلك لكوكب الأرض.

يجب وضع المشكلة الجزائرية فى هذا الإطار العام، إذا ما كنا نريد أن نفهم حقيقتها.

بلغت الديون الجزائرية الخارجية الحالية ٢٣ مليار دولار، نسدد عليها فوائد أكثر من ٥ مليارات ونصف مليار دولار سنويا. لا يستطيع دخل البترول والغاز أن يفى بذلك.

خير البلد يذهب فى خدمة فوائد الديون المشكوك فى أصله وسببه. الذين يعانون من البطالة فى الجزائر عدة ملايين، والشباب الذين بلغوا العشرين من

عمرهم ليس لديهم عمل، ولا أمل، ولا مستقبل. تطرح جبهة الإنقاذ الاسلامى FIS برنامجا هزليا فيما يخص هذه المشكلة الكبرى. يتمثل فى: إعادة النساء إلى البيت لتوفير الوظائف للرجال هناك فقط ٣٠٠ ألف امرأة جزائرية لديهن عمل بأجر خارج البيت.

حل ديماجوجى يماثل ما يطرحه لوبن فى فرنسا، من ضرورة طرد المهاجرين لتوفير عمل للفرنسيين.

السبب الحقيقى للبطالة وسوء التنمية مذهل.

أطمعت الجزائر جيوش الثروة الفرنسية والأمبراطورية بفضل صادراتها من القمح. وكان حاكم الجزائر قد نفذ صبره وطرد القنصل الفرنسى، بعد رفض الحكومات الفرنسية فى الفترة من عام ١٨١٥ إلى عام ١٨٣٠ دفع ديونها للجزائر وكان القنصل الفرنسى يعد دائما بالوفاء بالدين، ويطالب برشا لحث الحكومة الفرنسية على التسديد، فكان يأخذ الرشا ولا يسدد الدين. استخدم هذا الموقف كذريعة لاحتلال فرنسا للجزائر لمدة تقرب من قرن ونصف القرن. وبعد أن كانت الجزائر تصدر القمح أصبحت تعتمد على الصادرات الفرنسية من أجل قوتها.

هل يجب أن نضف أنه بالجزائر كانت نسبة التعليم العربى ٦٥٪ من السكان تحت قيادة الأمير عبد القادر، بينما عند تحريرها أصبح بها ٦٥٪ من الأميين مع ٨٪ فقط من الشعب الجزائرى ذى ثقافة فرنسية؟ !

ليست الجزائر فى حاجة إلى طائرات مقاتلة من طراز ميراج، ولا إلى عطور وأزياء فرنسية، ولكنها تحتاج إلى تكنولوجيا زراعية وصناعية فى المقام الأول.

جربت الجزائر على مر العصور كل أشكال الاستغلال والانحطاط من قبل الغرب: رأسمالية الغرب والنظام الاستعمارى، بعد التحرير السياسى، وفى عهد بومدين، محاكاة النموذج السوفيتى لعملقة الصناعة التى أدت إلى

الخراب؛ ثم الاندماج الجزائري البطئ في اقتصاد السوق العالمي عن طريق صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي والمقرضين الأجانب.

كان الخطأ الكبير والعميق لجبهة التحرير الوطني، هو التأرجح دون توقف بين النموذجين المستوردين، السوفيتي والأمريكي. اليوم كل منهما في انحطاط مثل الغرب نفسه.

يمثل قيام جبهة الانقاذ الاسلامي FIS رد فعل رافضا للنماذج الغربية. فكلها تقود في النهاية، تحت السيطرة الامريكية إلى وحدانية السوق، أي المال، ملزمين كل المجتمع أن تكون المنافسة فيه هي الحكم الوحيد، بالحرب من كل شئ ضد كل شئ، بمنطق الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، والبقاء للأصلح!

(اقتصاد السوق) هذا، الذي يطلق عليه اسم ملائكي وخادع (حرية السوق) خلق مجتمعا يدعي كل شخص فيه، وهو يستهدف مصلحته الشخصية، أنه يحقق المصلحة العامة. أيضا، ما يطلقون عليه (الليبرالية) هي غابة، حيث الصراع على مستوى الأفراد والأمم والعالم. والنتيجة: الحال التاريخي الراهن. شئ لا يرغب فيه أحد.

كل أشكال التطرف في العالم الثالث هي ردود أفعال لرفض هذه الديانة، التي لا تجرؤ على أن تبوح باسمها، والتي هي بالفعل الوحيدة التي تسيطر في العلاقات الدولية.

احتفل هنود أمريكا، في عام ١٩٩٢ بمرور (خمسمائة عام على المقاومة الهندية) ضد حلفاء كريستوفر كولومبس، وذلك من أجل الدفاع عن هويتهم الإنسانية وثقافتهم.

تؤكد مثل هذه الثورات من الصين إلى أمريكا أن الرفض ليس حكراً على الإسلام.

ولدت الثورة الإسلامية في إيران من نفس الرفض لنمط الحياة الأمريكية الذي رغب الشاه في فرضه.

أطلقت عبارة (حفارو القبور) على هؤلاء الذين يمجدون هذه الديانة الشمولية لوحدانية السوق.

ستندلع ثورات أخرى وانفجارات أخرى ضد هذه الديانة العدمية، وضد حفارى قبور الإنسان، من آسيا وإلى أفريقيا وإلى أمريكا اللاتينية. فى أشكال دينية ضالة أحيانا، لكن فى أشكال دينية، لأن المقصود مشكلة دينية، تلك الخاصة بمعنى الحياة.

حضارات الغرب غير قادرة على إجابة عن هذه المشكلة الإنسانية إلى أقصى درجات العمق.

ألا يعنى ذلك تعريفا لها بالانحطاط؟

الفوضى الجزائرية الحالية هى إحدى الحالات الخاصة لهذه الأزمة الكونية للمعانى. هناك وجهتا نظر للمستقبل تتصارعان فى الجزائر، وفى كل أنحاء العالم.

فى قلب أعداد لا تحصى من البشر، ثورة ضد العالم الغربى عديم المعنى، وهذا ليس فقط فى الريف أو بين العاطلين فى المدن، لكن أيضا عند المثقفين الأكثر يقظة. لكن هذا الرفض الشرعى لمحاكاة الغرب فى كل أشكاله السوفيتية أو الأمريكية، يعبر عن نفسه من خلال التبشير بأمل غامض لديانة تعيد إلى الإنسان أبعاده الإنسانية.

يبحث البعض عن هذه الديانة بين طيات الماضى، كما لو كان الإسلام عصيا على الفهم بعقول الحاضر والمستقبل. لم يتوقف الإسلام عن المناداة بالتأمل الشخصى، وبإعمال الفكر والعقل والحواس من أجل المشاركة فى الخلق الإلهى المتجدد دائما أبدا(١).

---

(١) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (سورة فصلت الآية: ٥٣). ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (سورة الرحمن الآية: ٢٩).

الأسلمة هي مرض الدين الإسلامي. انطلاقا منها، يثرثرون حول الماضي، كأن كل المشكلات تم حلها نهائيا في الماضي. كأنها قراءة القرآن بعيون الموتى، مثل الآخرين أيضا، من المسيحية إلى اليهودية، ومن الهندسية إلى الطاوية[1]، الذين يقرءون نصوصهم المقدسة بعيون الموتى.

في الجزائر تيار غربي قوي، يضم العديد من رجال الأعمال، المهربين، المثقفين المستغربين، العسكريين ذوي الرتب العليا – مثل الموجودين في أمريكا اللاتينية أو في إفريقيا – الذين لا يحلمون سوى بدمج الجزائر في السوق العالمية. هؤلاء طردوا الشاذلي، المنحاز إلى (المشاركة الشعبية) والضعيف جدا على أن يعلن ويبلغ ذلك.

فازت الجبهة بالانتخابات، فأزاحتها دكتاتورية العسكر لإنقاذ الديمقراطية!

هذا يذكرنا بالسخرية المأساوية لبريخت: (أدان الشعب الحكومة. ألن يكون من الأسهل أن تقوم الحكومة بحل الشعب وانتخاب آخر؟).

من خلال متابعة التليفزيون وأجهزة إعلامنا الديمقراطية (ديمقراطيتنا الفرنسية)، كان السؤال المهم: من سيكون له النصيب الأكبر في السوق الجزائرية؟

في محاولتهم لكي ينسى الشعب الطعنة الكبيرة للديمقراطية، يزرعون الخوف من تطرف ال FIS، ويبحثون عن حجة أخلاقية، فيجدونها في قطع الأيدي، والتمييز العنصري ضد النساء. لكن هذا الإدراك وهذا النمط الأخلاقي يعبر عن نفسه في معنى واحد. نستقبل بكل تقدير متطرفين، نطير لنجدتهم! لماذا؟ لأنهم زبائن ممتازون لأسلحتنا وآلاتنا، متعاونون مخلصون لمدنا بالبترول وتحديد أسعاره، فهو عصب صادراتنا، وعلى نمونا، وهو ما أطلق عليه الأب بيير بحق: (برنامج لتحسين ظروف هؤلاء الذين لا ينقصهم شئ).

(١) الطاوية: فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصيني في القرن السادس قبل الميلاد (المترجمة).

نخشى أيضا من هجرة الجزائريين، فى حين أن الوسيلة الوحيدة الإنسانية والواقعية لوقف الهجرة، هى عدم تضييق الخناق على شعوب بأكملها، مما يدفعها إلى الإفلاس، وإلى اليأس، وإلى الغربة.

يقع على فرنسا والغرب كله جزء مهم من المسئولية لمثل هذا النوع من الانفجارات. يجب أيضا إحداث تغيير جذرى لعلاقتنا مع العالم الثالث. للأسف. لا يبدو أن هذا التغيير الجذرى يتم الآن.

لا توجد. كلمة واحدة حول العالم الثالث فى ماستريخت. كما لو أننا نستطيع أن نبنى اليوم مجتمعا أيا كان نوعه، دون التفكير فى علاقاته مع ثلاثة أرباع الكرة الأرضية.

على قاعدة من العلاقات الاقتصادية الجديدة، المفيدة للطرفين، سيصبح فى إمكانية الجزائر اختبار تنمية ذاتية، قائمة على إيمانهم الخاص، وثقافتها الخاصة، وتاريخها الخاص.

علينا نحن، ألا نخلق قيودا متطرفة من خلال التصدير بالإكراه للنماذج الغربية، بإنكار هوية الآخرين. ويوجد داخل الـ FIS نفسها، العديد من القادة والعديد من المناضلين يعيشون إسلاما متفتحا، خلاقا. يمكن بدء حوار موثوق به لو أدرنا ظهورنا للأساليب الاستعمارية القديمة - التى تضمنت وضع العلماء التقدميين (من جمعية العلماء) فى إقامة جبرية تحت المراقبة، الشيخ ابن باديس، الشيخ الإبراهيمى، الشيخ العقبى - حوار مفتوح على المستقبل من خلال تأمل حى للقرآن.

***

كيف يمكن لمجتمعاتنا عديمة المبادئ دمج إخواننا المهاجرين، وهى تنكر لإيمانهم أن يضيفه إلى كفاحنا الخاص ضد وحدانية السوق؟

كيف يندمجون فينا ونحن نستقبلهم بآذان وأبصار وقلوب رافضة مغلقة؟

ليس أمامنا إلا أن نعش معا أو نسقط معا.

بالنسبة لهولاء الذين يحاولون أن يروا حقيقة العالم، وليس من خلال صورته فى التليفزيون ووسائل الإعلام، هناك حريقان مشتعلان:

١- التبادل غير متكافئ بين الشمال والجنوب، بين اقتصاديات مدمرة كليا بفعل من النهب والاستعمار، واقتصاديات مشبعة ومتخمة بما نهبته. إن حرية السوق هى حرية الأقوياء فى افتراس الأكثر ضعفا. الدليل الأكثر سطوعا هو التدهور الدائم فى التبادل التجارى.

فى عام ١٩٥٤، كان يكفى لمواطن برازيلى أن يملك أربعة عشر كيسا من البن لكى يشترى سيارة جيب من الولايات المتحدة الأمريكية. وفى عام ١٩٦٢، كان يلزم نفس المواطن تسعة وثلاثون كيسا. وفى عام ١٩٦٤ كان يمكن لمواطن من جامايكا أن يشترى جرار أمريكيا فى مقابل ٦٨٠ طن سكر. وفى عام ١٩٦٨ كان يلزمه ٣٥٠٠ طن. إن الدول الفقيرة مستمرة فى مساعدة الدول الثرية.

تمثل فوائد الدين فى كثير من الأحيان نفس قيمة أصل الدين وتساوى قيمة الفوائد مجمل الصادرات، مما يجعل أى (تنمية) مستحيلة. إذن لا يعنى ذلك أنها دول نامية، كما يطلقون عليها بنفاق، لكنها دول محكوم عليها بمأساة مـ مية بفعل الخضوع المتنامى.

(المعونة) المزعومة لدول العالم الثالث هى أحد العوامل الأكثر فعالية لتقوية خضوع هذه الدول ولتأخرها.

حددت (المعونة) العامة، المتعددة الأطراف بأقل من ١٪ (٠.٧ ٪) من الناتج القومى الصافى لـ (المانحين). فى الحقيقة، لا يتم صرف إلا أقل من النصف.

(المعونة) المزعومة، المالية والتكنولوجية للدول (النامية) من خلال الاستثمارات، لم تحقق أى تنمية أخرى غير تلك الخاصة بالشركات متعددة

الجنسيات المغروسة فى هذه المعونة أيضا للشركات الغربية بالحصول على مكاسب أعلى بكثير من التى تحصل عليها فى بلادها. النتائج هنا هى: تنمية زراعة أحادية وإنتاج أحادى، تراجع الزراعة القومية والحرف الوطنية الأصلية، خضوع، استغلال متزايد للأيدى العاملة. تفاقم للدين بفعل تزايد الواردات.

النتيجة النهائية حاسمة: انخفض دخل الفرد بنسبة ١٥٪ فى أمريكا اللاتينية، و ٢٠٪ فى إفريقيا منذ بداية الثمانينيات.

٢- آلية تسخير العالم الثالث لصالح الغرب. ويقوم بها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. أنشأتهما وتسيطر عليهما الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون عن طريق تقديم قروض للدول التى تمر بصعوبات معينة تحت شروط سياسية، واجتماعية، واقتصادية، ومالية تسمى بحياء (برامج الإصلاح) أو (خطط الإصلاح البنيوى).

يتكون برنامج الإصلاح [١] فى الغالب من العناصر الآتية:

- خفض سعر العملة (بهدف تشجيع الصادرات وخفض الواردات).

- تخفيضات هائلة للنفقات العامة وبصفة خاصة على المستوى الاجتماعى: خفض اعتمادات التعليم، الصحة، الإسكان، وإلغاء الدعم بما فيه الدعم الغذائى.

- خصخصة الشركات العامة أو رفع أسعارها (الكهرباء، الماء، الموصلات... إلخ)

- إلغاء التحكم فى الأسعار.

(١) تتمسك الولايات المتحدة والغرب بيلتسين رئيسا حتى يستمر - حسب ما يقولون - فى برامج الإصلاح الإقتصادى والسياسى. وذلك الإصلاح الذى أفلح = بنجاح منقطع النظير فى تحويل روسيا العظمى إلى دولة تشحذ مرتبات موظفيها، وذلك الإصلاح السياسى الذى يقوده يلتسين رغم أنه لم تقم مظاهرات فى أى دولة فى العالم، فى تاريخه كله القديم والحديث، ضد رئيس كما قامت ضد يلتسين.

زيادة الضرائب ومعدلات الفائدة، كل ذلك بهدف خفض معدل التضخم.

تحكم هذه (الليبرالية) الدول النامية بشكل أفضل من الاحتلال العسكرى أو الديكتاتوريات العسكرية.

كتبت سوزان جورج: (ليس أفضل من ذلك سوى ديكتاتورية عسكرية تجعل الدولة تنزف حتى النهاية).

تحتفظ شيلى بالرقم القياسى: ١٥٤٠ دولارا ديوانا لكل مواطن.

دفعت الشعوب نيابة عن جنرالاتهم وكولونيلاتهم ثمن الأتعاب القاتلة التى تمكنهم من الحفاظ على (النظام) فى خدمة أسيادهم الأجانب. اليوم تخدم القروض الجديدة بصفة خاصة تسديد فوائد الديون القديمة.

تؤدى هذه السياسة (للإصلاح) إلى اندلاع مظاهرات للجوع ضد ارتفاع الأسعار: فى المغرب عام ١٩٨١ وفى عام ١٩٨٤. وفى كراكاس عام ١٩٨٥ ومارس عام ١٩٨٩. وفى الجزائر فى أكتوبر عام ١٩٨٨[١].

من أجل دفع الدين بالدولار... تنتج البلاد المعانة كثيرا مما لا تستهلكه، وتستهلك كثيرا مما لا تنتجه!!

هكذا يخرب كل من البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى نصف الكرة الأرضية الجنوبى منذ عشرين عاما، من الأرجنتين إلى تانزانيا، ومن باكستان إلى الفلبين، وبدءوا الآن فى تطبيق نفس الأسلوب فى دول الشرق.

***

أسفرت حرية السوق عن شهرة خاصة بها، هى تهريب المخدرات.

كان استهلاك الكوكايين فى الولايات المتحدة ٨٥ طنا فى عام ١٩٨٤، ١٢٥ طنا فى عام ١٩٨٥، ٢٥٠ طنا فى عام ١٩٨٦. الآن وبوجود ٢٠ مليون

(١) وفى إندونسيا عام ١٩٩٨ (المترجمة).

مدمن مخدرات بها تستوعب الولايات المتحدة ٨٠٪ من المبيعات العالمية من المخدرات.

أكدت نتائج دراسات البروفيسير راينج، الاقتصادى فى جامعة هارفارد، أن المخدرات فى الولايات المتحدة أصبحت واحدة من القطاعات المهمة فى الاقتصاد، على نفس مستوى الإلكترونيات، والسيارات أو الصلب[١].

بلغة السوق، فى مواجهة مثل هذه الزيادة فى (الطلب)، ارتفع (العرض) البوليفى بنفس النسب: كانت بوليفيا تنتج ٦ آلاف طن من أوراق الكوكا فى عام ١٩٧٠، تخطت ١٥٠ ألف طن فى عام ١٩٨٦.

هناك ٦٠ ألف هكتار من أراضى بوليفيا مزروعة بنبات الكوكا؛ ينتج كل هكتار سنويا ثلاث غلات تعطى لمالكها عشرة آلاف دولار. هذا، بينما يكسب عامل المناجم فى بوليفيا ٨٢٧ دولارا سنويا، والعامل فى المصانع ٦٤٩ دولارا، والفلاح الذى لا ينتج الكوكا ١٦٠ دولارا سنويا. يتحول الفلاح الأكثر فقرا بين الفلاحين فى كولومبيا من إنتاج البن أو الكاكاو إلى إنتاج الكوكا، مطيعا لنفس منطق بورصة وول ستريت ومنطق السوق.

إذا ما استمرت السوق وحريتها المتألقة هى الحكم الوحيد، فستضمن المخدرات مستقبلا مزدهرا.

---

(١) جاء ذلك فى جريدة جينيف، ٩ من فبراير عام ١٩٩٠.

الهيمنة العالمية للولايات المتحدة

كرست حرب الخليج هيمنة الولايات المتحدة على العالم، وفرضها مبادلات تجارية غير متكافئة، بالإضافة لـ (سياسات الإصلاح)!

نشرت جريدة لوموند فى ١٠ من سبتمبر عام ١٩٩١، مقالة تحت عنوان (الولايات المتحدة تعنى دائما بأمريكا اللاتينية)، ذكرت فيها بمبادرة بوش الشهيرة: (مبادرة من أجل الأمريكيين) التى أعلنها فى ٢٧ من يونيو عام ١٩٩١، وهى خطته لسوق قارى كبير (من آلاسكا إلى أرض النار)، وإجبار دول الأمريكتين على الدخول فيه عن طريق الابتزاز بالديون. وكانت شيلى قد حصلت مسبقا كثمن لوداعتها فى ١٩من يونيو عام ١٩٩١ على قرض قيمته ١٥٠ مليون دولار.

وحققت بوليفيا فائدة فى ٢٢ من أغسطس بتأجيل دين بلغت قيمته ٣٤١ مليون دولار.

أعلن رئيس كولومبيا أمام اجتماع (مجموعة ريو) المكونة من تسع عشرة دولة لاتينية - أمريكية فى أكتوبر الماضى: (نحن نعرف جميعا أن الشقيق الأكبر فى الشمال يعمل على تنظيم سوق كبيرة وعلى التحكم فيها لصالحه).

كانت الساحة خالية، بعد تدمير العراق، من اجل انتشار جديد دائم لـ (المجموعة العسكرية الصناعية الأمريكية) فى الشرقين الأدنى والأوسط.

أعلن جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى أمام لجنة الشئون الخارجية

بالكونجرس، بأن الوجود العسكرى الأمريكى الدائم فى المنطقة (السعودية - الكويت - الإمارات) منذ بداية أزمة الخليج سيكون أمرا ضروريا. وهو ما تم بالفعل. وتم إنشاء قواعد جوية ذات صفة دائمة فى هذه المناطق.

فى أمريكا اللاتينية، تلقت الأرجنتين أمرا بوقف برنامجها لإنتاج الصاروخ (كوندور) وباشرت فى الحال عمليات تفكيكه. فى آسيا، أنذرت باكستان رسميا بالعدول عن تسليحها النووى، تحت تهديد التعرض للعقوبات الاقتصادية. وفى ٢٦ من يوليو عام ١٩٩١، أخطرت الولايات المتحدة كلا من ألمانيا، وإسبانيا، وفرنسا والمملكة المتحدة باعتراضها على بيع سبع طائرات إيرباص إلى باكستان. لم يتضمن اتفاق التجارة مع الصين بيع التكنولوجيا المتقدمة انتقاما منها لتوريدها أسلحة لباكستان. فى بورما، فوجئت الحكومة الأمريكية على حين غفلة بأن حكومتها ديكتاتورية عسكرية. وبمقتضى (حق التدخل) - وهو الاسم الجديد لحق التدخل الاستعمارى بدعوى العمل (الأنسانى الحضارى) - مارست ضغوطا أضرت بالشعوب الأخرى فى آسيا. احتجت كل من إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، سنغافورة وتايلاند، على الحق الذى يستأثر به الغربيون، وبخاصة الأمريكيون، فى تعيين ما هو الخير وما هو الشر! وعلى فرض (أنظمة لا تتفق قيمها مع هذه المنطقة من العالم) (١).

أعلن السيد هير مان كوهين وزير الدولة الأمريكى للشئون الإفريقية فى ١٠ من سبتمبر، أثناء زيارة الرئيس السنغالى عبده ضيوف للولايات المتحدة، أن مهلة الثلاثين عاما التى قررتها منظمة الوحدة الأفريقية من أجل تكامل الاقتصاديات الإفريقية طويلة جدا. قال: (نحن نعتقد أن إزالة الحواجز التجارية الإفريقية لابد أن تتم بسرعة جدا). بعد أن أبدى الرئيس عبده ضيوف تفهمه للفكرة، أعلن الرئيس بوش إلغاء ديون السنغال لأمريكا.

بما أن الولايات المتحدة هى نفسها الدولة المدينة الأولى فى العالم -

(١) جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون فى ٣٠ من مايو عام ١٩٩١.

٤٠٠٠ مليار دولار - فهى لا تستطيع أن تقوم بنفسها بالأقراض والاستثمار فى الاتحاد السوفيتى.

طلب جيمس بيكر من اليابان الاشترك بكثافة فى هذه المهمة. رد اليابانيون: (ليس قبل ان تقوم روسيا بإعادة جزر الكوريل إلينا).

سرعان ما سافر بيكر إلى موسكو طالبا إعادة جزر الكوريل التى استولت عليها من اليابان كتعويض عن خسائر الحرب. أوشك يلتسين على قبول هذه العملية.

***

المكاسب التى أدت إليها حرب الخليج، سرعان ما تم تحويلها إلى رءوس أموال عن طريق إعادة الانتشار الجديد ل (المجموعة العسكرية الصناعية) عبر العالم.

وأصبحت صناعة السلاح فى الولايات المتحدة تعيش عصرها الذهبى، وانتشلت الاقتصاد الأمريكى كله من مشكلات العجز والركود (١).

كشف هنرى مارتر، المدير العام لوكالة الفضاء الأوروبية، فى ٢٦ من يوليو عام ١٩٩١ فى جريدة لوموند، عن أنه فى الولايات المتحدة (تم البدء فى برامج عسكرية ضخمة لصناعة الطائرات الحربية، بحجم تمويل خرافى بلغ ١٥٠ مليار دولار).

تم احترام طلبات السلاح فى اتجاه (الحلفاء) العرب الأغنياء، لأنه فى كل مرة كان يتم فيها توريد نوع من الأسلحة التقليدية إلى العرب - من أجل

(١) مثال نموذجى: تعد شركة جنرال إليكتريك فى الولايات المتحدة، واحدة من الموردين الرئيسيين للأسلحة للجيش الأمريكى (قطع غيار لصواريخ باتريوت وتوما هوك وأيضا لطائرة أوكس...). وهى مالكة شبكة التليفزيون NBC، واحدة من أهم ثلاث شبكات تليفزيونية. وكان العرض التليفزيونى لحرب الخليج، والتباهى بنجاح الصواريخ الأمريكية أفضل دعاية للشركة.

ازدهار صناعات التسليح الأمريكية - كان يتم مد إسرائيل بسلاح أكثر تقدما. ففى مقابل بيع المقاتلات الأمريكية للسعودية والكويت، قام ديك شينى بإمداد إسرائيل بعشر طائرات اعتراضية إضافية من طراز إف ١٥ لإيجل، وهذه الطائرات قادرة على تدمير أقوى الطائرات فى القوات الجوية العربية.

هكذا، أثبتت حرب الخليج وما تلاها من سباق التسلح الجديد فى الشرق الأوسط، أن (الحق الدولى الوحيد هو (حق الأقوى)).

إسرائيل هى المفوضة بهذا الحق، وهى تكمل بكل دقة المهمة التى أوكلها إليها مؤسسها الروحى تيودور هرتزل: (سنكون بالنسبة لأوروبا المتراس فى مواجهة آسيا، وسنكون الحرس المتقدم للحضارة ضد البربرية).

تم تنفيذ هذا البرنامج جيدا، بما أن الغرب سمح لإسرائيل بكل الانتهاكات للحقوق الدولية. دولة إسرائيل هى الوحيدة التى قبلت فى الأمم المتحدة تحت شرط: عدم المساس بوضع القدس، والسماح للعرب الفلسطينين بالعودة إلى أرضهم، واحترام الحدود الراسخة.

اعتبرت كل هذا الالتزامات وكأنها (قصاصة ورق) [1]. سمح بكل شئ إلى إسرائيل بصفة كونها شرطى الشرق الأوسط. أعطيت لها كل الوسائل من أجل القيام بهذا الدور بكفاءة.

مجلة كيفونيم (اتجاهات)، وتنشرها المنظمة الصهيونية الدولية فى القدس، نشرت فى عددها رقم ١٤ فبراير عام ١٩٨٢، عام غزو لبنان، مقالة عن (خطط إسرائيل الاستراتيجية فى عقد الثمانينيات).

ومما جاء فيها:

(لقد غدت مصر، باعتبارها كيانا مركزيا، مجرد جثة هامدة، لاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار المواجهات التى تزداد حدة بين المسلمين والمسيحيين.

(١) صواريخ بهذا، وتصرف على هذا المفهوم كل قادة إسرائيل.

وينبغى أن يكون تقسيم مصر إلى دويلات منفصلة جغرافيا هو هدفنا السياسى على الجبهة الغربية خلال سنوات التسعينات.

وبمجرد أن تتفكك أوصال مصر وتتلاشى سلطتها المركزية، فسوف تتفكك بالمثل بلدان أخرى مثل ليبيا والسودان وغيرهما من البلدان الأبعد. ومن ثم فإن تشكيل دولة قبطية فى صعيد مصر، بالإضافة إلى كيانات إقليمية أصغر وأقل أهمية، من شأنه أن يفتح الباب لتطور تاريخى لا مناص من تحقيقه على المدى البعيد، وإن كانت معاهدة السلام قد أعاقته فى الوقت الراهن.

وبالرغم ما يبدو فى الظاهر، فإن المشكلات فى الجبهة الغربية أقل من مثيلتها فى الجبهة الشرقية. وتعد تجزئة لبنان إلى خمس دويلات... بمثابة نموذج لما سيحدث فى العالم العربى بأسره. وينبغى أن يكون تقسيم كل من العراق وسوريا إلى مناطق منفصلة على أساس عرق دينى أحد الأهداف الأساسية لإسرائيل على المدى البعيد. والخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هى تحطيم القدرة العسكرية لهذين البلدين.

فالبناء العرقى لسوريا يجعلها عرضة للتفكيك، مما قد يؤدى إلى قيام دولة شيعية على طول الساحل، ودولة سنية فى منطقة حلب، وأخرى فى دمشق، بالاضافة إلى كيان درزى قد ينشأ فى الجولان الخاضعة لنا، وقد يطمح هو الآخر إلى تشكيل دولة خاصة، ولن يكون ذلك على أى حال إلا إذا انضمت إليه منطقتا حوران وشمالى الأردن. ويمكن لمثل هذه الدولة، على المدى البعيد، أن تكون ضمانة للسلام والأمن فى المنطقة. وتحقيق هذا الهدف فى متناول يدنا.

أما العراق، ذلك البلد الغنى بموارده النفطية والذى تتنازعه الصراعات الداخلية، فهو يقع على خط المواجهة مع إسرائيل. ويعد تفكيكه أمرا مهما بالنسبة لإسرائيل، بل إنه أكثر أهمية من تفكيك سوريا، لأن العراق يمثل على المدى القريب أخطر تهديد لإسرائيل).

طالبت إسرائيل الولايات المتحدة تحت عباءة الأمم المتحدة بتفتيش العراق من أجل تدمير منشآته النووية، حتى السلمية منها، لكن لم تطالب إسرائيل بذلك وهى التى ضمت القدس والجولان[1].

فى الوقت الذى رفض فيه المجتمع الدولى ممثلا فى الأمم المتحدة بالإجماع، الاعتراف بقيام إسرائيل بضم القدس الشرقية، اعتبرت إسرائيل هذا الضم من جانب واحد (أبديا)، ولم تعترض القوى الغربية على ادعاءات إسرائيل بمنع أى ممثل فلسطينى من القدس الشرقية من الاشتراك الدولى.

***

حدد حلف شمال الأطلنطى بداية من ٢٩ من مايو عام ١٩٩١، إستراتيجية عسكرية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى (وعدم الاستقرار فى الشرق).

سيطر على التوجه الجديد لهذه الإستراتيجية فكرة أن حرب الخليج أظهرت أن (الخطر يمكن أن ياتى من جهة أخرى).

حدد جيمس بيكر النقاط التى تحدد السلوك القويم، وذلك فى رسالة إلى مؤتمر (الآخر والتعاون الأوربى) فى ١١ من سبتمبر عام ١٩٩١. والحقيقة أنه يمكن أن تختصر النقاط الخمس إلى نقطتين:

- اقتصاد السوق المفتوح دون عوائق أمام الولايات المتحدة.
- نظام برلمانى على الطريقة الأمريكية.

أوربا كلها، باستثناء ألمانيا، فى طريقها إلى أن تصبح فى توصيف الولايات المتحدة مثل جمهوريات الموز فى الكاريبى، أو كمملكة بترولية فى الخليج. المهم أن تظل مفتوحة للتجارة الأمريكية لاستيراد ما يفيض عنها،

---

(١) ومازال التفتيش مستمرا لسبع سنوات.

بداية من الصويا إلى الأفلام، وأن تظل داخل شمال الأطلنطى.

***

تنطوى كل محاولة للهيمنة فى عصرنا على التحكم فى مصادر البترول عصب (النمو) فى النموذج الغربى.

كانت إنجلترا الأولى التى تضع يدها على آبار البترول فى الشرق الأوسط، بصفة خاصة فى إيران والعراق. وذلك فى زمن قوتها فى بداية هذا القرن، وعندما تحول أسطولها الحربى من استخدام الفحم إلى استخدام المازوت.

الولايات المتحدة أيضا، وحتى قبل أن تحمل راية القيادة الدولية، كانت تضمن السيطرة على بترول المكسيك، بعد أن أبعدت الرئيس كاريناس الذى سبق وقام بتأميمه، وعلى بترول فنزويلا عن طريق تأييد الحكومات المخلصة لها. عندما أراد الجنرال قاسم فى العراق فى عام ١٩٦١ تأميم البترول، أدى تدخل عسكرى بريطانى إلى قلب نظام حكم قاسم واغتياله. منذ ذلك الوقت، سيطرت الولايات المتحدة على دفة قيادة العالم الغربى.

عندما أراد الرئيس مصدق فى إيران أن يؤمم البترول، أقامت الولايات المتحدة أولى مشروعاتها للتدخل العسكرى فى الخليج، لكنها حققت هدفها بوسائل أخرى: تم قلب نظام حكم مصدق، وتم سجنه، وأعيد شاه إيران الهارب، وأجلس على كرسى العرش ليصبح شرطى الشرق الأوسط وآبار بتروله. عندما قامت الثورة الإيرانية على الشاه، دفعت الولايات المتحدة العراق إلى الهجوم على إيران بعد أن أقنعوا صداما بأنه نظام الشاه لم يعد فى طهران لا دولة ولا جيش.

أنهكت الحرب الطويلة جيش وشعب واقتصاد إيران، وتكدس السلاح فى العراق. وبعد انتهاء حرب العراق/ إيران، جعلت الولايات المتحدة العراق

يعتقد أنها لا تعنى بمشروعاته لضم الكويت. سقط صدام فى الفخ، معطيا الولايات المتحدة الذريعة المثالية لتحقق على نطاق واسع ليس له سابقة، الخطة العسكرية التى رتبتها من قبل عام ١٩٥٣ ضد مصدق. أسفرت هذه الحرب عن وجود عسكرى دائم للولايات المتحدة فى الخليج.

حقيقة أن عملية (تحرير الكويت) لم تكن سوى ذريعة، أصبحت جلية بعد إعادة الأسرة الحاكمة إلى العرش فى الكويت. أعلن الرئيس بوش بعدها بصراحة فى الأمم المتحدة ضرورة الإبقاء على الحظر حتى يترك صدام حسين السلطة. لأول مرة، تعترف إحدى الدول بوضوح أنها ستجوع شعبا حتى يأتى بحكومة توافق عليها!.

فى الوقت الراهن، لم يعد هناك سوى حقلين رئيسيين للبترول فى العالم مازالا بعيدين عن السيطرة الأمريكية، ليبيا وإيران.

اقتضى الأمر فى البداية تكرار الخطة العراقية فى مواجهة ليبيا. مرة أخرى كان يجب إيجاد ذريعة! فى عام ١٩٨٦، حدث انفجار فى ملهى ليلى فى برلين أسفر عن مقتل جنود أمريكيين، ووقع هجوم آخر فى مطار روما. كان هذان الحدثان كافيين لتوجيه الاتهام إلى ليبيا. فتم الإغارة عليها. حاولوا اغتيال القذافى عن طريق تدمير منزله. أسفرت الغارة عن ٥٠ قتيلا فى طرابلس. واتضح بعد تحقيقات السلطات الألمانية والإيطالية، وعرف العالم كله، أن ليبيا بعيدة تماما عن هجمات روما وبرلين.

الآن، ومن أجل الوصول إلى نفس الهدف، وبعد تبرئة سوريا مما نسب إليها من انهالم بتدمير طائرة بان أمريكان وطائرة UTA، وذلك مكافأة لها على الاشتراك فى عملية الخليج، أصبحت ليبيا متهمة من جديد! أخطرت رسميا بتسليم اثنين من مواطنيها (المشتبه فيهما) بأنهما المسئولان عن إسقاط الطائرتين. وذلك على خلاف القاعدة الأساسية للعدالة التى تؤكد أن

كل متهم يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته. يعادل (الاشتباه) الأمريكى الإدانة تماما من الآن فصاعدا[1].

تخطت الولايات المتحدة الإجراءات الشرعية، وعن طريق أسلوب لم يستخدم من قبل فى الأمم المتحدة منذ إنشائها، حصلت من مجلس الأمن على إنذار نهائى[2]، وذلك بالرغم من ميثاق الأمم المتحدة ومعاهدة مونتريال لتسليم المجرمين (١٩٧١)، التى تقضى فى الحالات المماثلة باللجوء إلى التحكيم، وكوسيلة نهائية إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى. قبلت ليبا الخضوع لهذه الشرعية الدولية. ورفضت الولايات المتحدة الدعوة التى وجهتها لها ليبيا باستعدادها لقبول محققين قضائين أمريكيين وبريطانيين وفرنسيين بهدف متابعة تحقيقاتهم فى ليبيا الي جانب زملائهم الليبيين واستجوب المتهمين.

نفس سيناريو الخليج المتداخل، حظر، ثم اللجوء إلى المذبحة بدعوى أن الحظر غير فعال، ثم الإبقاء على الحظر حتى يتم التخلص مرة أخرى، من قائد لا يحوز رضا الولايات المتحدة.

تهدد الغطرسة الأمريكية سيادة كل دول العالم، وإذا لم تأخذ الدول موقفا جماعيا إزاء ذلك، فسيكون عليها أن تخضع الواحدة تلو الأخرى لبطش الولايات المتحدة.

(١) أصدرت محكمة العدل الدولية حكمها فى ربيع عام ١٩٩٨ بأنها مختصة بنظر القضية، ومع هذا لم تتنازل الولايات المتحدة عن طلبها تسليم المواطنين الليبيين، ولم تتنازل عن حصار ليبيا.

(٢) إنذار: شروط نهائية تفرضها دولة على أخرى يؤدى عدم قبولها إلى الحرب. (المترجمة).

تفكيك الاتحاد السوفيتى

حاول أساتذة الفوضى عن طريق حشد إعلامى هائل، أن يطبعوا فى أذهاننا، أن السبيل الوحيد للهروب من النظم السياسية الاستبدادية، هو العودة إلى الغابة. إنها مرة أخرى محاولة لنسيان الماضى، (الفوضى الصناعية والتجارية)، كما قال فورييه، حيث أدى عدم المساواة، والاستغلال، والعنف، إلى ميلاد الاشتراكية.

لم يكن ماركس هو الأول الذى أدان سلبيات رأس المال. استهجن جراكشو بابوف فى يونيو عام ١٧٩١ قانون شابوليه الذى حرم طوال ثلاث أرباع قرن إنشاء النقابات العمالية، وذلك فى كتاب (القانون الهمجى الذى فرضه رأس المال).

فى عام ١٨٣٣ كتب بيير لورو، الذى أصبح فيما بعد القديس سيمونيان (كان ماركس حينذاك فى الخامسة عشرة): (الكفاح الحالى للبروليتاريا ضد البورجوازية هو كفاح هؤلاء الذين لا يملكون آلات الإنتاج ضد هؤلاء الذين يملكونها).

لم يكن ماركس هو الأول الذى فضح أكاذيب الحرية. كتب الأب لامونا فى عام ١٨٣٨: (بين القوى والضعيف، إنها الحرية التى تقمع، والقانون الذى يحرر).

عبر عن نفس الفكرة أوجست بلانكى فى اليوم التالى للسقوط الثانى

للاشتراكية، ذلك الذى حدث فى مدينة باريس: (يعتبرون على الشيوعية أنها تضحى بالفرد وتنكر الحرية. باسم من هذا الافتراض المتغطرس؟ باسم النظام الفردى، الذى يغتال باستمرار منذ آلاف السنوات الحرية والفرد. كم عدد هؤلاء الأفراد فى جنسنا البشرى الذين لم يحولهم النظام الفردى إلى عبيد وضحايا؟ ربما واحد من كل عشرة آلاف شهيد من أجل جلاد! عشرة آلاف عبد من أجل طاغية! ويترافعون من أجل الحرية! افهم: بعض الحيل المشئومة كامنة وراء التعريف، ألا يسمى حكم الأقلية بالديمقراطية، واليمين المزيف بالشرف، والاغتيال بالاعتدال؟!).

يفعلون من جديد ما فعلوه (من تزييف) من قبل. يتكلمون عن (ثورة روسيا فى ١٩ من أغسطس عام ١٩٩١). وفى عام ١٩٩١ بهدف دفن بريسترويكا جور باتشوف ودفن الاشتركية أيضا.

لا، لم تبدأ هذه القصة بهذه الطريقة.

ولدت الاشتراكية تاريخيا فى القرن التاسع عشر، فى كل المجتمعات التى استبدل فيها بطبقات العائلات الإقطاعية طبقات أصحاب الأموال. أصبح اقتصاد السوق المنظم الوحيد للعلاقات الإنسانية. نشبت غابة يفترس الأقوى فيها الأضعف.

من هنا جاءت فكرة علاقات اقتصادية واجتماعية أخرى، ملخصها: (توفير الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية للتنمية الكاملة لكل القدرات الإنسانية الكامنة فى كل إنسان، بهف أن يستطيع كل طفل يحمل فى داخله عبقرية موزارت أن يصبح موزارت). ذلك كان تعريف الاشتراكية بأهدافها، حسب قول ماركس، اشتراكية آلات الإنتاج لم تكن سوى وسيلة.

تجعل تلك العلاقات من الاقتصاد وسيلة لا غاية. ولكن يحبط منطق السوق ذلك المفهوم على حساب إنسانية الإنسان.

لم يختزل ماركس حركة التاريخ فى الاقتصاد، الذى هو بالفعل فى الرأسمالية بمثابة المحرك! عندما ادعى صهره بول لا فارج تلخيص فكرة ماركس فى كتاب يحمل عنوان (الحتمية الاقتصادية)، أجاب ماركس: (إذا كانت هذه الماركسية، فأنا ماركس لست ماركسيا!).

يتطلب تجاوز تناقضات الرأسمالية، التخلى عن حتمية جنون وعبوبية الاقتصاد الحر. يعنى ذلك أن الثورة على الظلم الاجتماعى تحتاج إلى السمو أكثر من الحتمية.

سبب الدور الاجتماعى والسياسى لعلماء اللاهوت المنافقين فى عصر ماركس، أن يتهمهم بترويج الأفيون للشعوب.

أثر ذلك سلبا على كل تاريخ الاشتراكية، وفى أعمال حلفاء ماركس، الذين يرددون كلام ماركس دون استلهام منهاجه.

جعلوا فى بعض الأحيان من الإلحاد مكونا أساسيا للاشتراكية، مما حرمها دائما من بعدها الخاص بالبحث فيما وراء المادة لصالح تسميتها بـ (الاشتراكية العلمية)، متناسين أن الثورة يمكن أن تكون عملية فى وسائلها، لكن لا يمكن لأى علم أن يمنحنا أهدافا نهائية.

فى دولة مثل روسيا فى عام ١٩١٧، وكانت اقتصديا متخلفة بمسافة هائلة من الدول الرأسمالية المتقدمة مثل بريطانيا، تداخلت مشكلات تطبيق الاشتراكية مع ضروريات التنمية.

لم تفشل محاولة اشتراكية الدولة فى روسيا بسبب اقتصادها المتخلف فقط، ولا بسبب الظروف الدولية المعادية فقط، ولكن أيضا لأن مفهومها الخاطئ عن الاشتراكية، قام على المفاهيم الإنتاجية للغرب منذ عصر النهضة.

وما هو أسوأ فى تطور هذه الاشتراكية، هو استدانتها من فروض أولية

معتمدة على قاعدة رأسمالية، وعلى المعتقد الغربى فى وجود نموذج وحيد للتنمية يعتمد كثيرا على الكم الذى تضمنته تكنولوجيا الغرب.

قدم النظام الجديد فى روسيا بسرعة شديدة ثلاثة تحريفات أساسية:

– صاغ ماركس قوانين النمو من أكثر النظم الرأسمالية تقدما فى عصره، الرأسمالية الإنجليزية، عن طريق إقامة علاقة جبرية بين الاستثمارات الموجهة إلى وسائل الإنتاج، وتلك المخصصة للسلع الاستهلاكية، النظرية الوحيدة للنمو، التى عاشت أكثر من قرن، نقلا عن صامويلسون.

– جعل المريدون العقائديون من هذا القانون الوصفى لتطور الرأسمالية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر قانونا مرجعيا لتطور الاشتراكية الروسية فى القرن العشرين. منع هذا الخطأ القاتل – منذ ذلك الوقت فصاعدا– التفكير فى الاشتراكية انطلاقا من أهدافها الأساسية، وهى اشتراك الشعب فى القرارات المتعلقة بمعنى وبتنظيم حياته، وأسفر عن مبدأ الأولوية المطلقة للصناعات الثقيلة، معيدين بذلك وحشية التصنيع التى سادت فى بداية القرن التاسع عشر فى إنجلترا وفرنسا.

فى ظل ظروف التخلف الاقتصادى لروسيا فى عام ١٩١٧، ثم إعادة البناء بعد دمار الحرب العالمية الثانية، يمكن أن يبدو شرط أولوية النمو الصناعي كضرورة تاريخية حتى لا تسحق روسيا من القوى الاقتصادية المحيطة بها.

لايبدو الخراب الإنسانى جليا إلا بعد الانطلاق الصناعى عام ١٩٧٣، لكن تم حجبه أمام بوادر الحرب العالمية الثانية، ولم تظهر الثورات الأولى فى المجر ثم فى تشيكوسلوفاكيا بصفة خاصة، إلا بعد إعادة البناء، على تلك المفاهيم الخاطئة.

– انطوى التحريف الثانى على الخلط بين الاشتراكية والتأميم.

سخر ماركس من قبل من هؤلاء الذين عرفوا الاشتراكية بالتأميم. قال ماركس: (سيصبح بسمارك أكبر اشتراكى فى اوربا، بما أنه أمم مكاتب البريد!).

وصف لينين فى آخر مقالة له فى جريدة البرافد حول (الحركة التعاونية) المشتركة (إضفاء الطابع الاشتراكى) بأنها مثل إنشاء شبكة من التعاونيات ذاتية الإدارة.

عندما فرض ستالين تأميم القطاع الزراعى، وبأسلوب تسلطى متسرع، سدد ضربة قاصمة لذلك القطاع، لم يفق منها حتى اليوم.

استيلاء الدولة على وسائل الإنتاج، فى دولة رأسمالية متخلفة – لم تكن طبقة العمال تشكل فى عام ١٩١٧ سوى ٣٪ من الأيدى العاملة – أدى إلى نوع من التصنيع، لكن يأتى (من أعلى) بدلا من أن يقوم على تعاونيات ذاتية الإدارة من الشعب. بدلا من أن تكون (الخطة) وسيلة لتهذيب الاقتصاد لتوجيه الإنتاج لخدمة الحاجات الإنسانية، أصبحت المؤسسات الصناعية للدولة طبقة تدار بطريقة شبه عسكرية، دون (مشاركة) من القاعدة، حيث احتفظ التكنوقراطيون، والبيروقراطيون، وأعضاء جهاز الحزب بكل السلطات، واتخذوا القرارات نيابة عن الجميع، الذين لم يستشاروا، أو بطريقة شكلية محضة، دون تأثير على الإدارات المركزية.

هذا التصور لدور الدولة يتناقض تماما مع تصور ماركس. أعطى ماركس كمثال لدولة اشتراكية بلدية [١] باريس، وهى على النقيض تماما مع الدولة السوفيتية. كانت البلدية، فى وجهة نظر ماركس، وعلى شكل مصغر، تدار ذاتيا، فيدرالية وليست مركزية، ليس بها حزب وحيد: يحتفظ فيها

(١) بلدية: كوميونا – باللغة اللاتينية – أصغر وحدة فى التقسيم الإدارى يتمتع سكانها بالحق فى حكم أنفسهم بأنفسهم. (المترجمة).

أنصار برودون (١) بالأغلبية المطلقة لكن مع وجود لأنصار بلانكى(٢)

- اشتمل التحريف الكبير الثالث على خلط توجيه الدولة مع طريقة الإدارة من أعلى، وتدخلها فى الاستثمارات، والأسعار، ومعايير الإنتاج، والتوزيع التجارى، وتطورات السلطة، كل ذلك من خلال بيروقراطية مركزية وأجهزة محلية معينة من القائمين على التخطيط.

قادت هذه التحريفات الثلاثة لاشتراكية ماركس، الاقتصاد إلى الفوضى، والحرية إلى الزنزانة.

أما فيما يتعلق بالانقلاب السياسى فى ١٩ من أغسطس عام ١٩٩١، لنا الحق فى أن نسأل أنفسنا عدة أسئلة حول المعنى السياسى لهذا الانقلاب وحول مديريه، ذلك أنه حتى حماقته جاءت مثيرة للشك!

كانت مجموعة المتآمرين على رأس قمة الدولة، وأيضا على كل أدواتها الضاغطة، مسيطرين على وزارات الدفاع والداخلية، وكل جهاز الحزب. والحال، أن من بين ١٨٠ فرقة كان الجيش السوفيتى يضمها، لم يتصل المتآمرون إلا بخمس عشرة منها، ولم يحركوا سوى خمس، مع أوامر بعدم إطلاق النار. فى نفس الوقت طلبوا من أحد المصانع ٢٥٠ ألف زوج من الأصفاد!! تماما مثل ما يحدث فى أكثر سيناريوهات هوليوود شططا. كانت دون شك كما قال ريجان إمبراطورية الشر!

على جانب وزارة الداخلية، لم يتم قطع أى مكالمة تليفونية داخلية أو خارجية سوى تلك الخاصة بجورباتشوف.

(١) بيير جوزيف برودون، منظر شتراكى فرنسى عاش فى الفترة من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٦٥ كان يحلم بمجتمع مشترك على المستوى الاقتصادى، وفيدرالى على المستوى السياسى. (المترجمة).

(٢) أدولف بلانكيك ناشر واقتصادى فرنسى، شقيق ثورى الاشتراكى لويس أوجست أحد زعماء ثورة عام ١٨٤٨، رأمضى بلانكى سنوات عديدة فى السجن (المترجمة).

عاد بوريس يلتسن من إجازته قبل عدة ساعات من اندلاع الانقلاب السياسى. لم يتعرض له أحد لا فى المطار ولا فى منزله. ذهب إلى البرلمان الروسى، وأجرى محادثة تليفونية مع الرئيس بوش. حصل صديقاه عمدة موسكو وعمدة لينتجراد على نفس الامتياز.

واقفا على ظهر إحدى الدبابات التى أحاطت بالبرلمان، حيث استطاعت وكالات الأنباء العالمية تصويره، نادى يلتسين بإضراب عام لم يتبعه فيه أحد، وإلى مظاهرات لم تتخط العاصمة موسكو؟

هكذا ولد بطل المقاومة!

المثير أيضا هو الترحيب الرسمى بالدوق فلاديمير الكبير فى سان بطرسبرج (الذى استعاذ اسمه الألمانى) من قبل عمدة المدينة الموالى ليلتسين فى باريس بوريث القياصرة الذى اكد تأييده الكامل له.

أعاد جورباتشوف التفكير فى الاشتراكية انطلاقا من أهدافها[1] وبتغيير جوهرى فى الوسائل. لم يعن ذلك مجرد عملية ترميم أو تغيير بسيط فى البنيان، كما توحى كلمة بريسترويكا. أترجم بريسترويكا بالأحرى إلى نهضة: مجتمع يعيد التفكير فى نفسه انطلاقا من مبادئه.

أتاح هذا الانفتاح ثورة شعوب بأكملها فى بولندا، فى المجر، فى ألمانيا الشرقية، فى تشيكوسلوفاكيا. التطفل كان حتميا على مثل هذه الحركة الواسعة من أجل اشتراكية ذات وجه انسانى، وذلك من قبل من يصطادون فى الماء العكر أو من المحرضين، لكن يظل المعنى العميق واضحا: شن جورباتشوف ثورة ضد التحريفات الثلاثة للاشتراكية.

ثم فشل جورباتشوف.

لايجب أن يقودنا هذا الفشل الصريح الحالى إلى أن ننسب الكمال لغاية

(١) انظر كتابه: بريسترويكا.

السوق. هناك فى عالم (اقتصاد السوق) فى أوربا سبعة عشر مليون عاطل، وفى الولايات المتحدة عشرون مليون فقير.

كانت أولى تصريحات بوريس يلتسين، والتى لم يستشر فيها أحد، مذهلة، أيضا مقلقة للجمهوريات الأخرى ومزعجة لشركائه فى الخارج. أشار إلى أنه ستتم مراجعة حدود الجمهوريات، وسيجرى نقل كل الأسلحة النووية فى أوكرانيا إلى روسيا، وتعليق نشاط الحزب، وإلغاء ست جرائد!

بداية غريبة لنظام ديمقراطى!

انطلاقا من هنا، كان من الممكن تحقيق عدة أهداف أساسية.

أولا: التخلص من بريسترويكا جورباتشوف، التى كانت تحاول منذ خمس سنوات (صحيح، بكثير من البطء والتذبذب) الفصل فى الاقتصاد بين السوق والخطة، بهدف إلغاء التخطيط المركزى، والاستبدادى، دون الوقوع فريسة فى غابة السوق.

تذكر الليبرالية المتوحشة بنظرية الثعلب الحر داخل حظيرة الدجاج الحر، واستئثار الأقلية بالثروة والسلطة.

اختار بوريس يلتسين اقتصاد السوق على الطريقة الأمريكية. تكتشف العملية المذهلة للبيع بأبخس الأسعار عن حجم خيانة الشعب.

إذا حكمنا من خلال السخرية اللامعقولة لمشروع (الانقلاب السياسى)، ومن خلال ضخامة نتائجه، إذا حكمنا من خلال المستفيدين من ذلك، فسيكون من الحق أن نسأل أنفسنا عما إذا كانت هذه مؤامرة حقيقية، أم مجرد مشهد مسرحى.

أيا كانت الإجابة عن سؤالنا، فالنتيجة هى: إحياء الرأسمالية. أقول إحياء الرأسمالية مثلما أطلق على حركة عام ١٨١٥ (إعادة الملكية).

ارتكبت الثورة الفرنسية جرائمها: أهوال جاكوب، فساد الترميدوريين، ديكتاتورية نابليون، لكن الملكية العائدة إلى العرش لم تكتف بهدم تماثيل نابليون وروبسيير، لكنها هدمت أيضا تماثيل روسو، فولتير، ديدورو. كانت تريد أن تمحوهم من ذاكرة الفرنسيين مع كل المظاهر الإيجابية للثورة. وذلك مثل ما يحدث اليوم: لا يكتفون بإسقاط تماثيل الانحطاط الستالينى، لكن أيضا إسقاط تماثيل مؤسسى الاشتراكية. يتصنعون نسيان العربدة القديمة للرأسمالية، طغيان قياصرة روسيا، التى كانوا يسمونها حينذاك (سجن الشعوب).

من أجل القضاء على البريسترويكا التى كانت تحاول إصلاح الاشتراكية بمحاربة تحريفاتها، يحاولون إحياء الرأسمالية تحت اسم مستعار جديد: (اقتصاد السوق).

لم ير السياسيون ورجال الأعمال الغربيون فى انهيار الاتحاد السوفيتى سوى كونه انفتاح ضخم. إنه التفكير بأسلوب متخلف قرنا من الزمان، ودون الأخذ فى الحسبان فشلهم السابق، عندما اقتسمت وقسمت إنجلترا وفرنسا إمبراطورية الرجل المريض، فلم تتوقف الحروب والمذابح والمشكلات: فى العراق، وفلسطين، وسوريا ولبنان، وصربيا وكرواتيا.

تضاعف الخطر اليوم، لضياع الفرصة التاريخية للتخلى التدريجى عن الأسلحة النووية، التى كان جورباتشوف قد نادى بها عندما كان على رأس السلطة.

---

(١) ومازال التفتيش مستمرا لسبع سنوات!

أوربا الشبح

لم تتوقف أوربا عن التآمرك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فى اقتصادها، وتقاليدها السياسية، وتأثرت كثيرا أساليب حياتها بفعل الإعلام الأمريكى الضخم. وظهر ذلك بوضوح فى انتشار العنف والفساد.

يولد اقتصاد السوق الخالى من الضوابط، وحيث المال هو المحرك والهدف الوحيد، الفساد والعنف(١).

يولد نظام مملكة المال، الفساد، وأيضا العنف: يعتبر التفاوت الفظ فى مدننا، بين الثراء الفاحش من ناحية، والبطالة والمستقبل الخالى من الأمل لملايين الشباب من ناحية أخرى، منبعا لانفجارات العنف والتخريب: المظاهرات الشعبية، سرقات السيارات، الحرائق، المحلات المنهوبة فى إنجلترا فى أكسفورد، فى برمنجهام، فى نيوكاسل.

لن تحل المشكلة بالردع الأمنى، طالما ظل الأكثر حرمانا بدون عمل وبدون مستقبل. لدينا هنا فى ضواحينا، نموذج مصغر لما يتفاقم فى العالم الثالث، لنفس أسباب التناقض بين البذخ والتهميش.

يمكننا أن ننتظر نفس انفجارات اليأس، نفس هوس التخريب، طالما لم يتم إقامة قسمة أخرى – ليست استعمارية – للثروة والسلطة.

يجب البحث عن الأسباب العميقة التى تفسر الأحداث. بالنسبة لأوربا،

(١) اقرأ: (نهاية الديمقراطية) – مارى جيهينو.

أصبح ضمان انتقال رءوس الأموال والثروات أهم ما يجب تأمينه وضمانه، ولو على حساب سيادة الدول وحدودها.

وهذا هو ما يجمع المجموعة الأوربية من روما إلى ما ستريخت، فيما وراء التناقضات الظاهرة بين الشركاء المتنوعين (بين إنجلترا والقارة مثلا). الهدف النهائى مشترك: تخطى كل عقبة بالحركة الحرة لقوانين السوق، بصفة خاصة الإجراءات الدولية.

يريد بعضهم اوروبا موحدة قوية لأنها تهدم سلطات الدول، التى تعتبر عقبات للمنافسة والسوق الحرة. يخشى البعض الآخر، كما قال جون ميجور فى ماستريخت باسم إنجلترا: (أن يعرقل البرنامج الاجتماعى القدرة التنافسية)، طتذرع هؤلاء الذين يدافعون عن هذا الرأى بالعبء الذى يمثله موظفو البيروقراطية وتزايد إعدادهم فى إدارات بروكسل.

ارتضى الآخرون هذا الفريق من التكنو قراط ورجال المال، حيث تستطيع جماعات الضغط المختلفة فى الصناعة والعمال الدولية أن تستقطبهم لصالحها، وتتخلص بذلك من الرقابة المباشرة للحكومات وللبرلمانات وللمواطنين.

وينفرد السوق بالسيادة كما لو كان الإله الواحد الأحد. الصفة الجوهرية للمجموعة الأوربية هى أن ينتمى كل أعضائها إلى حلف الأطلنطى، المرجع الأساسى لأوربا، اختلطت كل الفروق.

أعطى جاك دولور التعبير الأكثر وضوحا: (هدف هؤلاء الذين يكافحون من أجل البناء الأوربى، هو أن تصبح المجموعة الأوربية ذات يوم ركيزة حلف الأطلنطى). أما البريطانيون فقالوا: المجموعة الأوربية بمثابة (نراع أوربية لحلف شمال الأطلنطى).

أكد المتحدث الرسمى الفرنسى من ما ستريخت: (المقصود هو تقوية شاملة لحلف الأطلنطى من خلال نراعين اثنين).

يستجيب أولئك لأهداف الولايات المتحدة. نادى الرئيس ريجان فى حديث له فى ٨ من مايو عام ١٩٨٥ بـ (توسيع الاتحاد الأوربى حتى يصل من لشبونة إلى داخل الأراضى السوفيتية).

كتب جاك دولور بعدذلك بست سنوات (مجلة إسبرى، نوفمبر عام ١٩٩١): (إذا تمت الموافقة على المعاهدتين فى ماستريخت، فسينعكس فورا أثر تطبيقهما على ٣٥ دولة).

هنأ بوش نفسه بالقرارات (التريخية) التى اتخذتها قمة ماستريخت. (تعطى أوربا الأكثر وحدة للولايات المتحدة شريكا أكثر فعالية، قادرا على تحمل أكبر المسئوليات). أعلن بوش ذلك محذرا أوربا من الحمائية[١] (فكرة الحماية الاقتصادية).

وضحت فكرة انحراف أوربا الأطلنطى على كل المستويات: من الاقتصاد إلى الدفاع إلى الدبلوماسية.

أختير توقيت حرب الخليج بعناية لإجراء مفاوضات (الجات) (الاتفاقيات العامة حول الجمارك والاقتصاد)، قدس أقداس السوق العالمية، حين كان الأربيون مصطفين على جانب الضروريات الأمريكية. فقدت هذه الاتفاقيات يوما بعد يوم أرضا لحساب الأمريكيين، مسببة خسارة كبيرة للزراعة الأوربية، خصوصا الفرنسية والإيطالية. المعارضة الأمريكية للمساعدات المالية للحماية فتحت أبواب أوربا أمام المنتجات الزراعية الأمريكية.

مثال آخر: حيث استخدمت المملكة المتحدة هذه المرة كحصان طرواده [٢] للسياسة الأمريكية: منعت شركتان فرنسية وإيطالية من شراء شركة دى

(١) الحمائية: مذهب حماية الزراعة أو التجارة أو الصناعة من المنافسة الأجنبية بفرض رسوم جمركية عالية على السلع المستوردة أو تحديد الاستيراد من ناحية المواصفات أو الكميات المسموح بها. (المترجمة).

(٢) حصان طروادة: جواد خشبى هائل اختبأ اليونان القدماء فى باطنه ليدخلوا مدينة طروادة، ثم احتلوها. يدل التعبير على العدو الداخلى (المترجمة).

هافيلاند لصناعة الطائرات، بذريعة الدفاع عن المنافسة الحرة فى أوربا. أعاق المفتش البريطانى لورد بريتان الشركات الأوربية من تحقيق ما يسمح لها بمواجهة المنافسة لأمريكية.

تخطط المملكة المتحدة للعب هذا الدور على المستوى النقدى. فحصولها على الإعفاء من الدخول فى الاتحاد النقدى لدائرة اليورو، يتيح الفرصة لأن يستخدم الجنية الإسترلينى كهمزة وصل بين اليورو والدولار.

أما عن اليورو فى حد ذاته، فهو سيدخل فى فلك جاذبية المارك، ستكون دائرة المشاركين فيه البداية مختارة بعناية. سيقبل فقط هؤلاء الذين يستجيبون ل(معايير الاستقرار) التى حددتها بون. أكدت جريدة دى فيلت: (لن تتسامح ألمانيا مع أى مخالفة للمعايير الدقيقة للاستقرار التى يجب أن تمهد للسماح بالدخول فى الاتحاد النقدى). انذار واضح: الفقراء غير مسموح لهم بالدخول حتى يوافقوا على هذه (المعايير) القريبة جدا مما يفرضه (صندوق النقد الدولى). على العالم الثالث: تخفيض الميزانية الاجتماعية إلى الحد الأدنى، ضرائب قاسية، إلخ..

هكذا تقوم أوربا على درجتين من الدول. بالإضافة إلى ذلك فإنه فى هذه الأوربا يكسب العامل الألمانى خمس مرات ما يكسبه العامل البرتغالى أو اليونانى المثيل له فى الكفاءة - نقلا عن مدام سيمون فيل - ويخشى بقوة أن يؤدى اجتذاب الدول الثرية للكفاءات والعقول (مثل ما يحدث الآن مع دول العالم الثالث) إلى خلق عالم ثالث جديد داخل أوربا.

تلك هى النتائج التى ستعود على الشعوب، من إنشاء هذا التجمع الاقتصادى ذى الدرجتين.

كل النصوص التى اعتمدت فى ماستريخت، فى ١٠ من ديسمبر عام ١٩٩١، ليست سوى آمال. على سبيل المثال، لم تكتف بتخلية السياسة

الاجتماعية فى المملكة المتحدة من كل التزامات، لكن مر الأهم فى صمت: سياسة الأجور، الضرائب، الأسعار. لم تتم الموافقة إلا على بندين: العملة الموحدة والدفاع.

استهدف حلف شمال الأطلنطى منذ عام ١٩٤٩ عدوا واضحا: الاتحاد السوفيتى. وكانت كل الأجهزة العسكرية فى أوربا وفى الولايات المتحدة فى خدمة هذا الهدف الوحيد المحدد.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى واختفاء حلف وارسو، تبحث الولايات المتحدة عن ابتكار تهديد جديد لتبرير الإبقاء على جهازها العسكرى، على وجودها فى اوربا، وعلى دورها القيادى.

سمحت حرب الخليج بالانفجار ضد شيطان جديد، ليس فى الشرق لكن فى الجنوب، حدث هذا بابتكار وحش عسكرى، حتى قطرها متر ويصل مداها إلى عدة مئات من الكيلو مترات)، وهى المعلومة الغبية التى وشت بها مجلة علوم وحياة فى عددى يوليو عام ١٩٩٠ ونوفمبر عام ١٩٩١.

ترك هذا التغيير فى الأهداف هامشا كبيرا من الشك. حده الأعلى (قوات التدخل السريع) – لأى حادثة – مكان توجهها مجهول، لا يمكن معرفته، مجهزة حسب الحاجة، لسرح عمليات عسكرية فى صحارى ليبيا أو فى ثلوج سيبريا.

تعود نصوص ماستريخت إذن إلى حكمة السيد الأمريكى: اكتفت المادة الرابعة فى الفصل الخاص بالدفاع بشرح أن سياسة الاتحاد الأوربى (تحترم الالتزامات المتفرعة من اتفاق حلف شمال الأطلنطى، وأنها منسجمة مع سياسة الأمن والدفاع المقررة فى هذا الإطار).

يعتبر إعلان الـ UEO (اتحاد أوربا الغربية) أكثر تعبير أيضا. فهو يذكر أنه (سيظل حلف الأطلنطى الساحة الأساسية للتشاور بين الحلفاء (...)

بشأن التزاماتهم فى الأمن والدفاع طبقا لاتفاق واشنطن).

لا يمكننا انتظار شئ آخر من (أوربا)، فهى تكتفى بالخدمة كجندى إضافى فى الجيش الأمريكى فى الخليج.

المعطى الوحيد الثابت لفترة طويلة أخرى: ذلك الخاص بعدم الاستقرار المتنامى بين الشمال والجنوب، الذى يمضى على إثارة شبح (الغزو). ليس غزوا عسكريا لكنه غزو البؤس عن طريق الهجرة الكبيرة من المناطق التى ستصبح الحياة الاجتماعية فيها صعبة أكثر فأكثر، وهى التى هدمت بنيتها ودمرت بفعل قرون من الاستعمار، وبفعل المراكز الاستعمارية التى يمثلها صندوق النقد الدولى، أو البنك الدولى.

أوربا ذات الاثنتى عشرة دولة هى فى الواقع نادى قدامى المستعمرين. كلهم موجودين فيها : الرواد (البرتغال وإسبانيا)، والسادة القدامى للإمبراطوريات الكبيرة (بريطانيا العظمى، فرنسا بلجيكا، هولندا)، وآخر القادمين (ألمانيا وإيطاليا).

كلهم باستثناء اليونان ولوكسمبرج. إنه لشئ ذو مغزى أن اتفاقيات ماستريخت لا تضم حتى كلمة واحدة حول المشكلة الأساسية للعلاقات مع الجنوب.

كتب السيد شيسون المفوض الأوربى لعلاقات الشمال والجنوب منذ عام ١٩٨٩: (مصلحة قوى السوق اليوم لا توجه الشركات الأوربية نحو العالم الثالث، أخشى [...] أن يؤدى الاستقطاب حول البناء الأوربى، أو اللعب الحر لقوى السوق إلى التجاهل العريض للعالم الثالث لفترة من الوقت).

لن تكون أوربا الموحدة خطوة فى اتجاه وحدة العالم. إنها ستضاعف الانقسام.

يؤدى هذا التوجه الأوربى إذن إلى تفاقم المشكلة الكبرى لعصرنا على المستوى العالمى: تفاقم التفاوت بين شمال وجنوب الكرة الأرضية.

أعراض الانحطاط

ألا تجازف الولايات المتحدة بإدخال العالم إلى عصر الانحطاط، بسبب هيمنتها العالمية، ومحاولتها من خلال سيطرتها لفرض وحدانية السوق على العالم كله؟

لا يمكن أن يخضع مفهوم لأهوائنا الشخصية، فعندئذ سيصبح (منحطا) كل ما هو على عكس ما نعتقده. فعلى سبيل المثال، اعتبر شارل مورا الديموقراطية تجسيد الانحطاط.

لا يمكن أيضا تصور هذا المفهوم انطلاقا من التحليل العضوى لشيخوخة الجسد الإنسانى، أو بصورة أعلم على طريقة مونتسكيو، فى أسبابه التى أوردها عن (انحطاط الرومان) مثل تخلى أحد المجتمعات عن المبادئ التى صنعت عظمته.

أكثر من ذلك، لا يمكن تصور الانحطاط اعتمادا على مرجعية (العصور الذهبية القديمة) أو على أنه نقيض (للتقدم).

ترتكز كل هذه التعريفات على فروض لا يعتمد عليها فى تعريف التقدم والانحطاط.

الانحطاط هو قطع أواصر النسيج الاجتماعى، لتحويل المجتمع إلى ذرات، لتخريب العلاقات بين الجماعات القومية، الاجتماعية أو الدينية، وذلك عندما لا تعتبر وحدة العالم هدفا نهائيا وقاعدة كبرى.

يعنى الانحطاط على مستوى الفردى، الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ورفض أى مسئولية تجاهه، وعلى مستوى الجماعات، هو النزوع إلى السيطرة.

عبادة السوق والملكية المطلقة للمال تقود مجتمعاتنا - كل مجتمعاتنا - إلى الانحطاط وإلى الموت.

أصبحت السيطرة العالمية التى تمارسها الولايات المتحدة شاملة بعد حرب الخليج، وأصبح ما يحدث فى بقية العالم انعكاسا لحد ما لما يحدث فى الولايات المتحدة. وإذا استسلمنا لذلك، فسوف نتحرك جميعا تجاه عالم الفساد تمثل الولايات المتحدة كل أعراض الانحطاط، وبصورة أكثر عمقا من الانحطاط الرومانى، وذلك بقيامها بالآتى:

- تفكيك النسيج الاجتماعى من خلال تراجع المسئولية الجماعية لصالح الأنانية واللامبالاة.

- تفكيك مستقبل المجتمع، بسبب محاولة الاستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل، باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعى بالأهداف النهائية الكبرى.

الغاية فى مواجهة الجماعة:

تتفكك الحضارة بتراجع المسئولية وازدياد التفاوت بين الناس. كان التفاوت متفاقما فى عصر انحطاط أثينا، وبصورة أكبر فى روما.

التعبير الحديث عن هذا التراجع فى الإخلاص للوطن أمام المصالح الخاصة، هو عدم قدرة البلاد ثراء فى العالم على خفض ديون الدولة: (٤٠٠ مليار دولار) [1] (ثلاث مرات أكثر من كل دول العالم مجتمعة).

(١) تتمتع الولايات المتحدة بوضع استثنائى بين دول العالم، فديونها تمثل نسبة عالية جدا وقريبة من إجمالى ناتجها، ولا تنهار لأسباب خاصة متنوعة. وبالطبع، تحسن الوضع كثيرا بعد حرب الخليج.

عدم القدرة أيضا على إقناع الشعب بدفع الضرائب، وهو يعيش فى مستوى أعلى بكثير مما يملكه. خفضت كل حكومة أمريكية منذ ريجان من مساهمتها فى مجالات البرامج الاجتماعية والمصالح العامة.

المؤشر الثانى هو التهرب الضريبى، الذى يقدر بخمس ما يجب تحصيله. ولننظر إلى قضاة أمريكا: ارتفع عدد القضاة المهتمين بالتهرب الضريبى والفساد منذ عشر سنوات فقط من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٠ ليتجاوز عددهم خلال ال ١٩٠ سنة الأولى من تاريخ الولايات المتحدة!

ليس ذلك سوى أمراض اقتصاد السوق. امتصاص كل (القيم) وكل ما هو (اجتماعى)، وكل شئ يتم تسعيره وتقييمه حتى الجريمة. فالمال هو وقود كل حركة وهدفها، وعند هذا الحد قد تصبح الجريمة مفيدة. ظهر هذا على كل المستويات والمجالات حتى الدين. فقد صنع الإعلام من الدعاة نجوما تليفزيونية تتقاضى الملايين. فهنا حقا التجارة بالدين[1].

واقعيا، أصبحت الحقوق الأساسية للمواطن، من تعليم وإسكان ورعاية صحية سلعا تخضع للسوق كأى سلع أخرى. كتب فرانسوا بيرو: (إنها قيم يجب ألا نسمح بانحدارها إلى أى سوق [...] عندما يسيطر على كبار الموظفين، الجنود، القضاة، رجال الدين، الفنانين، هذا التفكير (البحث عن الربح الأكبر) فإن المجتمع يتصدع [..] تتحلل الرأسمالية [2]).

دخلت السياسة – التى من المفترض أن تنظم المدينة – إلى دوامة

---

(١) تم ضبط الداعية والقس الشهير سواجارات متلبسا مع بعض الفتيات الصغيرات فى أحد الفنادق، مما أدى لامتناعه عن الدعوة التليفزيونية. ثمن اكتشفت الشبكوة حجم الخسارة الكبيرة لها من اختفائه، فعاد ثانيا. أما القس جيرى فالويل، فهو يطوف أمريكا بطائرته الخاصة للدعوة، وقابل نيتنياهو ونصحه بالا يتخلى عن بوصة واحدة من أرض إسرائيل حتى يهبط المسيح بسلام.

(٢) الرأسمالية، مجموعة ماذا أعرف؟ PUF، ١٩٦٢.

التسويق: كل عمل له ثمن [١] حتى الحملات الانتخابية لأعضاء الكونجرس أو الرئاسة.

تفاقم التفاوت وعدم المساواة

يؤدى التفاقم فى التفاوت وعدم المساواة إلى انهيار المجتمع والحضارة. امتلك ستة من كبار الأثرياء الرومان نصف إفريقيا أيام نيرون، وفى أيام قيصر، كان هناك ثلث مليون رجل بدون عمل فى روما عاصمة الحضارة والإنسانية. ولذلك تصاعدت وتكررت ثورات العبيد.

هذا الاستقطاب المتنامى للثروة فى أيدى الأقلية الحاكمة، وللبؤس فى القاعدة، هو اليوم أحد الخصائص المهمة للمجتمع الأمريكى وللمجتمع الأوربى الذى فى طريقه إلى التحول للخط الأمريكى.

نقلا عن الأرقام الرسمية لمكتب الكونجرس للميزانية عن عقد الثمانينيات: (اتسعت الهوة بين الأمريكيين الأثرياء والفقراء خلال حقبة الثمانينيات، إذ يحصل ٢,٥ مليون من الأثرياء على دخل مساو لما يحصل عليه مائة المليون فى أسفل القائمة).

ويتصاعد طرفا سلم التعليم فى أمريكا، كما يتباعد طرفا السلم الاقتصادى. فهناك الجامعات ذات المصاريف الباهظة والتعليم العالى، يتكلف فيها من ٦٠ ألفا إلى مائة ألف جنيه سنويا، بينما يقبع فى القاع ما يقارب ٢٥ مليون أمى، و٤٠٪ من طلبة الجامعة لا يجيد القراءة الصحيحة، مما حدا بالمختصين فى حكومة ريجان إلى أن يعدوا تقريرهم الشهير (أمة فى خطر) بسبب سوء التعليم عند مقارنته باليابان وبعض دول أوربا.

---

(١) بلغ متوسط ما أنفقه عضو مجلس الشيوخ الفائز ٣.٤ مليون دولار، ومتوسط ما أنفقه من خسر العضوية ٢ مليون دولار. أما الرئاسة، فالأرقام تتجاوز البليون.

فى مجال الصحة، تضم الولايات المتحدة مستشفيات، عيادات، مراكز أبحاث من ضمن أفضل المراكز فى العالم، لكن نظامها الصحى سيئ للغاية: تصنف أمريكا فى المركز الثانى والعشرين على المستوى العالمى بالنسبة لوفيات الأطفال. يجئ حجم النفقات العامة على الصحة فى أقل المستويات بين دول ال OCDE.

يتولد عن ذلك التفاوت الكبير فى مستويات الدخل، ومن ثم الصحة والتعليم والإسكان، عنف هائل فى نيويورك. نقلا عن إحصائيات الشرطة، هناك فى المتوسط جريمة قتل كل أربع ساعات، اغتصاب كل ثلاث كل ثلاث ساعات، ويحدث هجوم كل ثلاثين ثانية. ولا تحتل نيويورك سوى المركز العاشر فى الجريمة بين المدن الأمريكية. فى الولايات المتحدة أكثر من مليون سجين، وأكثر من ٣ مليون عليهم أحكام بالرقابة. تلك هى نتيجة اقتصاد السوق المتوحش، حيث تسود، كما كتب هوبز من قبل: (حرب الكل ضد الكل). منطق سوق دون قيود، مع التنافس بين الأفراد والجماعات الذين لا يهدفون إلا إلى مصالحهم الخاصة، هو منطق الغابة.

التضحية بالمستقبل فى سبيل الحاضر

السبب الثالث للتدمير الاجتماعى – فى هذا الانحطاط – التضحية بالمستقبل من أجل الحاضر، وتتم التضحية بالحاضر فى سبيل أرباح البعض.

الهدف الرئيسى لما يسمى بالسوق الحرة هو الربح، والربح من أجل الربح. وهذا هو النقيض التام لما جاء فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)، وهو بالطبع النقيض التام لرسالة المسيح التى قامت على الزهد فى الدنيا ومحبة البشر ومحبة الله [١].

(١) حتى إنه امر من يريد اتباعه بلن يتبرع أولا ثم يتبعه. ويكفينا – فيما يخص الإسلام – أن نتذكر الآية التى تقول ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ (سورة الحديد آية: ٧).

وما دام الهدف الأول - إن لم يكن الوحيد - هو الربح، فلماذا لا تأخذ عمليات السمسرة ومضاربات البورصة والإقراض بالفائدة الصدارة، وتسبق كل عمليات الإنتاج؟ وتكتسب كل العمليات الطفيلية شرعيتها مادامت تحقق الربح، وتخلص العبادة للإله الواحد الأحد: المال.

النتيجة الثانية لنظام اقتصاد السوق هى الفساد. صحيح أن الفساد كان موجودا دائما فى الأنظمة المختلفة، ولكنه كان مرضا، أما فى اقتصاد السوق فهو جزء من النظام، يمكن أن تصبح له شرعيته بصورة أو أخرى.

ففى كل الأنظمة، الاستبداد بالسلطة يؤدى إلى سوء استخدامها، وإلى استغلالها لمصالح شخصية. لكن هذا الفساد ليس شرطا أو نتيجة ضروريه لتشغيل النظام. فهو انحراف.

ولكن العكس من ذلك يحدث فى نظام اقتصادى يتحكم فيه السوق ويصبح هو الحكم الوحيد للعلاقات الاجتماعية، يولد الائتمان بالفائدة المضاربة، وتولد المضاربة الفساد، الفساد فى قلب منطق النظام.

يلخص آلان جوتا، حجج هؤلاء الذين يدافعون عن (عقلانية الفساد)[1]، ويذهب إلى حد اعتبار أنه (فى اقتصاد السوق، يلعب الفساد فى مجملة دورا مناظرا للحظة).

(١) آلان جوتا. الرأسمالية فى كل أحوالها. دار نشر فايار، ١٩٩١.

ثقافة اللامعنى

الثقافة المنفصلة عن البناء الاجتماعي، تتبخر كليا. في أوربا، لعبت الثقافة والأيدولوجيات دائما دورا مهما في الحياة السياسية، كمثال على ذلك، في أوربا المسيحية، في عصر النور والثورة الفرنسية، قرون القوميات - القومية - أو الماركسية وثورة أكتوبر.

في أمريكا - فيما عدا المواطنين الأصليين الهنود حيث نظمت العلاقات الاجتماعية بينهم ثقافة عليا (مثل الحال عند الأنكا)، لكنهم أبيدوا بنسبة ٨٠٪ من خلال المذبحة الكبرى، طردوا، همشوا، وأخيرا تم إدخالهم إلى المفردات [١] - فيما عدا هؤلاء فإن كل البشر الذين يعمرون الولايات المتحدة اليوم هم من المهاجرين.

أيا كانت ثقافتهم وأصلهم الأول، فإن أكثرهم جاء أساسا بحثا عن المال. كان لدى كل منهم دينه وثقافته، أيرلنديون أو إيطاليون، عبيد زنوج جلبوا إلى أمريكا. مكسيكيون أو بورتوريكيون؛ لكن ليس هناك دين أو ثقافة مشتركة. الرابطة الوحيدة التي تجمعهم مشابهة لتلك التي تجمع الموظفين في شركة.

الولايات المتحدة الأمريكية، هي شركة للإنتاج يجمعها بصفة أساسية هدف واحد: الربح والمال. تعتبر كل هوية شخصية، ثقافية، فكرية أو دينية، شيئا خاصا، فرديا للغاية، لا يتداخل مع سير النظام.

(١) مفردة أرض محجوزة في بعض البلدان للسكان المحليين.

انطلاقا من مثل هذا البناء الاجتماعى، الإيمان، كمعنى للحياة، لا يمكن أن يعيش إلا داخل بعض الجماعات التى احتفظت بهوية ثقافتها القديمة، أو عند الأفراد الأبطال.

عند الغالبية العظمى من هذا الشعب، مات الرب وهم لا يعلمون، لأن الإنسان استغنى عن أبعاده الربانية: السمو والبحث عن المعنى. الساحة إذن خالية من أجل تكاثر الطوائف والخرافات، بكل أنواعها، وتظهر الدولة تسامحا خاصا إزاء كل ذلك.

كشف توكفيل الثاقب الفكر والمراقب الأول للولايات المتحدة عام ١٨٤٠ فى كتابة المشهور: (الديمقراطية فى أمريكا) عن الأساس لهذه الآلية: (لم أعرف شعبا يكن كل هذا الحب والولاء والمال)، شعبا هو (جماعة من المغامرين والمضاربين).

أكمل توكفيل: (يمكن لأمة ديمقراطية مماثلة للأمة الأمريكية تمهد الطريق للاستبداد والطغيان. سيصبح هذا الاستبداد والطغيان أكثر انتشارا وأكثر تركيزا (من الذى كان لأمراء أوربا)، يحط من قيمة البشر دون أن يؤلمهم).

هذه الكلمات لمحلل خارق، تعود إلى مائة وخمسين عاما.

أصبح الإعلام، سوقا ضخمة، أكثر اتساعا أيضا من سوق الصناعة والمال، وهو ما أسماه آلان كوتا (الرأسمالية الإعلامية)، مكملا (الثالوث المؤسس للتلاحم الاجتماعى).

أصبحت (الحقيقة) سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقا للهدف المطلوب. يعتمد الإعلام من الآن فصاعدا على دعم الإعلان، الذى يتحكم فى تمويل البرامج واختيار مقدميها.

بالنسبة لكبار ملاك الصحافة. ماردوخ، ماكسويل، فى فرنسا هيرسان، الإعلام هو سوق مثل الأسواق الأخرى، والحقائق تباع مثل المنتجات الأخرى

أيضا، أكبر ثلاث وكالات غربية للصحافة، رويتر، أسوشيتدبرس، فرانس برس، هى التى تفرز وتحدد للعالم كله ما يراه، وما لا يجب أن يراه، وبأى حجم وتركيز وتكرار.

تمهد المتعة السلبية لمرور الصور للتحول من الطفولة التليفزيونية إلى الشيخوخة السياحية. كما كتب مارك فورمارولى:

(التلفزيون هو سياحة فى المكان، والسياحة هى تلفزيون فى حالة حركة). الأمركة (الحياة على الطريقة الأمريكية)، وهى طليعة الانحطاط، فى انتظاركم بلغتها (Shopping - Sightseeing)

وكل الاستهلاك البصرى أو المالى للثقافة الجاهزة، من (ماكونالدز) إلى كوكا كولا).

السياسة الكبرى هى كيفية إعداد شعب إعداد جيدا للعبودية – من اليمين أو من اليسار – عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم فى سعادة وغفلة! وإذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون.

بيع مرشح الرئاسة وبيع معجون الأسنان:

يعتبر مظهر المرشح أكثر أهمية من مشروعه ومن حججه! منذ عام ١٩٧٧، استيعابا من دروس الانتخابات الأمريكية عام ١٩٧٦، كتب ميشيل نوار، عمدة ليون والطامح للرئاسة، فى كتاب رائد للسياسة الاستعراضية فى فرنسا: النجاح فى حملة انتخابية، هو اتباع النموذج الأمريكى! يمكن أن تقرأ فيه:

(إن هدف مسئول التسويق الذى يبيع معجون أسنان وهدف مدير حملة مرشح للرئاسة متطابقان: الإقناع بشراء منتجه أكثر من أى منتج آخر). وأيضا (إذا كان النجاح يستلزم أن يكون المظهر أهم من الجوهر، وإذا كانت

إجادة استخدام الوسائل الحديثة فى الاتصال هى شرطا أوليا للنجاح، إذن ستفتح المهنة السياسية أمام جيل جديد: جيل النجوم)..

من الآن فصاعدا، المهمة الأولى (للقائد) السياسى هى بناء صورته.

هكذا فتحت (سوق) جديدة لصناعة صورة عن طريق (مستشارين للاتصال). وتتكلف حملات الدعاية ملايين الدولارات، ومن يمولها ينتظر بفارغ الصبر ربحه من ذلك[1].

خلق اقتصاد السوق قوة جديدة (ديمقراطية) تتكون من الثلوث المقدس: رجال الحكم - رجال المال - رجال الأعمال.

***

فى مجتمع السوق، لم تبطل الصفة الانسانية فقط عن الفن، لكنها كذلك أصبحت سلعة فى (سوق الفن)، مثلما بيعت كل القيم بسعر السوق.

الإبداع الثقافى، والذى فيه يؤكد الإنسان ذاتيته، كمسئول عن تاريخه الخاص، أصبح إنتاجا ثقافيا خاضعا لقوانين كل إنتاج سلعى، بمعاييره لربح الشركة.

ما ظهر فى (السوق الثقافية) هو ما حدث فى مجمل الأسواق، وهو ما أسماه جالبريث (انقلاب السياق) لم يعد الهدف الرئيسى من الإنتاج هو إشباع الحاجات، التى تظهر نظريا فى السوق، لكن أصبح خلق الحاجات (وبالتالى أسواق) القابلة لزيادة الأرباح.

الهدف هو دمج الإبداع الثقافى فى النوذج الاقتصادى الكلاسيكى الإنتاج، التوزيع، الاستهلاك.

(١) جاء فى كتاب (داخل الكونجرس) لـ رونالد كيسلر أن الإنفاق على الحملات الانتخابية يصل إلى ٢٥ بليون دولار

الغالبية الساحقة من شركات الصحافة، والنشر، والسينما والمسرح، معارض اللوحات، التليفزيون، تسيطر عليها وتنظمها قوانين هذه الغابة.

لعبة المسابقات والجوائز الدولية:

يتبع النظام التعليمى قوانين الغابة، فعندما يكون الربح هدف المنشأة التعليمية، فهو الإله الذى لا يقبل شريكا.

وتقوم ألعاب المسابقات والجوائز الدولية بتشكيل أو العبث بالقيم وإفساد الفطرة الإنسانية. ويعمل السماسرة والمضاربون عملهم فى كل المجالات الفنون والآداب.

أسفرت سيطرة الربح على نشر الأعمال الفنية عن هذه النتيجة: حلت العملية التجارية الناجحة مكان العمل الفنى، يساهم النقد الفنى والإعلام على الترويج الذى لا غنى عنه من أجل التجارة باللامعنى.

قائمة بوبورج معبرة: (فضلات كلب موضوعة (بفن) على قطع زجاجية مختلفة الألوان!)، (جدار عليه نقش أثرى، على قاعدته قطع موكيت أصفر!)، (مشط ومجفف شعر معلقان فى السقف!).

هكذا تضاعفت (التكوينات) من أعواد الثقاب أو قعور القنينات المسماة بأسماء رنانة أطلقهاالنقاد المكلفون بالتسويق: فورتيسيزم، أورفيزم، جماعة الكوبرا، الفن الأنطولوجى [1]، إلخ.

الخروج على المألوف، هو المعيار الوحيد الذى يمكن أن يجذب زبائن اليوم، وأن يسمح بدخول إستراتيجية الإسراف إلى (سوق الفن، عبر عنها بوضوح أحد التجار: (يجب إدخال فكرة التغيير والتجديد للأعمال الفنية، بكل الوسائل. يجب أن نعلم هواة اقتناء اللوحات الفنية، كيف يلقون بها - بعد مدة - فى صفيحة القمامة، حتى تحل محلها أنواع جديدة!).

(١) مختص بعلم الكون. (المترجمة).

تولد الرغبة البائسة للهروب من مجتمع بلا معنى، نوعا من الجنون أو التدمير، أو على الأقل نسيان العالم وأنفسنا أيضا.

يكتب البانك على قمصانهم: لا مستقبل! إنها صيحة ومأساة التهميش المتنامية، بفعل امتداد نفوذ السوق على مجالات الحياة الاجتماعية، من تحويل الرياضة إلى سلعة بكل ما يلزمها من عمليات تجارية وخلق للنجوم، وجذب للمشاهدين، كما جذبت من قبل الإمبراطورية الرومانية المنحلة الدهماء.

هناك أيضا الكثير من الفنون التى طوقتها دوامة اقتصاد السوق. لاسيما أن الاستثمارات المطلوبة أكثر أهمية.

خطط عمالقة هوليوود لغزو أوربا والعالم، عن طريق الأسلوب الاقتصادى القديم للاحتكارات الكبرى: بالتكتلات، بالتملك، أو بالشراء الغامض لثانى أكبر شركة إنتاج فرنسية - يابانية - التى من الصعب معرفة فى أى خليط تمت إذابتها.

استخدم نفس المفترسين سلطة الدول: اتفاقيات بلوم- بايران فى عامى ١٩٣٦ و ١٩٤٥ التى منحت للفيلم الأمريكى نصيبه فى السوق.

قدمت عبر الأطلنطى الفكرة (الجديدة) بتجريد الفيلم، كذلك المسرح أو الرواية، ليس فقط من كل تساؤلات حول معنى الحياة، لكن من أى معان ذات قيمة.

(حداثة) وفن الـ (بوب) و (الرسم الحديث) و (الموجة الحديثة) و (الرواية الحديثة) وأيضا (الفلسفة الحديثة) - التى تتصف بانعدام الفلسفة - تعمل على محق إنسانية الإنسان فى كل مجالات الثقافة. أصبح هذا التغييب للإنسانية هو المعيار المهم (للحداثة).

فى كل المجالات، ومن أجل أسباب الهيمنة الاقتصادية، الهيمنة القصيرة جدا، فإن كل الثقافات الأوربية فى طريقها السريع إلى التحول إلى الطريقة

الأمريكية.

المثال الأكثر تحديدا والأكثر تأثيرا هو التلفزيون، بما أنه لا يتوقف عن عرض (المشاهير) و (العباقرة).

عثر أصحاب القرار في التليفزيون الأوربي على هذه الحجة الشديدة الغباء، في مواجهة تدفق الفيلم الأمريكي: ليس لإنتاجنا سوق في نفس حجم الغزاة، حتى يصبح إنتاجنا (مربحا) -دائما-! يجب أن يتم الإنتاج بلغة الغزاة،ونكتفي بمشاهدة أفلامنا الخاصة بترجمة مزدوجة.

حدث ذلك من قبل في الأغنية، حيث أطر الفنان من أجل (سوق الأسطوانة) - مرة أخرى - إلى التعبير باللغة الإنجليزية.

(واقعية) غريبة، للمهوسين بأمريكا، غير القادرين على التفكير خارج الغرب! ينسون أن ١٠٠٠مليون إنسان على الكرة الأرضية يتكلمون اللغة الصينية، ٣٠٠ مليون يتكلمون الإسبانية، ٢٠٠ مليون يتكلمون العربية.

التفاعل المشترك لهذه الثقافات وتلك الخاصة بنا لا يتطلب العبور من خلال اللغة الأمريكية، ولا معناه الركود، الذي هو كما رأينا ميراث لتاريخها.

غابة الصور عديمة المعنى، التي تتوالى في الأفلام الأمريكية، والتي تدخل بيوتنا في فوضى كاملة، تحول المشاهد إلى المستهلك للصور عديمة المعنى الإنساني.

ليس صحيحا أن (الجمهور يريد هذا)، وأن (الشاب يطلب هذا)، بل هم يكيفونهم لطلب هذا، لأنهم لا يقدمون لهم سوى (هذا)، وهم يجذبونهم إلى أسفل.

أعلن السيد هيرسان، المدير السابق لـ (لوسانك) - عبر القانون السائد - بكل وضوح: (أقول إن الفيلم جيد، أو البرنامج جيد، عندما يجلب

مشاهدين أكبر للإعلانات التى تصاحبه).

هكذا نشأت ديكتاتورية لقياس عدد المشاهدين للبرنامج، تحدد فى نفس الوقت أسعار الإعلانات والميزانية المخصصة للبرامج أعلن ألبير إنسالم، أحد منتجي برامج المنوعات على :TFI

(إذا قدمنا برامج عاليةالمستوى، انخفض عدد المشاهدين، فهم لا يفكرون. إذن لنتوقف عن لعب دور المعلمين).

عندما يخضع التليفزيون والإعلام لقوانين السوق، فهل ننتظر إلا السفاهة والتفاهة والسطحية؟ وعند التعرض للقضايا المهمة، هل ننتظر إلا التربيف والتزوير والانتهازية؟ دون أى شئ يمكن أن يساعدنا على فهم أحداث نهاية هذه الألفية الثانية، إلا فى جرعة عاجلة وبعد الحادية عشرة مساء..

مثلما حدث فى زمن انحلال الرومان وألعابهم للسيرك، نعيش مرة أخرى من جديد عصر (فساد التاريخ)، المتميز بالسيطرة التقنية والعسكرية الساحقة لإمبراطورية لا تحمل أى مشروع إنسانى قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ. استلزم الأمر حينذاك ثلاثمائة عام لبناء مجتمع إنسانى جديد

هذا الميلاد لعالم إنسانى، انطلاقا من (ما قبل التاريخ) الحيوانى والذى عدنا لنعيش فيه، لم يكن ليولد إلا من الوعى، على مستوى الشعوب، من سوءات وحدانية السوق وأنبيائها المزيفين.

كتاب فوكوياما، المستشار فى الإدراة الأمريكية، حول نهاية التاريخ، هو التعبير النوذجى لما أسميه (أعراض ٩٢). إنه نموذج لأيديولوجية تبرير (الفوضى العالمية الجديدة).

تعلن (فلسفته التاريخية) النتيجة منذ الصفحة الأولى (يمكن للديمقراطية الليبرالية أن تتضمن الحالة النهائية للتطور [...]، نهاية التاريخ).

النظرية الكلاسيكية للرأسمالية الأنجلوساكسونية التى أسسها (الرغبة فى الإنتاج من أجل الاستهلاك)، والتى قادت - نقلا عن فوكوياما - إلى (منطق الطبيعة الحديثة)، لم تعط هذه النظرية كما قال، (الحلقة الناقصة) فى السلسلة بين الليبرالية والديمقراطية).

صنع إذن نظرية تنكرية للمبادئ المحركة للنظام: تنافس الغابة. استعاد التقسيم الثلاثى للروح نقلا عن أفلاطون: الشهوات المادية، التى اسماها (رغبات)، (العقل)، لكنه لاالعمل التقنى و ـ Iethumos لازمته ـ، الذى يمكن أن نترجمه فى سياق كتابه (بالرغبة فى القوة)، وهو عند أفلاطون طبقة المحاربين حراس النظام.

ضمان غريب من أجل (ديمقراطية ليبرالية)! وضع فوكوياما إسبرطة أكثر الملكيات الطبقية عنفا بين عداد الجمهوريات!

المرجع الثانى: مكيافيللى، الذى حرر السياسة من كل القيم السامية.

المرجع الثالث: هيجل، الذى جعل التاريخ يبدأ بكفاح حتى الموت من أجل (المعرفة)، سند ميتافيزيقى لسيطرة السيد على العبد.

أخيرا، نيتشه، الذى رأى فيه فوكوياما إثباتا للأسياد (الذين لا يخشون المخاطرة بحياتهم من أجل السيطرة).

أبطال فوكوياما المفضلون، مكللون بالعرابة النبيلة، يعنى هذا هؤلاء الذين نجحوا فى الارتفاع فوق الآخرين: فورد، كارينجى، بوش، يلتسين... فاته أن يذكر أيضا طرازان، جيمس بوند، ورامبو.

بالطبع لم تجعل (فلسفة التاريخ) هذه أى مكان للحضارات غير الغربية لكى يقيم الدليل على أن نظام (الديمقراطية الليبرالية) يمكن أن يحتمل ضعفا مؤقتا، لكن ليس تناقضات أساسية، تجنب فوكوياما التذكير بأنه ليس من العالمية: إذا ما كان للعالم الثالث - أربعة أخماس العالم فى الحقيقة -

نفس مستوى المعيشة، ونفس معدل الاستهلاك مثل الغربيين، إذن لنفذت مصادر الثروة في الأرض خلال جيل واحد!

العالم في فلسفة التاريخ عند فوكوياما، هو مثل الأرض قبل جاليليو وكوبرنيك: الغرب هو المحور، وكل الباقي يدور حوله.

أيضا، في فصل كتابه المعنون: (أحرار لكن غير متساوين)، أخفى الأساس: حرية الغابة، التي تستبعد المساواة بين الأقوياء والضعفاء ولا تتوقف عن تعميق الفرق، ليس بالمصادفة لكن عن طريق مبادئها.

ذلك هو البيان النظري لوحدانية السوق والسيطرة الأمريكية.

كشف عام ١٩٩٢عن الفشل المزدوج للحضارة الغربية، في نموذجها السوفيتي الذي قاد نظام تعسفي، وفي نموذجها الأمريكي الذي أعادنا إلى الغابة. يستلزم ذلك – وهو سؤال للبقاء على الحياة الإنسانية - أن نسأل أنفسنا حول أخطاء تحول الغرب، أن نسأل عن وسائل وغايات الغرب، وانحراف النهضة في القرن السادس عشر، وعن اختيار الأهداف النهائية في القرن الرابع، مع تحريفات (القسطنطينية) للمسيحية واستغلالها كنظرية للسيطرة.

المشكلة الأكثر عمقا والأكثر أهمية للمستقبل هي تلك الخاصة باختيار الأهداف النهائية، أي أنها مشكلة دينية. أو بالأحرى مشكلة إيمان. لأن الأديان وحدها تبحث وتجيب عن الأهداف النهائية للحياة.

لم ينجح النظامان الاجتماعيان في الشرق والغرب، لا الأول ولا الثاني، في الإجابة عن هذه الأسئلة الخاصة بالأهداف النهائية: فشلت الرأسمالية لأنها لا ترى أي هدف سوى النمو الكمي لإنتاج السلع والخدمات وأرباحها(١).

---

(١) بول صامولسن – جائزة نوبل – كتب (السوق فعال، لكنه ليس له عقل ولا قلب) (إل باي. ١٥ من أكتوبر عام ١٩٩١).

وفشلت اشتراكية الدولة فى نموذجها السوفيتى. اتخذت لنفسها هدفا، لكن اتضح أنها غير قادرة على الوصول إليه بالوسائل التى استخدمتها[١].

ولدت كل منهما على نفس التربة الثقافية الغربية. اشترك النظامان فى اليقين الزائف نفسه، الصادر من غرور النهضة، وهو أن (العلم) التجريبى والرياضى يمكن أن يجيب عن كل المشكلات ويحلها. الوسائل التى خلقها ستضمن السعادة.

فشل العلم التجريبى فى ذلك، مثلما فشل على الاجتماع الوضعى. أفلست هذه الفرضية الأولى، مثلما فشلت فى أن تحل محل الأخلاق. وبالطبع فشل العلم التجريبى والتكنولوجيا فى أن يقودا وحدهما الإنسانية بنجاح.

هكذا، ولد نوع جديد من البشر: الإنسان المبرمج ويعنى هؤلاء الذين يشبهون العقول البشرية بالكومبيوتر، متناسيين أن خاصة الإنسان هى طرح الأسئلة النهائية، وقبلها أسئلة لماذا وما الأهداف النهائية.

الأكليروسية العلمية والتكنوقراطية لديانة الوسائل تسخر طاقات كونية هائلة رغبات حيوان فى الحصول على الحشرات الضارة!

سيكون إذن هو التحول التاريخى الأخير لإنسان جاوة المنقرض.

مازالوا يطرحون نفس السؤال: (هل يستطيع الكومبيوتر أن يحل مكان العقل البشرى)؟ سؤال مبهم، لأنه لا يتلائم مع الفروق الجوهرية بين الوسائل والأهداف النهائية.

ليس هناك حد يمكن تعيينه لقدرة الكومبيوتر على الحلول مكان العقل البشرى ليعطيه القدرات، الوسائل، وحتى الأهداف الوسيطة من أجل الوصول إلى أى هدف. الشئ الوحيد الذى لا يستطيع أن يفعله، هو أن يعين لنا الأهداف النهائية.

(١) وهى أيضا لم تر هدفا نهائيا أبعد من الأرض.

حدوده فى حدود العقل العلمى والتقنى، أيا كان العقل لجاليليو، أو لنيوتن أو لأينشتين.

لا يعنى الأمر أبدا مشكلة نستطيع حلها بمزيد من الإصلاح لوسائلنا وجعلها أكثر فعالية، مشكلتنا هى أن نتساءل حول أهدافنا.

كان هذا التساؤل حول الأهداف النهائية منذ بداية الإنسانية هو من عمل الأديان، التى جاءت لتلبى حاجة أساسية للبشر. ليس للحيوانات الموجهة بغرائزها الثابتة أن تطرح مشكلة النهايات والمعانى. ولد مع الإنسان الشك حول المستقبل، معنى الحياة، الموت، وما بعد الموت.

إذا كان هذا التساؤل حول النهايات هو خاصية الأديان، فلماذا لم تستطع الأديان الكبرى الحالية، خصوصا تلك الأكثر انتشارا فى الغرب المسيطر، المسيحية، وبصفة خاصة الكاثوليكية، أن تطرح هذه الأسئلة وتساعد على الإجابة عنها؟

لأنها متصلة بثقافة وحيدة، حرفتها وأفسدتها التصور المنغلق على فكر أرسطو، ثم التصور المنغلق للإله العلى القدير فى الكتاب المقدس، ثم التصور المنغلق للنهضة - الذى أفسد حتى معنى الإنسان - التصور الذى قبل فى صمت لفترة طويلة، لكنه أدمج أخيرا، فى (الحداثة)، بمعنى أولية العلوم والتقنيات من أجل معايرة الحضارات الأخرى، وتلك هى الإسهامات (المسيحية) فى (أخطاء التوجه) للغرب الذى أصبحت تنتسب إليه

لم تستطع المسيحية إذن أن تعيد تشكيل الحضارة الغربية التى تعتبر نفسها كـ (نموذج الحداثة)

آليات التضليل الإعلامى لأمريكا
التضليل الإعلامى والوعى المعلب
أساطير خمس تؤسس المضمون:

(١) (أسطورة الفردية والاختيار الشخصى):

يتمثل أعظم انتصار أحرزه التضليل الإعلامى، وهو ما يتجلى فى أوضح صوره داخل الولايات المتحدة، فى الاستفادة من الظروف التاريخية الخاصة للتطور الغربى من أجل تكريس تعريف محدد للحرية تمت صياغته فى عبارات تتسم بالنزعة الفردية. وهو ما يمكن المفهوم من أداء وظيفة مزدوجة. فهو يحمى حيازة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج من ناحية، وهو يطرح نفسه فى الوقت ذاته بوصفه حارسا لرفاهية الفرد، موحيا - إن لم يكن مصرا - بأن هذه الأخيرة لا يمكن بلوغها إلا فى وجود الأولى. وفوق هذا المعنى أو التفسير المركزى يتم تشييد هيكل كامل من التضليل الإعلامى. فما الذى يفسر قوة هذا المفهوم المسيطر؟

إن هناك من الشواهد ما يكفى للقول بأن حقوق الفرد المطلقة ليست سوى أسطورة، وبأنه لا يمكن الفصل بين الفرد والمجتمع. (فبدايات الحضارة)، على حد قول كرماكس بيركرفيتش وكما لاحظ آخرون - (تمتد جذورها فى التعاون والاتصال). ومع ذلك فإن أساس الحرية، كما فهم فى الغرب، يتمثل فى وجود اختيار شخصى جوهرى. ولقد تم التشديد على الاختيار الشخصى إلى أبعد مدى بوصفه شيئا مرغوبا فيه للغاية وقابلا للتحقيق. وليس هذا الرأى بالشئ الحديث. فالتوحيد بين الاختيار الشخصى والحرية الإنسانية يمكن ملاحظته منذ ظهر جنبا إلى جنب مع فردية القرن

السابع عشر، بوصفهما نتاجا لاقتصاد السوق الناشئ حديثا.

وخلال مئات السنين نجحت الملكية الفردية، متحالفة مع التحسينات التحسينات التكنولوجية، فى زيادة معدلات الإنتاج وبالتالى أضفت قدرا كبيرا من الأهمية على الاستقلال الشخصى فى العمليات الصناعية والسياسية واكتسب الرأى القائل إن الحرية هى مسألة شخصية، وإن حقوق الفرد تبطل حقوق الجماعة وتوفر أساس التنظيم الاجتماعى، اكتسب المصداقية مع ظهور المكافآت المادية ووقت الفراغ. لاحظ مع ذلك أن هذه الشروط الحياتية لم يجر توزيعها بالتساوى بين كل طبقات المجتمع الغربى. وأنها لم توجد أصلا حتى الآن فى بقية أنحاء العالم.

ويبدو أن نجاح تلك الطبقة الجديدة من منظمى المشروعات الرأسمالية قد أكد فاعلية وجاذبية التغيرات المؤسساتية. فالاختيار الفردى واتخاذ القرار بشكل شخصى كانا، فى ذلك الوقت، نوعين من النشاط الوظيفى. باعين ومفيدين فيما يتعلق بتحقيق معدلات إنتاج أعلى، وكفاية إنتاجية متزايدة، وأرباح مرتفعة لوحدة المشروع. وساعد البرهان الدامغ الخاص بالتطور الاقتصادى والإنتاج الإجمالى المتزايد فى أوروبا الغربية، على رسوخ وازدهار الدعاوى النفعية المتعلقة بالفردية/، والاختيار الشخصى، والتراكم الخاص

وفى الولايات المتحدةالمستوطنة حديثا، لم تقم عوائق تسحق الذكر أمام فرض نظام المشروع الرأسمالى الخاص والفردى، بأسيطر المصاحبة حول الاختيار الشخصى والحرية الفردية، ووجد المشروع الخاص والأسطورة كلاهما مناخا منفتحا ومواتيا. وكان من المحتم بالتالى أن ينمو المشروع الخاص، وأن تتعزز الأسطورة، ويتضح فى الوقت الحاضر إلى أى مدى تحقق ذلك كله فى القبول العفوى العام، للشركات العملاقة المتعدد الجنسيات على أنها مثال للجهد الفردى. ففرانك ستانتون، على سبيل المثال وكان يشغل حتى وقت قريب منصب نائب رئيس (CBS) أهم مجموعة شركات

للإرسال الإذاعي والتليفزيوني في أمريكا - يعترض على حق الأمم المتحدة في تولي عملية إنشاء نظام عالمي للاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية، بالرغم من أن نظام الأقمار الصناعية سيوفر إمكان بث البرامج مباشرة إلى أي بيت في أي مكان في العالم. ويزعم ستانتون (أن حق الأمريكيين في التحدث إلى من يشاؤون في أي وقت يشاؤون، سيتم إهداره) (من خلال هذا النظام للاتصالات). والواقع أن ما يهم ستانتون هو حقوق شبكة (سي بي إس) فيما يتعلق بالاتصال بمن تشاء. أما المواطن الأمريكي العادي فلا يملك الوسيلة، ولا التسهيلات المطلوبة للاتصال عالميا على أي نحو ملموس.

إن الطابع الخصوصي privatism في كل مجالات الحياة هو الأمر العادي والطبيعي في أمريكا. ويعكس أسلوب الحياة الأمريكية، بدءا من أدق تفاصيلها حتى أعمق معتقداتها وممارستها الشعورية، يعكس- تحديدا - نظرة إلى العالم مكتفية بذاتها، وتمثل بدورها انعكاسا دقيقا لبنية الاقتصاد ذاته. فالحلم الأمريكي يقوم على وسيلة الانتقال الخاصة، والمنزل المستقل للأسرة، والعمل في مشروع لا يملكه الغير. كذلك تمثل بقية العادات الأخرى، بوصفها نظاما تنافسيا صحيا، سمات مميزة واضحة، إن لم تكن طبيعية، للاقتصاد القائم على الملكية الخاصة.

في مثل هذا الجو يصبح متوقعا أن تحقق أي تغيرات، أيا كانت طبيعتها، من خلال وسائل تنظيمية ذات طابع فردي ومملوكة ملكية خاصة. ففي مواجهة تفسخ الحياة المدنية يبقى استغلال الأرض حقا فرديا. ومع تطور الاتصالات الفضائية، في الستينات، وتوافر إمكان الاستخدام الالي في التخاطب الاجتماعي الدولي، عهد إلى (كومات) وهي مؤسسة خاصة، لها ثلاثة مديرين معينين من قبل الحكومة لزوم جذب الأنظار، بهذه المسؤولية العالمية. ورغم أن بعض المناطق في جنوب كاليفورنيا تتعذر فيها الرؤية عمليا، وعلى الرغم أن سحب الدخان جاثمة دائما فوق معظم المدن الأمريكية، فإن

اقتصاد البلاد يظل مرتبطا بخطوط الإنتاج فى ديترويت، وبتلك الصورة البهيجة للأسرة ذات السيارات الثلاث.

على الرغم أن الحرية الفردية والاختيار الشخصى هما أقوى حصون (نظام الملكية الخاصة والإنتاج الخاص) الأسطورية، فإن هذا النظام يطلب ويبتدع المزيد من التفسيرات جنبا إلى جنب مع الوسائل التقنية اللازمة لنقلها. وتؤدى هذه الأفكار إما إلى إضفاء طابع عقلانى على وجود هذا النظام، وإلى التبشير بمستقبل عظيم، وإما إلى تحويل الأنظار عن نقاط ضعفه المتفاقمة، وحجب احتمالات أى انطلاقة جديدة نحو التطور الإنسانى. والواقع أن بعض هذه التفسيرات والوسائل التقنية، ليس مقصورا على النظام الصناعى ذى النزعة الفردية، بل تقبل التطبيق فى أى نظام اجتماعى يصر على الحفاظ على هيمنته. على أن هناك أساطير أخرى، والوسائل اللازمة لترويجها، ترتبط ارتباطا وثيقا بالسمات النوعية المتميزة لهذا النظام الاجتماعى.

(٢) أسطورة الحياد:

لكى يؤدى التضليل الإعلامى دوره بفاعلية أكبر، لابد من إخفاء شواهد وجوده. أى أن التضليل يكون ناجحا عندما يشعر المضللون بأن الأشياء هى على ما هى عليه من الوجهة الطبيعية والحتمية. بإيجاز شديد نقول إن التضليل الإسلامى يقتضى واقعا زائفا هو الإنكار المستمر لوجوده أصلا.

وعلى ذلك فلابد من أن يؤمن الشعب الذى يجرى تضليله بحياد مؤسساته الاجتماعية و الرئيسة. لابد من أن يؤمن الشعب بأن الحكومة والإعلام والتعليم والعلم بعيدة جميعا عن معترك المصالح الاجتماعية المتصارعة. وتبقى الحكومة، والحكومة القومية بوجه خاص، بوصفها ركيزة أسطورة الحياد. فهذه الأسطورة تفترض مسبقا الاقتناع الكامل باستقامة وعدم تحزب الحكومة بوجه عام، وعناصرها المكونة: الكونجرس، والنظام القضائى، والرئاسة. وينظر إلى وقائع الفساد والغش والاحتيال – عند

حدوثها من وقت لآخر – على أنها نتيجة مترتبة على الضعف الإنسانى. أما المؤسسات نفسها فهى بعيدة تماما عن المؤاخذة. ويتم التأكيد على سلامة وصحة النظام فى مجمله من خلال الآليات المصممة جيدا، والتى تشمل الأوضاع فى مجملها.

فالرئاسة، على سبيل المثال، بعيدة تماما عن مجال المصالح الخاصة طبقا لهذه الأسطورة. وبالتالى فإن أول وأقصى استخدام مضلل للرئاسة هو الزعم القائل ببعدها عن الحزبية، وإظهارها بمظهر ينأى بها تماما عن الصراع المحتدم. ففى انتخابات ١٩٧٢ مورست الحملة الانتخابية للمرشح الجمهورى تحت رعاية، وفى ظل شعارات (لجنة إعادة انتخاب الرئيس)، وليس المخلوق البشرى ريتشارد م. نيكسون.

فالمسؤول التنفيذى الأول لا يمثل، على رغم كونه أهم مسؤول، سوى جهة إدارية واحدة من إدارات حكومية عديدة، تسعى جميعها إلى الظهور بمظهر الأداة الوظيفية المحايدة، والتى لا تبتغى سوى المصلحة العامة، والتى تخدم الجميع بلا تحيز ولا محسوبية. ولقد شاركت وسائل الإعلام على اختلافها، لمدة نصف قرن، فى الترويج لأسطورة المباحث الفيدرالية (FBI) بوصفها وكالة لاسياسية عالية الكفاءة لتنفيذ القانون. إلا أن جهاز المباحث استخدم فى الواقع، طوال الوقت، فى إرهاب وتطويق أى سخط اجتماعى.

كذلك يفترض أن أجهزة الإعلام تتسم بالحياد. صحيح أن الصحافة نعترف بأن العديد من التحقيقات الصحفية لا يتوخى الإنصاف والموضوعية، إلا أنها تؤكد لنا على أنها نتيجة للخطأ الإنسانى لا يمكن أن تفسر على أنها عيوب جوهرية فى نظم نشر المعلومات السليمة بصفة أساسية. اما حقيقة أن وسائل الإعلام (الصحافة، والدوريات، والإذاعة والتليفزيون) هى جميعا وبلا استثناء مشروعات تجارية، تتلقى دخولها من الاستغلال التجارى لـ [illegible]احاتها الزمنية، أو المكانية لمصلحة الإعلانات، فمن الواضح أنها لا تثير أى مشكلة

بالنسبة لهؤلاء الذين يدافعون عن موضوعية ونزاهة الهيئات العاملة فى حقل الإعلام. وفى فترة رئاسة نيكسون تزايدت حدة الانتقادات الموجهة لوسائل الإعلام، لكن بسبب أن ميولها لم تكن يمينية بالقدر الكافى.

أما العلم الذى اندمج أكثر من أى نشاط ذهنى آخر فى اقتصاد المؤسسات العملاقة متعددة الشركات، فيواصل هو الآخر الإصرار على حياده القائم على استقلاله القيمى. ويعزز العلم، الذى يأبى أن يأخذ بعين الاعتبار المعانى التى تتضمنها طبيعة المصادر الممولة لنشاطه، واتجاهات أبحاثه وتطبيقات نظرياته والطابع المميز للنماذج التى يخلقها، يعزز الفكرة القائلة بانعزاله عن القوى الاجتماعية المؤثرة فى كل الأنشطة الأخرى الجارية فى البلاد.

كذلك يزعم المضللون أن نظام التعليم، بدءا من مرحلته الابتدائية حتى مستوى الجامعة، يخلو تماما من أى غرض أيدولوجى مقصود. ومع ذلك فلابد من أن يعكس الناتج النهائى للعملية التعليمية ما تم تعلمه: ويدهش المرء حين يجد أن أغلب خريجى المراحل التعليمية المختلفة يظلون - على رغم كل تلك الضجة المثارة حول الثقافة المضادة - على إيمانهم وتقيدهم بالأخلاقيات التنافسية للمشروع الفردى.

وحيثما نظر المرء فى الحقل الاجتماعى، فسيجد أن الحياد والموضوعية، يتم اللجوء إليهما لوصف الأداء الوظيفى للأنشطة المحملة بقيم وأغراض محددة، والتى تقدم الدعم للنظام المؤسساتى السائد. ومن العناصر التى لاغنى عنها للحفاظ اليومى على نظام السيطرة، تلك الأسطورة التى تحظى برعاية فائقة والتى تقول بأنه لا سيطرة لأى مجموعات أو آراء خاصة على عمليات صنع القرارت المهمة فى البلاد. ولقد ظل علم الاقتصاد يردد لفترة طويلة الزعم القائل، بأن كل العملاء يدخلون السوق متساوين تقريبا بوصفهم مشترين وبائعين، عمالا وأصحاب عمل، وأنهم يأخذون فرصهم فى مجال تنافس غير مقيد يقوم على الحرية الكاملة فى الاختيار. ويمثل التضليل (أو

التلاعب) بالنسبة لاقتصاديات السوق نوعا من الانحراف يمقته كل إنسان، ويبذل أقصى جهده للتخلص منه عادة من خلال عدم الإقرار به. وفى سوق الأفكار، يصر المضللون، على النحو نفسه، على إنكار وجود أى أيديولوجية تعمل بوصفها آلية سيطرة. فهناك فقط، على حد زعمهم، سلسلة من المعارف القائمة على حقائق أو معلومات، ينتقى منها العالم المحايد، والمدرس، والموظف الحكومى، والفرد العادى أيضا، ذلك القسط من المعلومات الذى يتلاءم أكثر مع نموذج أو نمط الحقيقة التى يحاول أو تحاول تكوينه. ولقد نشر (دانيل بيل)، فى بداية أحد أكثر عقود الصراع الاجتماعى (والسيطرة القائمة على التضليل الإعلامى) إثارة فى تاريخ الولايات المتحدة، كتابا يعلن (نهاية الأيديولوجية).

(٣) أسطورة الطبيعة الإنسانية الثابتة:

يمكن القول: إن التمنيات الإنسانية تسهم بشكل ملموس فى شحذ التغيير الاجتماعى. وعندما تكون تلك التمنيات متواضعة، فإن السلبية تسود. ومن الممكن بطبيعة الحال أن توجد ألوان مختلفة من التصورات فى ذهن أى فرد حول الحقائق السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، التى يتبناها الناس للطبيعة الإنسانية. تؤثر ماهية الطبيعة الإنسانية كما يفهمها الناس، تؤثر فى النهاية فى الطريقة التى يتصرفون بها، ليس نتيجة لأنه يتعين عليهم أن يتصرفوا على هذا النحو، ولكن لأنهم يعتقدون أنه يتوقع منهم أن يتصرفوا على هذا النحو. ويصور أحد الكتاب ذلك المعنى على النحو التالى: (لا ينفصل السلوك الإنسانى عن النظريات المتعلقة بالسلوك الإنسانى التى يتبناها الناس.. فما نؤمن به من أفكار فيما يتعلق بالإنسان يؤثر على سلوكنا الإنسانى، وذلك لأنها تحدد ما الذى يتوقعه كل إنسان من الآخر.. إن الإيمان، أو الاعتقاد يساعد على تشكيل الواقع الفعلى).

ومن المتوقع تماما أن تجد النظرية، التى تؤكد على الجانب العدوانى فى

السلوك الإنسانى، وعدم قابلية الطبيعة الإنسانية للتغير، استحسانا وقبولا فى الولايات المتحدة، وأن تستوعب قدرا كبيرا من الجهد والفكر، وأن يتم نشرها على نطاق واسع من خلال وسائل الإعلام. فمن المؤكد أن الاقتصاد المبنى على الملكية الخاصة والحيازه الفردية، والمعرض دائما للصراعات الشخصية، والاجتماعية التى تفرضها هذه الأوضاع، سيسر كثيرا بمثل هذا التفسير الذى يضفى المشروعية على مبادئه الأساسية المؤثرة فى الواقع. فكم هو مطمئن أن ينظر إلى هذه العلاقة القائمة على الصراع على أنها كامنة فى الوضع الإنسانى، وليست مفروضة نتيجة لظرف اجتماعى. إن هذه النظرة تتلاءم إلى أقصى حد مع الموقف المناهض للأيديوجية الذى يخطط له النظام. فهذه النظرة يتلوها تناول (علمى) و(موضوعى) للشرط الإنسانى، تناول يقوم على القياس الصارم للسلوكيات الصغيرة فى كل انحرافاتها الأخلاقية، بينما يتجاهل فى أغلب الأحيان المتغيرات الاجتماعية الأكثر عمومية، واتساعا، والأقل قابلية للقياس.

ويبرر المسيطرون على وسائل الإعلام، على سبيل المثال، ما تحفل به برامج التليفزيون من جرائم قتل لا تقل يوميا عن نصف دستة، بالقول: إنهم يحاولون بذلك أن يقدموا للناس ما يحبونه. ثم يخبروننا، وهم يهزون أكتافهم بلا مبالاة، أن الطبيعة الإنسانية تتطلب - للأسف الشديد - ثمانى عشرة ساعة يوميا من الإيذاء والقتل.

إن كتابات المؤلفين الذين يفشون النزوع الإنسانى للعدوان والنهب برده إلى السلوك الحيوانى تلقى سوقا شديدة الرواج. حسنا... ولم لا؟ إن المرء لا يستطيع أن يتجنب أن يصادف يوميا، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سلوكا لا يمت بفظاعته للأنسانية بصلة. فكيف يفسر (حلالو عقد) اقتصاد السوق هذه الثقوب الواضحة فى النسيج الاجتماعى؟ الواقع أن المتحكمين فى الوعى ليسوا فى حاجة إلى أن يصوغوا بشكل مقصود، تفسيرات تؤدى ؟إلى

تبلد الإدراك وتخفيف الضغوط المطالبة بالتغيير الاجتماعى. فالصناعة الثقافية، التى يقوم نشاطها على المبادئ التنافسية التقليدية، توفر من جانبها أى عدد من النظريات المفسرة. وتتكفل أجهزة الإعلام بإمكاناتها الآلية الهائلة بأن يحصل الشعب على (فرصة) قراءة، وسماع، ومشاهدة كل ما يتعلق بأحدث نظرية تربط الجريمة المدنية بسلوك التزاوج عند الحيوانات آكلة اللحوم.

ولقد أعربت مجلة(فورشيون) Fortune، على سبيل المثال، عن سرورها بأن بعض العلماء الأمريكيين أكدوا مرة أخرى على (عدم قابلية الطبيعة الإنسانية للتغير)، فى معرض تفسيرهم للظواهر الاجتماعية. وتذهب المجلة إلى أن (النظرة التقليدية للبيئة، بوصفها المؤثر ذا الأهمية المحورية فى سلوك الناس، ينتج عنها فى الوقت الحاضر إدراك جديد لدور العوامل الوراثية. ويفسح الحماس لوضع خطط جديدة، من أجل إصلاح المجتمع، من خلال إعادة تشكيل البنية الوراثية للإنسان، المجال أمام الفهم الصحيح لاستعصاء الطبيعة الإنسانية على التغير).

وتتمثل النتائج الاجتماعية النهائية للفرضية القائلة: بأن الطبيعة الانسانية تقوم على الخطيئة فى المزيد من التخبط، والافتقار الكامل للقدرة على معرفة أسباب الداء - وبالتأكيد انعدام القدرة على اتخاذ أى خطوة لعلاجه - وأخيرا تتمثل النتيجة الأكثر أهمية فى استمرار الالتزام والتنفيذ بالوضع القائم. إنها باختصار تمثل الرفض، أو النقيض لما أسماه أحد الكتاب (الطبيعة الإنسانية للطبيعة الإنسانية).

إن الاعتقاد بأن عدوانية الإنسان، أو نزعته التوسعية تمثل أشياء كامنة فى طبيعته الحيوانية يؤدى بنا إلى الخلط بين بعض الناس، وكل الناس، بين المجتمع المعاصر، وكل المجتمعات المقبلة. كما يؤدى، من خلال عملية تحويل بارعة، إلى تبرير ما هو قائم على أنه ما تفرضه الاحتياجات الإنسانية. وهكذا يصبح القهر الاجتماعى رد فعل، بدلا من أن يكون السبب الأساسى

للعنف الإنسانى. إن النزعة التشاؤمية فيما يتعلق بالإنسان تؤدى إلى تكريس الوضع القائم. فهى نوع من الترف بالنسبة للغنى، وهى العزاء لمن يشعرون بالذنب من المتقاعسين عن المشاركة الفعالة فى النشاط السياسى، وهى الراحة بالنسبة لهؤلاء الذين يواصلون الاستمتاع بأسباب الامتياز المادى. وتكلف هذه النزعة المحرومين من أى حقوق الكثير، فهم يستسلمون لها على حساب خلاصهم... إن على الرجال والنساء أن يؤمنوا بأن مقدور الإنسانية أن تصبح إنسانية تماما حتى يتسنى بالفعل للجنس البشرى أن يحقق إنسانيته، أو بعبارة أخرى إن النظرة التفاؤلية التى لا إفراط فيها لقدرات الإنسان الكامنة (المبنية على الاعتراف بإنجازاته، والإدراك الواعى فى الوقت ذاته لنواحى ضعفه، هى شرط لا غنى عنه من أجل فعل اجتماعى يحول ما هو ممكن إلى واقع فعلى).

ومن أجل منع أى فعل اجتماعى (ويستوى فى هذا الصدد ما إذا كانت النية مبيتة أم لا)، يتم تكريس هذا الكم الهائل من الدعاية ولفت الأنظار لكل تقويم تشاؤمى لقدرات الإنسان الكامنة. فإذا كان مقدرا لنا فى هذا السبيل. كما أن هناك فى الوقت ذاته أسبابا قوية واحتياجا ملحا للتقليل من شأن القدرات الإنسانية. فالنظام الاجتماعى يعتمد، تعزيزا لمواقعه، على إبقاء العقل الشعبى والعقل (المستتير) بوجه خاص، فى حالة من انعدام الثقة والشك فيما يتعلق بإمكاناته الإنسانية.

إن الطبيعة الإنسانية، عند مضللى العقول، ثابتة لا تغيير وكذلك الحال بالنسبة للعالم. ويلاحظ فرير أن (... المضطهدين (بكسر الهاء) يطورون سلسلة من المناهج، تستبعد أى تصوير للعالم بوصفه قضية أو مشكلة وتركز على إظهاره فى صورة الكيان الثابت، أو بوصفه شيئا معطى، شيئا يتعين على الناس، بوصفهم مجرد متفرجين، أن يتكيفوا معه) .

ولا يستلزم ذلك بالضرورة تجاهل التاريخ. بل على العكس، فالسرد الذى

لا ينتهى لما حدث فى الماضى يرافق التأكيدات المستمرة حول التغير الكبير الحادث أمام أعيننا. إلا أن هذه التغيرات على اختلافها لا تعدو كونها تغيرات فيزيائية: وسائل نقل جديدة، تكييف هواء، صواريخ فضاء، أطعمة معلبة. إن سائسى العقول يسهبون فى الحديث عن هذه المسائل، إلا أنهم يحجمون بحرص بالغ عن التعرض للتغيرات الحادثة فى العلاقات الاجتماعية، أو فى البنى المؤسساتية التى تشكل الدعامة الأساسية للاقتصاد.

كذلك تناقش بالتفصيل كل الشعارات المستقبلية التى يمكن تخيلها. ورغم ذلك فسوف يستمر الذين يتعاطون تلك الموضوعات العجائبية فى ممارسة نفس الحياة: يتزوجون ويربون الأطفال فى بيوت تقع فى الضواحى، ويعملون فى شركات مملوكة لأفراد، ويصوتون فى انتخابات الرئاسة فى ظل نظام الحزبين، ويدفعون نسبة كبيرة من دخولهم من أجل الدفاع واستتباب الأمن وطرق الأوتوستراد. وسيبقى العالم، باستثناء بعض التجديدات الديكورية الباهرة، كما هو تماما. وستبقى العلاقات الأساسية دون تغير من حيث إنها على حد زعمهم، شأنها شأن الطبيعة الإنسانية، غير قابلة التغير أما فيما يتعلق بتلك الأجزاء من العالم التى سهدت عمليات إعادة تنظيم اجتماعى بعيدة الأثر، فإن ما يكتب عنها - إذا كتب عنها شئ أصلا - يركز على العيوب والمشاكل والأمات التى يتلذذ بالتشبث بخا مضللو الوعى فى داخل البلاد.

وإذا ما ظهرت تقارير تتحدث عن الجوانب الإيجابية، تتم (موازنتها) فورا من خلال تقويمات سلبية تستعيد المنظور (الملائم) والمألوف. وفى المناسبات المتباعدة التى يتم فيها عرض افلام سينمائية من كوبا أو من الصين، على سبيل المثال، على شاشات التليفزيون الأهلى، فإن تعليقات المذيع توجه المشاهد بعناية ودقة إلى التفسير (الصحيح) لما يراه على الشاشة. وإلا فسوف تتشوش الطرائق التقليدية للتفكير والتى يتم غرسها بإتقان فى كل قنواتنا الإعلامية.

(٤) أسطورة غياب الصراع الاجتماعى:

لا يشكل التركيز على نواقص المجتمعات الثورية جانب واحد_الجانب الدولى ـمن مشروعات (توجه العقول)، حجب واقع السيطرة والاستغلال الجماهير.

وفى مجال تصويرهم للساحة الداخلية، ينكر المحكمون فى الوعى إنكار مطلقا وجود الصراع الاجتماعى. وقد يبدو ذلك فى ظاهر الأمر، مهمة مستحيلة التحقيق. فالعنف، رغم كل شئ (أمريكى مثله مثل فطيرة التفاح)، ليس فى الواقع فحسب، بل فى الخيال أيضا:

ففى السينما، والتلفزيون، وعبر موجات المذياع تخصص يوميا لسيناريوهات العنف مساحة مذهلة، فكيف يتفق هذا الكرنفال من الصراع والعنف مع الهدف الأساسى لمديرى وسائل الإعلام، والتمثل فى تقديم صورة للانسجام والتآليف الاجتماعى؟ الواقع أنه تناقض يتم حله بسهولة.

فالصراع، كما تصوره الأجهزة القومية لصنع الافكار والتوجهات العامة، هو فى الاساسى مسألة فردية، سواء فى تجلياته أو فى اصوله. إذ إنه لا وجود أصلا للجذور الاجتماعية للصراع فى رأى مديرى أجهزة الثقافة والاعلام. صحيح أن هناك (اشخاصا طيبين) و(أشخاصا أشرار)، إلا أن عملية تحديد هوية الدور (باستثناء تلك الحالات المصطبغة بطابع طقسى، أو نمطى مثل أفلام الغرب الأمريكى والتى يمكن تقبلها بوصفها سيناريوهات تحكى عن الماضى) يتم الفصل بينها وبين الفئات الاجتماعية المؤثرة.

ولقد لقى السود، والحمر، والصفر، والأقليات العرقية الأمريكية الأخرى، أقل قدر من الاهتمام فى الإبداعات الثقافية المصنوعة. ومع ذلك فهى أقليات تم استغلالها من جانب كل قطاعات الأغلبية البيضاء بدرجات متفاوتة. كذلك لم يلق الانقسام الاجتماعى الكبير فى الأمة، إلى عامل وصاحب عمل - إلا فى حالات استثنائية محدودة - أى حظ من الدراسة أو الاهتمام. بل ظل الاهتمام منصبا على موضوعات أخرى تتمثل بوجه عام فى مشكلات القطاع

الأوسط من السكان، الذى يسعى جاهدا للصعود إلى أعلى السلم الطبقى، تلك الفئة التى يفترض إنتماء كل إنسان إليها.

ولا يمثل الإحجام عن الاعتراف بالموقع للصراع فى النظام الاجتماعى، وعن محاولة تفسيره، لا يمثل تطورا حديثا فى ممارسات أجهزة الثقافة والإعلام، بل هو نهج متفق عليه ومعمول به منذ البداية. فأنت لا تصادف إلا نادرا، وسط هذه المادة الهائلة السارية فى دائرة الإعلام القومية، إبداعا ثقافيا حقيقيا يعترف بهذا الواقع. والواقع أن تفاهة وسطحية معظم البرامج، وخاصة ما يتعلق منها بتغطية الأحداث الاجتماعية الجارية، تعودان أساسا إلى قصور وسائل الإعلام المعتاد عن التسليم بوجود الصراع الاجتماعى، وعن تحديد طبيعة أسس هذا الصراع. وليس الأمر أمر خطأ غير مقصود، أو افتقار إلى الكفاءة الإبداعية، بل هو نتيجة مترتبة على سياسة متعمدة يقبلها معظم المسيطرين على أمور الثقافة دون تحفظ.

إن سيطرة النخبة تقتضى تجاهل، أو تحريف الواقع الاجتماعى. فالدراسة المخلصة، والمناقشة الجادة للصراع الإجتماعى لن تؤديا إلا إلى تعميق وتكثيف مقاومة الظلم الاجتماعى. وتصاب المجموعات والشركات ذات النفوذ الاقتصادى القوى بتوتر بالغ وفورى، إذا ما تم لفت الأنظار للممارسات الاستغلالية التى يشاركون فيها. وقد وصف ليس بروان، محرر باب التلفزيون بمجلة (فاريتى) – Variety's، حادثة من هذا النوع. فقد احتجت شركة (كوكا كولا للأغذية)، واتحاد فلوريدا للفاكهة والخضراوات بشدة على إذاعة الفيلم التسجيلى التلفزيونى (المهاجر)، الذى ركز على المهاجرين العاملين فى جنى الفواكه فى فلوريدا. وكتب براون يقول (إن معجزة المهاجر هى أنه أمكن تصويره أصلا)، فقد أرسلت التحذيرات إلى شبكة (إن. ب. سى) N.B.C، بعده عرض الفيلم نظرا لأنه (متحيز). ثم طولبت الشبكة بحذف مشاهد عديدة، وتم فى النهاية حذف مشهد واحد.

وأخيرا، وبعدم عرض الفيلم (حولت شركة الكوكا كولا إعلاناتها التليفزيونية إلى شبكتى) (سى. ب. إس) و(إيه. ب. سى) .

فعلى الصعيد التجارى البحت، يؤدى عرض القضايا الاجتماعية إلى إثارة القلق فى نفوس جماهير المشاهدين أو القراء، أو هكذا يعتقد الدارسون لسيكولوجية الجمهور. لذا يحرص رعاة البرامج التليفزيونية أو مموليها عملا بمبدأ السلامة، ومن أجل الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من جمهور المشاهدين، على استبعاد أى برنامج يشتبه فى احتوائه على مادة (خلافية) أو مثيرة للجدل.

وهكذا نجد أن ألوان الترفيه والإنتاج الثقافى التى حققت نجاحا أكبر فى الولايات المتحدة،- والتى لاقت قدرا أكبر من الدعم والدعاية من الجهاز الإعلامى، هى الأفلام، والبرامج التليفزيونية، والكتب والتسلية الجماهيرية (ديزنى لاند على سبيل المثال) التى قد تقدم ما هو أكثر من تلك الحصة المقررة من العنف، إلا أنها لا تتبنى بأى شكل قضية الصراع الاجتماعى فمفاهيم مثل : الوحدة والتنظيم والصراع يتم تصنيفها فورا، كما يلاحظ فرير، (بوصفها أشياء خطرة. والواقع أن هذه المفاهيم هى بالفعل أشياء خطرة - بالنسبة للمضطهدين - من حيث إن إدراك مدلولاتها يشكل ضرورة للنشاط التحررى).

عندما انفجر الصراع الاجتماعى، فى أواخر الستينات، وأصبح الاحتجاج ضد الحرب الفيتنامية، والمظاهرات المطالبة بالتغيير الاجتماعى حدثا يوميا تقريبا، ارتبك الجهاز الإعلامى لفترة وجيزة، لكن سرعان ما استعاد توازنه. وقبل أن ينتهى العقد ازدحمت شاشات السينما فى طول البلاد وعرضها بطوفان من أفلام (الشباب) وأفلام السيناريوهات السوداء). وأصبح إنتاج أفلام ومسلسلات مثل : (Shaft) و (Super Fly) و (Black Gunn) و (Hit Man) والتى أسماها الإمام أميرى بركة، (الدمى الزنجية الحديث) - تجارة رابحة. وحققت تلك العروض وصية جيم براون لمنتجى

أفلام السود: إن أسلوب التعامل الوحيد الذى يحقق النجاح هو التعامل مع السينما بوصفها صناعة، بوصفها نشاطا تجاريا. إن على السود أن يكفوا عن الهتاف بالشعار: (أسود) وأن يبدأوا فى الهتاف بشعار (التجارة). ولسنا فى حاجة إلى القول: إن مثل تلك المواد الثقافية لا تلقى سوى القليل من الضوء على الأسباب الحقيقية، ثم تستعيض عن الاستيضاح العميق لتلك الأسباب بكم كبير من الفعل السطحى.

(٥) أسطورة التعددية الإعلامية:

الصورة الذائعة، على مستوى العالم، لشرط الحياة فى أمريكا هى حرية الاختيار فى بيئة من التنوعين الثقافى والإعلامى. كذلك تتغلغل هذه النظرة فى أعماق أغلبية كبيرة من الأمريكيين، وهو ما يجعلهم سريعى التأثر بالتضليل الإعلامى الشامل. إنها إذن إحدى الأساطير المركزية التى يقوم عليها ازدهار نشاط (توجيه العقول). ورغم أن حريتى الاختيار والتنوع تمثلان مفهومين مستقلين فإنهما لا تنفصلان فى الواقع. فحرية الاختيار لا تتوافر بأى معنى من المعانى دون التنوع. فإذا لم توجد خيارات واقعية، فإن عملية الاختيار إما أن تصبح بلا معنى وإما أن تصبح على التضليل، ويصبح احتمال انطوائها على التضليل واقعا فعليا عندما يصاحبها الوهم بأن الاختيار ذو معنى.

وعلى رغم أنه لا يمكن التحقق من حرية هذا الاختيار، فإن الفرق يتمثل هنا فى أن وهم حرية الاختيار، فيما يتعلق بالإعلام، أكثر انتشارا فى الولايات المتحدة من أى مكان آخر فى العالم. ويتعزز هذا الوهم من خلال الميل- الذى يعمل المسيطرون على الاعلام إلى المحافظة على استمراره- إلى الخلط بين وفرة الكم الاعلامى وبين تنوع المضمون. ويسهل على المرء بطبيعة الحال أن يعتقد أن الأمة التى تملك ٦٧٠٠ محطة اذاعية تجارية، وما يزيد على ٧٠٠ محطة تلفزيونية ١٥٠٠ صحيفة يومية، ومئات الدوريات، وصناعة

سينما تنتج مائتى فلم جديد سنويا، وصناعة لنشر الكتب مملوكة لأفراد يبلغ رأس مالها بليون دولار، لابد من أن توفر تشكيلة شديدة التنوع من الاعلام بألوان ترفيه لشعبها.

وحقيقة الأمر أنه استثناء قطاع صغير جدا من السكان يحسن الانتقاء، ويعرف ما الذى يشاهده، ويستطيع بالتالى أن يستفيد من التدفق الاعلامى الهائل، فإن معظم الأمريكيين محصورون أساسا، وإن لم يعوا ذلك. داخل نطاق مرسوم من الاعلام لا اختيار فيه... فتنوع الاراء فيما يتعلق بالاخبار الخارجية والداخلية، أو بالنسبة لشئون المجتمعات المحلية، لا وجود له فى المادة الاعلامية. وهو ما ينتج أساسا من التطابق الكامل لمصالح، المادية الأيديولوجية، بأصحاب الملكية (فى هذه الحالة من يملكون وسائل الاتصال ملكية خاصة)، ومن الطابع الاحتكارى لصناعة الاتصال بوجه عام. إن الاثار المقيدة للاحتكار ليست فى حاجة إلى التفسير، كذلك تحدى احتكارات وسائل الاتصال من انتاج الاختيار فيما يتعلق بالمادة الاعلامية أينما تعمل فهى تقدم رؤية واحدة للواقع، هى رؤيتها الخاصة. ويندرج تحت هذه الفئة معظم الصحف، والمجالات، والافلام التى ينتجها مجموعة الشركات الكبرى المالكة لوسائل الاتصال، سواء على مستوى الولايات والمدن، أو على المستوى القومى، ولقد تضاءل عدد المدن الأمريكية التى تتداول فيها صحف متنافسة إلى حفنة ضئيلة.

وبينما تستعر المنافسة المريبة على جذب المشاهدين بين الشبكات التلفزيونية الرئيسية الثلاث، فإن هناك شرطين يحكمان ردود التنوع فيما يعرض من برامج. فرغم استماتة كل شبكة فى التنافس على جذب أكبر عدد من جمهور المشاهدين فإنها تحاكى منافستها فيما يتعلق بمضمون البرامج وبشكلها العام. فإذا ما حققت الـ (أيه. بى. سى) نجاحا من خلال مسلسلات (الغرب الأمريكى) فإن (سى. ب. إس) و (إن.ب. س) لن تلبسا أن (تنافسا)

بعرض مسلسلات (إطلاق الرصاص) فى توقيت الاذاعة نفسه. وعلاوة على ذلك فإن كل من الشبكات الثلاث يشكل جزءا، أو تمثل ذاتها عملا تجاريا ضخما فى مجال وسائل الاتصال، له الدوافع والحوافز نفسها لأى مشروع تجارى أخر يسعى للربح. وذلك يعنى أن التنوع فى قطاع الاعلام والتسلية، يوجد فحسب فى حدود أن هناك عدد من التفسيرات السطحية المختلفة من نوعيات الرئيسية من البرامج. فهناك على سبيل المثال العديد من برامج الحوار فى فترة السهرة. وهناك أيضا ربما نصف دستة من مسلسلات (المخبر الخاص) و(الغرب الأمريكى) و(الحفاظ على الأمن)، على المشاهد أن (يختار منها) فى الوقت الممتاز، وهناك أيضا ثلاثة معلقين على أخبار الشبكات الثلاث لكل منهم شخصية مختلفة، لكنهم يقدمون أساسا معلومات متطابقة كذلك يستطيع المرء أن يحول مؤشر المذياع ليحصل على خدمة اخبارية فى أى وقت طوال الأربع والعشرين ساعة من محطة أو محطتين، أو يستمع إلى أربعين أغنية من الأغانى الشعبية المفضلة يقدمها فرسان الاسطوانات * (المتنافسون).

وعلى رغم اختلاف كل برنامج مفرد وكل مؤد، أو معلق، أو معلومة عن مقابلة المنافس له، فاننا لا نجد أى فارق كيفى ملموس بينها. فمثلما يعرض السوبر ماركت ستة أنواع متماثلة من الصابون بألوان مختلفة وكما تعرض الصيدلية تشيكلة من أنواع الاسبيرين بأسعار مختلفة، كذلك يعزف فرسان الاسطونات التسجيلات نفسها بين الاعلانات المروجة لمختلف السلع.

فيختلف المزيج الاعلامى من حيث الوفرة من مدينة لأخرى، ومن مجتمع حضرى الى مجتمع ريفى. ففى بعض عواصم الولايات الرئيسة يوجد نصف دستة من القنوات التلفزيونية وثلاثون وربما أربعون محطة مذياع، وصحيفة

* فارس الاسطوانات: تطلق التسمية على مقدمى البرنامج الاذاعى المشتمل على مجموعة من التسجيلات الموسيقية، مع تعليقات لا تتصل بالمقطوعات المذاعة.

أو ثلاث، وعشرات من دور السينما. وعادة ما تتوافر تسهيلات أقل فى الأعلام والترفيه فى المجتمعات الاقل اتصافا بالطابع الحضرى. وكلما ازدادت عدد مصادر الاتصال، ازداد بطبيعة الحال رصيد التوجهات والمثيرات الاعلامية. الا أن النتيجة واحدة فى النهاية، سواء توافرت هذه المصادر بصورة سخية أو زهيدة فالمادة الترفهية، والأخبار، والمعلومات العامة، والتوجهات، والأفكار يجرى انتقاؤها جميعا من الاطار المرجعى الاعلامى نفسه من جانب (حراس) للبوابة الاعلامية، تحركهم دواع تجارية لا يمكن التخلى عنها. وقد يختلف الاسلوب والتعبير المجازى، لكن الجوهر واحد.

ومع ذلك فان شرط التعددية الاتصالية هذا، والخالى تماما من أى تنوع حقيقى هو الذى يوفر أسباب القوة بالنظام السائد لتعليب الوعى. فالفيض الاعلامى المتدفق عبر العديد من القنوات يخلق الثقة فى، ويطفى المصدقية على، فكرة الاختيار الاعلامى الحر، فى الوقت الذى تتمثل فى تأثيره الاساسى فى توفير الدعم المستمر للوضع القائم. وكذلك تحيط مثيرات مشابهة- مصدرها ذلك التنوع الظاهرى للمصادر- المستمع، والمشاهد، والقارئ بجو من الأفكار والصور يتبدى عادة كما لو كان تلقائيا، وكما لو كان حرا نسبيا وطبيعيا تماما. وكيف يمكن أن يختلف الوضع مع هذه الوفرة الهائلة من البرامج وأجهزة الإرسال؟ إن إستهداف الربح (الغرض الأساسى للتكتلات المالكة لوسائل الإتصال)، وعلى رغم أنه يمثل حقيقة واقعة ومحددة نهائيا، يظل تجريدا غير ملموس بالنسبة لمستهلكى الصور المختلفة للإنتاج الثقافى. ففى هذا الصدد هناك حقيقة واحدة مؤكدة، هى أن أجهزة الإعلام لا تلفت أنظار جمهورها لوجودها أو للإسلوب عملها.

وقد لاحظ جورج جيمبرن، فى مقال له بمجلة (سينتفيك أمريكان)، أن (السؤال الحقيقى لا يتمثل فى ما إذا كانت أدوات الإتصال الجماهيرى حرة أم لا، وإنما يتمثل فى كيف، ولأى هدف، وعن طريق من وبأى نتائج مترتبة

تتم ممارسة عمليات التوجيه والسيطرة التى لا محيد عنها؟).

وفى محاولة للبحث فيما وراء المظهر الخارجى لحرية الإختيار، ركز محرر التليفزيون بمجلة (فاريتى) إهتمامه على قضيتين من هذه القضايا الأساسية: (من بين الأساطير الشائعة عن التليفزيون الأمريكى تلك الأسطورة القائلة أنه يعمل بوصفه ديمقراطية ثقافية، تستجيب كليه لإرادة الأغلبية المشاهدة فيما يتعلق باستمرار برامج معينة، وإختفاء برامج أخرى. والأدق أن يقال أنه يمثل فى البرامج الترفيهية على وجه الخصوص، أو ليجار كية ثقافية، تحكمها الإرادة الجماعية للشركات المعلنة. فقد أعرب كبار المعلنين فى التليفزيون منذ البداية – صناع المواد الغذائية، والأدوية، والمشروبات، والأدوات المنزلية، والسيارات ومستحضرات التجميل ، والسجائر (حتى ١٩٧١) وغيرهم– عن رغبتهم فى الترويج لسلعهم فى صفوف الطبقات المتوسطة. بحيث أصبحت كثافة المشاهدين أهم معيار لتقويم البرامج. وهذا التأكيد على شعبية البرامج أضفى على التليفزيون مظهر الديمقراطية فيما يتعلق بالقواعد التى يتبعها لإختياره لبرامجه. والواقع أن العديد من البرامج ذات الشعبية الكبيرة تختفى من الشاشة ، دون إعتبار لحرمان المشاهدين منها، إذا كانت نوعيات مشاهدى هذه البرامج لا تجذب إهتمام المعلنين).

إن التشابه الجوهرى فى المادة الإعلامية وفى التوجهات الثقافية التى تنقلها كل وسيلة من وسائل الإعلام بصورة مستقلة، يستلزم بالضرورة أن ننظر إلى الجهاز الإعلامى بوصفه وحدة كاملة. فالأنشطة الإعلامية يعزز كل منها الآخر على نحو متبادل ومتصل، وحيث إنها تعمل تبقا لقواعد تجارية، وتعتمد على الإعلانات، وترتبط بصورة وثيقة بإقتصاد المؤسسات الضخمة متعددة الشركات، كل من خلال بنيته الخاصة وعلاقاته بالرعاة أو الممولين، لذا فإن وسائل الإعلام تشكل صناعة، وليس مجرد حاصل إجمالى لمتعهدى إعلام مستقلين ومالكين لحرية التصرف، تقدم كل منهم نتاجا ذا طابع فردى

خالص. فبحكم الحاجة وبحكم التصميم ، فإن ما تقدمه كل وسيلة من وسائل الإعلام، من صور وأفكار وتوجيهات – مع إستثناءات قليلة إنما يجرى إنتاجه لتحقيق أهداف متشابهة هى ببساطة جنى الأرباح، وترسيخ دعائم مجتمع الملكية الخاصة الإستهلاكى.

وبالتالى فإن الأبحاث الموجهة للإكتشاف أثر برنامج تليفزيونى ما، أو فيلم سينمائى، أو حتى مجموعة كاملة من المسيرات مثل (العنف فى التليفزيون)، لن تؤدى إلى نتائج مثمرة... فمن الذى يستطيع أن يزعم بصورة تقبل التبرير أن عنف التليفزيون، هو السبب وراء سلوك الأحداث الجانحين فى الوقت الذى يمثل فيه العنف مرضا مستوطنا فى كل قنوات، وأدوات الإتصال الجماهيرى؟ ومن الذى يستطيع أن يقول إن أى نوعية محددة من البرامج تؤدى إلى ظهور سلوك التعصب، أو التمييز الذكرى فى الوقت الذى تتدفق فيه المؤثرات، والوان المجازر التى تنطوى على مثل تلك المشاعر بلا توقف عبر كل قنوات الإرسال؟

يتفق الجميع بوجه عام على أن التليفزيون هو أقوى وسيلة إعلامية. ولا ريب فى أن تأثيره بوصفه أداة رئيسية لتعميم قيم النظام لا يمارى فيه أحد. ومع ذلك فإن التليفزيون أى كانت قوته، يعتمد هو ذاته على غياب أى حوافز مخالفة فى وسائل الإعلام الأخرى. إن كل قناة من قنوات الإعلام تصنع لإسهامها الخاص، لكن النتيجة واحدة فى النهاية: تعزيز ودعم الوضع القائم.

ويسمح فى كثير من الأحيان باستخدام التكرار، والتوكيد فى كل وسائل الإعلام بصورة غريبة، ومشوبه بالغموض. ويقدم (دليل التليفزيون)، على سبيل المثال، وهو أحدالمنشورات الأسبوعية الأكثر توزيعا فى البلاد (وهو ما سنعرض له تفصيلا فى الفصل الرابع). بعض الملاحظات المفيدة فى معرض شكواها المريرة مما تسميه بالصورة السلبية للولايات المتحدة فى شاشات التلفزيون بأوربا الغربية ففى مقال بعنوان (خلال منظار أسود تماما)، كتب

روبرت موسيل يقول: فى موناكو، وفى وقت مبكر من هذه السنة (١٩٧١)، تحدثت مع فرانك شكسبير، رئيس وكالة الاستعلامات الأمريكية حول النظرة الأوربية للولايات المتحدة، والدور الذى تلعبه (الأطر المرجعية) فى تكوين هذه النظرة. ويعنى ذلك ببساطة أن أى موضوع متعلق بأمريكا لا يعطى بالضرورة الانطباع نفسه الذى يحسه الأمريكى للإنسان الأوربى.فالأمريكى يمتص منذ مولده، بوعى ودومن وعى، سيلا متصلا من المعلومات حول بلاده، وشعبها، وذلك هو (الإطار المرجعى) الذى يمكنه حتما من أن يقيم، مثلا، التأسى العميق، والملح لأحد الانتهازيين على أحوال البلاد. أما الأوربى فلا يملك هذه الخلفية. إنه يرى فقط كاتبا أمريكيا معروفا، أو شخصية عامة، أو نجما سينمائيا يتفجع على الأفراد المزعوم الديمقراطية فى أمريكا فيرى كلامه مقنعا.

يريد الكاتب أن يخبرنا، بطريقة ملتوية، أن معظم الأمريكيين يملكون إطارا مرجعيا (موثوقا، يجرى تنظيمه) بوعى ومن دون وعى، من خلال مصادر إعلامية مثل دليل التلفزيون ومئات المصادر الأخرى. وبالتالى فإن الأمريكى العادى، وقد تم تحصينه إلى هذه الدرجة،سيقبل الإعلام الذى يثبت دعائم مجتمع الاستهلاك، وسيرفض المادة التى تنظر إلى هذا المجتمع نظرة نقدية. فعندما يصبح الفرد الأمريكى (معدا) الإعداد المناسب، فإن هذا الفرد، رجلا كان أو امرأة، سيتمتع بحصانة، أو مناعة نسبية إزاء أى توجهات مخالفة. أيا كانت درجة صحتها. ولا ريب فى أن (الإطار المرجعى) لم يكن لينطوى على هذا القدر من التأثير، لو أن وسائل الإعلام كانت قائمة بالفعل على التعددية، التى تزعم اتصافها بها، ولو أن توجهاتها كانت متنوعة فعلا. لكن مع التوكيد المتعدد المصادر (من الوجهة الإعلامية) والمتحقق من خلال وسائل إعلامية عديدة تختلف كل منها عن الأخرى فى الشكل فقط، يجرى تعليب وعى معظم الناس بصورة محكمة منذ الطفولة.

تشكل الأساطير التى عرضنا لها فيما سبق مضمون النظام التضليلى. فلنعرض الآن للشكل الذى يتخذه هذا النظام.

تقنيات تشكلان الوعى

١ - التجزيئية Fragementation بوصفها شكلا للاتصال:

تستخدم الأساطير من أجل هدف محدد هو السيطرة على الشعب. وعندما يتم إدخالها على نحو غير محسوس فى الوعى الشعبى، وهو ما يحدث بالفعل من خلال أجهزة الثقافة والإعلام، فإن قوة تأثيرها تتضاعف من حيث إن الأفراد يظلون غير واعين بأنه قد تم تضليلهم. وفضلا عن ذلك فإن عملية السيطرة تصبح أكثر فاعلية من خلال الشكل الخاص، الذى يجرى نقل الأسطورة من خلاله. ذلك أن تقنية النقل يمكن أن تضيف بذاتها بعدا جديدا إلى العملية التضليلية. والواقع أن شكل الاتصال أو الإعلام، على النحو الذى تطور به فى البلدان التى يسود فيها اقتصاد السوق وخاصة الولايات المتحدة هو تجسيد فعلى للتحكم فى الوعى. وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة تامة فى تقنية نشرالمعلومات المستخدمة على نطاق واسع فى أمريكا، والتى سنسميها هنا (التجزئة). ويلاحظ فريبر الذى يستخدم تسمية مختلفة، أن (إحدى السمات المميزة للعمل الثقافى القمعى والتى لا يدركها أبدا المتخصصون المخلصون والسذج فى وقت معا والمشاركون فى النشاط الدائر، هى التأكيد على النظرة التى تحصر المشكلات فى بؤر Focalized View، بدلا من رؤيتها بوصفها أبعاد لكل واحد).

إن التجزيئية أو الحصر داخل بؤر هو الشكل العام السائد - والوحيد فى الواقع - لعملية توزيع المعلومات والأخبار فى أمريكا الشمالية. فأخبار المذياع والتلفزيون تتسم بطابع التكرار الآلى (آلية طلقات المدفع) لموضوعات كثيرة لا رابط بينها. أما الصحف فهى حشد من الصفحات المحشوة بمواد يتم تدبيجها على نحو جزافى فى أغلب الأحيان، أو تماشيا مع القواعد

الملغزة للصحافة. وتتعمد المجلات تقطيع المقالات ونقل معظم النص فى صفحات العدد الداخلية، بحيث يتعين على القراء تقليب العديد من الصفحات المتلئة بالمادة الإعلانية حتى يتابعوا القراءة. كذلك يتم قطع برامج الإذاعة والتليفزيون بصفة مستمرة لإذاعة فقرات إعلانية. ولقد تغلغل الإعلان عميقا فى الحياة الداخلية للمستمع والمشاهد الأمريكى حتى إن برامج الأطفال والتى يقال: إنها توضع خصيصا لأهداف تربوية، أصبحت تستخدم النمط الفنى للإعلان التليفزيونى السريع الإيقاع، والمتقطع رغم عدم وجود شواهد قوية على أن فترات انتباه الأطفال تتميز بالقصر، وأنهم فى حاجة إلى القطع المتواصل. بل يمكن القول إن الإطالة التدريجية لفترة الانتباه تمثل فى الواقع عاملا بالغ الأثر فى تطور ذكاء الأطفال. ومع ذلك فإن برنامجا مثل Street Sesame وهو برنامج للصغار يلقى استحسانا واسع النطاق، لا يتميز فى شئ من حيث أسلوب أدائه عن البرامج التجارية الغثة الخاصة بالبالغين، والتى يتعين عليه أن يبنى شكله العام على أساسها وإلا فقد جمهوره من الأطفال المتكيف أصلا مع برامج الإعلان التجارى.

وتزداد حدة التجزيئية فى الأداء الإعلامى من خلال حاجة اقتصاد الاستهلاك لملء فراغات الاتصال بتوجهات تجارية فى طابعها. فالحث على الشراء يحاصر الإنسان من كل اتجاه متاح. إذ يجرى استخدام الأنفاق، والطرق الرئيسة، والخطوط الجوية، والبريد، والسماء نفسها (الكتابة السماوية) * أدوات للهجوم الإعلانى الجارف. وتؤدى اللامبالاه الكاملة التى يتعامل بها الإعلان مع أى حدث سياسى، أو اجتماعى (بإصراره على اقحام نفسه عنوة وبغض النظر عن طبيعة الموضوع) إلى اختزال جميع الظواهر الاجتماعية إلى مجرد حوادث غريبة لا معنى لها. وعلى ذلك فإن الإعلان، فضلا عن وظائفه المعروفة مسبقا والمتمثلة فى بيع السلع واستثارة حاجات استهلاكية جديدة وتجميل النظام، يوفر خدمة أخرى لا تقدر بثمن لاقتصاد

المؤسسات الضخمة المتعددة الشركات. ذلك أن اقحامه فى كل قنوات الإعلام والأعمال الإبداعية يختزل قابلية الجمهور، الواصلة أصلا إلى حدها الأدنى، لاكتساب أى إحساس بالمعنى الكلى للحدث أو القضية أو الموضوع المطروح.

على أن من الخطأ الاعتقاد بأن إلغاء الإعلان، أو تحجيمه، يمكن أن يؤدى إلى أن يتم تناول الأحداث من خلال المنهج الكلى الذى لا غنى عنه، لفهم تعقيدات الوجود الاجتماعى الحديث، فالإعلان يفيد النظام، خلال التماسه الفائدة لمموليه، بصورة اتفاقية من حيث إن استخدامه يساعد على زيادة التجزئ.

وفضلا عن ذلك فإن من السذاجة بمكان أن نتصور أن الجهاز الإعلامى أخطر أدوات السيطرة فى يد النظام، سوف يكشف عامدا عن الكيفية التى تمارس بها السيطرة. فلننظر على سبيل المثال إلى الطريقة التى يتم بها توضيب أى برنامج تليفزيونى إو إذاعى عادى، أو الصفحة اللأولى لأى صحيفة يومية كبيرة. سنجد أن السمة المشتركة بينها جميعا هى التباين الكامل للمادة، والإنكار التام للترابط بين الظواهر الاجتماعية التى يتناولها الحديث، أو التعليق. وتمثل برامج الحوار، التى تتكاثر فى المحيط الإذاعى والتلفزيونى، النموذج المثالى للتجزئ بوصفه شكلا عاما فالإقحام العرضى لموضوع خلافى، أو لشخصية مثيرة للجدل فى برنامج متعدد الفقرات، يؤدى إلى تهدئة وتسطيح أى جدل يمكن أن يثار. وسرعان ما يتوارى كل ما قيل من آراء خلف مايعترض بعد ذلك من إعلانات ونكات ودردشات أو أخبار اجتماعية خفيفة. لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فبرامج هذه طبيعتها يتم تمجيدها بوصفها شاهدا على التسامح المطلق للنظام، وتتباهى وسائل الإعلام، والمسيطرون عليها بانفتاح الجهاز الإعلامى الذى يسمح بإذاعة تلك المادة النقدية على الأمة. ويقبل جمهور المشاهدين بهذا الكلام ويقتنع تماما

• كتابة ترسم فى السماء بمادة مرئية (كالدخان) تنفثها طائرة

بأنه يحصل على تدفق حر للآراء. إن أحد المبادئ المنهجية للعلم الصالحة تماما للتطبيق فيما يتعلق بالنشاط الإنسانى، هو الحتمية البيئية المتعلقة بالاعتراف بالترابط الداخلى. وعندما يتم تجاهل كلية قضية اجتماعية ما، عمدا، وتقدم نقاط متفرقة متعلقة بها بوصفها (معلومات) فإن النتائج مضمونة مقدما، وهى فى أحسن الأحوال العجز عن الفهم والجهل، وفتور الشعور، واللامبالاة بالنسبة لأغلب الناس.

وليست أجهزة الإعلام وحدها بحال فيما يتعلق بتوكيد التجزئ. فالحقل الثقافى – التعليمى بأسره يشجع ويعزز التجزئ إلى ذرات، والتخصص، والتقسيم إلى جزيئات ميكروسكوبية. ويكشف فهرس المقرر الجامعى المشتمل على المواد التى يدرسها الطلاب فى العلوم الاجتماعية. فكل فرع من فروع الدراسة يصر على نقائه الخاص ونجد أن النماذج التى تستبعد الآثار غير المحسوبة للتفاعل مع الفروع الأخرى، هى التى تلقى إعجابا أكثر. فعلم الاقتصاد للاقتصاديين، وعلم علماء السياسة. وعلى رغم أن العلمين لا ينفصلان فى عالم إلا أن العلاقة بينهما يتم التنصل منها أو تجاهلها أكاديميا.

عندما ذهب وزير التجارة الأمريكى إلى موسكو فى خريف عام ١٩٧٢، فى محاولة للتفاوض من أجل عقد اتفاقية تجارية مع الروس، وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، نتيجة لأن الأمركيين وضعوا شرطا مسبقا لإتمام الاتفاقية، يتمثل فى أن يضغط الروس على الفتناميين الشماليين من أجل وقف القتال. إذ إن هناك، كما صرح بيتر. ج. بيترسون وزير التجارة، (علاقة بين الاقتصاد والسياسية) .

حاول أن تجد مثل هذه الصلات فى نصوص الاقتصاد المدرسى التى تتناول التجارة، والمساعدات الاقتصادية، والتطور والإنتاجية.

وهناك بعد إضافى للتجزئ يتحقق مع استفادة أجهزة الإعلام غير

التكنولوجية الجديدة للاتصال. إذ يتسارع معدل التدفق الإعلامى غير المترابط وتتزايد الشكوى، المبررة إلى حد ما، من (الحمل الإعلامى الزائد). وواقع الحال أنه لا زيادة فى المعلومات ذات المعنى. فتماما مثلما تعطل الإعلانات التركيز وتحول المواد الإعلامية التى تقطعها مادة مبتذلة، كذلك تتيح التكنولوجيا الجديدة عالية الكفاءة فى معالجة مادة المعلومات، نقل سيل جارف من المعلومات الخارجة عن الموضوع مما يضع المزيد من العراقيل أمام البحث اليائس عن المعنى.

٢- فورية المتابعة الإعلامية Immediacy Of Information

ترتبط الفورية ارتباطا وثيقا بعملية التجزئ، بل وتشكل فى الواقع عنصرا ضروريا من عناصر وجودها. ويساعد هذا الطابع الآنى اللحظى على تزايد القوة التضليلة لأجهزة الإعلام. ذلك أن المادة الإعلامية سريعة الزوال، لا تخلف وراءها أى بنية باقية أو ثابتة، لذا فهى تعوض أيضا عملية الفهم. ورغم ذلك تظل اللحظة أو الفورية- أى تسجيل الأحداث والتعليق عليها فور وقوعها- من أهم مبادئ الصحافة الأمريكية وأكثرها تبجيلا. وينظر إلى تلك الأنظمة الاجتماعية التى لا تقدم الإعلام الفورى، على أنها متخلفة بصورة ميئوس منها ومفتقرة إلى الكفاءة أو على أنها- وتلك تهمة أكثر خطورة- فاشلة اجتماعيا.

لكن سرعة الأداء ليست ميزة فى حد ذاتها. ففى أمريكا يحول النظام التنافسى وقائع الأخبار إلى سلع، ويتحقق الامتياز لمن سبق الآخرين فى الحصول على تلك السلعة السريعة التلف (أى الأخبار) وبيعها للمستهلك. ومن الأمثلة النموذجية لذلك حالة جاك أندرسون، وهو كاتب عمود يومى حقق نجاحا كبيرا، وسجل خطبات صحفية عديدة نالت شهرة واسعة. فقد انساق إلى توجيه العديد من التهم، على الهواء، ودون وثائق، ضد توماس إيجلتون، الذى كان يخوض معركته من أجل البقاء ضمن لائحة مرشحى الحزب

الديمقراطى عام ١٩٧٢ لمنصب نائب الرئيس. وعند مواجهته بعدم صحة معلوماته، وبعد أن أضير إيجلتون ضررا بالغا، اعتذر أندرسون بتوجيه اللوم إلى (الوضع التنافسى). فلو أنه لم يشرع فى اتهامه، لسبقه صحفى آخر إلى ذلك).

إن عملية نشر المعلومات فى الولايات المتحدة والمجتمعات الغربية الأخرى، باستخدامها الإلكترونيات الحديثة وبانسياقها وراء دوافع التنافس، تجرى ممارستها أغلب الوقت فى جو من الضغط والتوتر. فعند وقوع أزمة فعلية، أو حتى كاذبة، ينشأ جو هستيري محموم بعيد تماما عن المعقولية. ويؤدى الإحساس الزائف بالطابع الملح للأزمة المترتب على الإصرار على فورية المتابعة، يؤدى إلى النفخ فى أهمية الموضوع، ومن ثم تكون الخطوة التالية إفراغه من أى أهمية. ونتيجة لذلك تضعف القدرة على التمييز بين الدرجات المتباينة للأهمية. فالإعلان متلاحق السرعة عن تحطم طائرة، وعن هجوم لجبهة التحرير الوطنى فى فيتنام، وعن جريمة اختلاس محلية، وعن إضراب ما، وعن موجة الحر الشديد، يتحدى أى حكم أو تقويم. وفى وضع كهذا، يتم التخلى عن عملية الفرز العقلى التى تساعد عادة على بلورة المعنى، ويتحول العقل إلى غربال تصب من خلاله يوميا عشرات التصريحات والإعلانات أقلها مهم، وأكثرها لا أهمية له، وبدلا من أن يساعد الإعلام على تركيز الإدراك وبلورة معنى، نجده يسفر عن الإقرار الضمنى (اللاشعورى) بعدم القدرة على التعامل مع موجات الأحداث المتلاحقة التى تظل تطرق بإلحاح وعلى المرء، فيتعين عليه، دفاعا عن النفس، أن يخفض باستمرار الدرجة التى تبدأ معها حساسيته.

ففى مدينة نيويورك، على سبيل المثال، تطرح الطبعة الثانية من الصحف قبل منتصف الليل بساعة ونصف. وتتمثل أهمية صحف الغد فى أنها تحيل أخبار اليوم إلى بضاعة بائتة. وبعد التخلص من يومها، تستأنف الحياة حركتها إلى مجموعة أخرى من الأحداث التى لا رابط بينها. على أن الأحداث

ذات المغزى تحتاج لاستيعابها إلى فترة من الزمن. وليس مما يسهل فهم هذه التطورات أن تنقل الأقمار الصناعية رسائل الأخبار كل تسعين ثانية. فالانشغال باللحظة يدمر الروابط الضرورية بالماضى.

والواقع أن التكنولوجيا المتطورة التى يتيح وتسهل المتابعة الإعلامية الفورية ليست موضوع النقاش فالتكنولوجيا موجودة ويمكن لها، فى ظروف مختلفة، أن تكون مفيدة. إنما يتعلق الأمر باستخدام النظام الاجتماعى الحالى الوسائل التقنية للاتصال السريع من أجل التشويش، على المعنى، أو استئصاله فى الوقت الذى يزعم فيه أن هذه السرعة تعزز الفهم والاستنارة. إن اقتصاد المؤسسات الخاصة متعددة الشركات يسئ تطبيق الوسائل التقنية للاتصال الحديث.

فتكنولوجيا الاتصال، باستخداماتها الحالية، تروج لتوجهات بلا تاريخ، وبالتالى فهى توجهات مضادة للمعرفة.

إن من السهل أن نتخيل نوع التصميمات الإلكترونية التى تستخدم فورية المتابعة، بوصفها إضافة وإكمالا لبناء سياقات ذات معنى. لكننا لا نستطيع أن نعتقد بالسهولة نفسها أن فورية المتابعة، بوصفها أداة تضليل، سوف يتم التخلى عنها فى الوقت الذى تخدم فيه سائسى العقول من خلال إعاقتها الفعالة للفهم الشعبى.

السلبية: الهدف النهائى لسياسة (أو توجيه) العقول

يكرس الإعلام الأمريكى، شكلا ومضمونا – أى الأساطير وأدوات نقلها – التضليل. وعندما يجرى استخدامها بنجاح، وهو ما يحدث دائما، فإن النتيجة تتمثل فى السلبية الفردية، أى حالة القصور الذاتى التى تعوق الفعل. وذلك، فى الواقع، هو الشرط الذى تعمل وسائل الإعلام والنظام ككل بنشاط جم على تحقيقه، من حيث إن السلبية تعزز وتؤكد الإبقاء على الوضع القائم.

وتتغذى السلبية علفى ذاتها، مدمرة القدرة على الفعل الاجتماعى الذى يمكن أن يغير الظروف التى تحد من الإنجاز الإنسانى. ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن المجموعة التى تختبر مضمون برامج الأطفال فى التليفزيون التجارى، تطلق نفسها اسم (الفعل من أجل تلفزيون الأطفال) (التشديد من المؤلف).

وفى اقتصاد السوق المتقدم، تنطوى السلبية على بعد بدنى، وبعد ثقافى، أو فكرى، يجرى استغلالهما ببراعة من خلال تقنية توجهات أجهزة السيطرة على العقول.

وليس التلفزيون سوى الأحداث والأبعد تأثيرا فى مجال إشاعة السلبية الفردية. والواقع أن الإحصائيات المتعلقة بمشاهدة التلفزيون تبعث على الذهول. إذ يمضى الأمريكيون مئات الملايين من الساعات أسبوعيا، وبلايين الساعات سنويا أمام أجهزة التليفزيون دون أدنى تفكير فى مبارحة غرفة النوم. على أن الأمر لا يقتصر على (التمهيد) البدنى الواسع النطاق لعدد لا حصر له من ملايين الأجساد.فتحجيم النشاط العقلى، والذى يمثل المحصلة النهائية للعدد اللانهائى من ساعات الإرسال الملوءة للعقول، يفوق أى حساب أو تقدير. كذلك لا يمكن حصر أو قياس التأثير التسكينى الذى يتعرض له الوعى النقدى، رغم الأهمية البالغة التى ينطوى عليها هذا التأثير، ويصف رودلف آرنهيم ذلك بقوله: (من الأشياء المميزة فيما يتعلق بالتلفزيون أنك تدير مفتاح التشغيل ثم تتلقى ما يرسله أيا كان، وهو ما يعنى ضمنا موقفا شديد السلبية من جانب المشاهد. إذ يستوى الأمر مع أى شئ يأتى من هذا الجهاز. ربما كان برنامجا لتعليم لغة أجنبية، أو استجابة حقيقية له سيدفع بك إلى النوم. ويبدو الأمر كما لو أن هناك من يحاول (عكننتك). إن الشئ الذى لا يثيركن لا يحثك على الاستجابة، إلا أنه يستأصل تماما ضرورة أن تكون نشطا ذهنيا. فذهنك يظل مشغولا بطريقة ملتبسة. ويتم تشغيل الحواس، التى يفترض أن تلتزم بالأحرى بفعل شئ إيجابى).

ولا ريب فى أن اقتصاد المؤسسات العملاقة متعددة الشركات لا يقصر اعتماده على التلفزيون فيما يتعلق بنشر السلبية. فقبل التلفزيون، كان هناك ما يكفى من ألوان التسلية والترفيه وبنفس التأثيرات المخفضة للوعى. فقد ساهم كل من الرديو، والسينما، والألعاب الرياضية الجماهيرية، والاستعراضات العسكرية، فضلا عن تشكيلة كبيرة من المسابقات الأقل شأنا، وما تزال تواصل مساهماتها، فى امتصاص طاقة رد الفعل الإنسانى. ومع أن الأغلب الأعم من هذه الألوان من التسلية والترفيه لا يتطلب المشاركة – بالمعنى البدنى أو الجسمانى على الأقل – فإنه لا يوجد أى شئ كامن فى الراديو، أو التلفزيون أو السينما – باعتبارها أهم فنون الترفيه الشعبية – يؤدى حتما وبالضرورة إلى الخدر العقلى. وهناك، بطبيعة الحال، أمثلة قليلة ومتفرقة لبرامج إذاعية وتلفزيونة عمقت الوعى، وشدت الانتباه بالنسبة لقضايا عديدة بالغة الأهمية. لكن هذه الاستثناءات لا تحجب القضية الأساسية. وهى أن الهدف الأساسى لبرامج التلفزيون والإذاعة، والأفلام السينمائية فى مجتمع تجارى ليس إثارة الاهتمام بالحقائق الاجتماعية، والاقتصادية بل تحجيم هذا الاهتمام وتخفيف حدته. وعلاوة على ذلك فسرعان ما تتخذ الإجراءات الفعاله لتأكيد أن الاستثناءات ليست أكثر من مجرد استثناءات. ولقد سجل فريد فريندلى بالوثائق المنازعات التى نشبت بينه وبين مجلس إدارة (ال. سى. إس) خلال الخمسينات عندما كان ينتج بالاشتراك مع إدوارد مورو أفلامهما التسجيلية النقدية. كذلك اكتشف (الأخوة سمذرز (Smothers كيف أن جماعتهم المكونة من ثلاثة لن تصمد طويلا عندما ذاقوا الأمرين، لأنهم أوردوا بعض الملاحظات الساخرة حول المؤسسة الحاكمة فى برنامجهم وتم وقف برنامجهم، دون إبطاء.

إن الجهاز الإعلامى بوجه عام ينطوى، فى جوانبه التكنولوجية. على الميل إلى توليد السلبية. فليس هناك ما هو أسهل من إدارة مفتاح التشغيل

والاستلقاء على أريكة، وترك الصور تشق صريقها، دون وساطة، إلى الذهن. وعندما يتم إكمال هذا الميل الخاص بأدوات الاتصال المعدنية بالبرامج المعلبة التى تسعى عامدة إلى إحداث نفس التأثير المعطل، فإن النتيجة عادة تكون مذهلة. وقد لاحظ أحد المراقبين، فى معرض حديثه عن جريدة السينما الأمريكية عندما كانت فى أوجها، بعبارات تصلح للتطبيق على فترة السعينات، أن (جريدة السينما الأمريكية قدمت للمتفرجين مباريات الكرة، والفيضانات، وفاتنات السباحة والمشاهير. وكان رواد السينما فى الثلاثينيات يعملون عن جون ديلنجر، أو مملكة جمال أمريكا أضعاف ما يعرفونه عن إضراب الصلب المحدود، أو الحرب الأهلية الإنسانية).

إن هذا الاتحاد القاتل بين برامج مسلوبة الحيوية بصورة قصدية، وبين تكنولوجيا اتصال تبعث على الفتور،والهمودالجسدى هو آلية السيطرة على العقول فى أمريكا المعاصرة. ولقد أصبحت الحاجة ماسة إلى الجهود الخلاقة من أجل التغلب على، أو على الأقل موازنة، هذا النظام المشيع للسلبية. فالتناول المبدع يمكن أن يشجع المشاركة ويستحث الوعى. إلا أنه ليس من الواقعية فى شئ أن نتوقع أن يشجع اقتصاد المؤسسات الضخمة المتعددة الشركات مثل هذه الجهود. وعلى أى حال فإن المهمة الأولى التى يمكن مباشرتها بتواضع هى أن نحيط بالأداء الوظيفى للتضليل فى تجلياته فى فنون الإعلام. فلندرس الآن بعض السمات المميزة لهذا التضليل.



توجيه العقول ينتقل إلى ما وراء البحار: تصدير تقنيات الاستمالة

(إن لدينا أفضل الصلات فى أفضل بقاع العالم... نحن على قمة العالم).

ريدرز دايجست، الطبعة العالمية

(المجلة الأكثر رواجا فى العالم)

إعلان، إدفيرتيزنحج إيج

٢٣ أكتوبر ١٩٧٢

على مدى ما يزيد على ربع قرن (منذ ١٩٤٥). ازداد عدد الطبعات الدولية من (السنيوزويك إنترناشيونا) إلى ٣٥ طبعة فى كل بلدان العالم تقريبا... وفى الوقت الحاضر، تصل النيوزويك إنتر ناشونال إلى مليون ونصف مليون قارئ أسبوعيا).

إعلان، نيويورك تايمز

٢٥ ديسمبر ١٩٧٢

تنتج مائتان من الشركات العملاقة أغلب السلع والخدمات التى يتم استهلاكها فى الولايات المتحدة. على أن التركيز يزداد فى مجال السيطرة على الجهاز الاعلامى. إذ تقوم مجموعات قليلة العدد من شركات الإلكترونيات بتصنيع المعدات وتوفير الوسائل اللازمة للاتصال الجماهيرى. وهناك عدد صغير من الشركات، معظمها يمثل جزءا من تجمعات صناعة أكبر، يباشر العمل فى النشاط الفعلى للإذاعة والتلفزيون والنشر. وتدار العملية الإعلامية فى مجموعها بمهارة فائقة من خلال صناعة الإعلان التى تحصل على إيرادتها من كبرى الشركات القومية، التى تقدم الجانب الأكبر من إنتاج السلع والخدمة الاستهلاكية.

وفى عام ١٩٧١، كان ترتيب الشركات القومية الأكثر إعلانا عن منتجاتها على النحو التالى:

بروكتر وجامبل- جنرال موتورز- أميركان هوم برودكتس- جنرال فودز- برستول/ مايرز- كولجيت/ بالموليف- فورد موتورز- سيرز روبيك- سترلنج دارج- وارنر/ لامبرت فارما ستيكال. ثم تتبعها فى الترتيب: ليفر برريزلر- جيليت- كوافتكو- إيه. تى/ تى -(AT&T) كوكا كولا- اذرز- فيليب موريس- جنرال مليز- كبيسيكو- صناعات ر.ج رينوالدز.

وقد بلغ مجمل الإنفاق فى مجال الإعلان، عام ١٩٧٢، ٢٣ بليون دولار ١٣,١ بليونا منها على المستوى القومى، و٩,٨ بليون على مستوى المحليات. وقدر ما أنفق منها على التلفزيون القومى والمحلى بـ ٤,١ بليون دولار، والإذاعة ١,٥ بليون، بينما بلغ نصيب الصحف والمجلات فى مجموعها ٨,٤ بليون دولار.

وفى الوقت الحاضر تسيطر الشركة متعددة الجنسيات- الامتداد الدولى للبنية الداخلية العملاقة- وفى ظل الإشراف الكامل لدوائر الاتصال الأهلية، على الاقتصاد الكونى، كما أصبحت المنظم والصانع الرئيسين لحركة الاتصال الدولى.

وقد تم توصيف المقومات الرئيسة للشركات متعددة الجنسيات فى صورتها النموذجية على النحو التالى:

نشاط ما وراء البحار ــ (الشركة النموذجية) تباشر العمل فى ست بلدان على الأقل و(ينبغى أن) تقدر حصة الشركات التابعة لها فى تلك البلدان بـ ٢٠٪ من إجمالى الأصول والمبيعات وقوة العمل).

حجم الإنتاج– مبيعات سنوية لا تقل عن ١٠٠ مليون دولار.

النمو والأرباح– فوق المتوسط.

ممارسة الإدارة– تخصص نسبة كبيرة من مواردها للبحوث والإعلان.

الملكية– أمريكا فى أغلبها.

ومع أن الشركة الكبيرة التى تباشر نشاطها على المستوى الدولى ليست بالظاهرة الجديدة كلية، فإن مشاركتها واسعة النطاق فى اتصالات ما وراء البحار تعد شيئا حديثا نسبيا، فقد تغير حجم وطابع النشاط الاقتصادى الدولى تغيرا كبيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفى الوقت الحاضر تملك مئات قليلة من الشركات المؤسسة فى الولايات المتحدة، والتى أصبحت تعرف باسم الشركات متعددة الجنسيات، وتشرف على استثمارات خاصة ومباشرة فيما وراء البحار تقارب مائة بليون دولار. ولسنا فى حاجة هنا لتفصيل الكلام حول النمو الهائل للاستثمار الأمريكى الخاص خارج البلاد. ورغم أن الصناعات الاستخراجية والعاملة فى المواد الأولية التى تخضع لسيطرة أمريكية قد واظبت على الاحتفاظ بممتلكاتها وعلى توسيع نطاقها حول العالم، فإن القسم الأكبر من حركة الاستثمار الأمريكية بعد الحرب خارج البلاد اتجهت إلى صناعات التصنيع، والخدمات فى البلدان المتطورة (أوربا الغربية، كندا، أستراليا). وقد أثرت الطبيعة المتغيرة للاستثمار بصورة مباشرة وملموسة فى منظومة الاتصالات العالمية وفى محتوى هذه الاتصالات. وتعلق

إحدى المنشورات التجارية على هذا التحول فى الاستثمار الامريكى الخاص فيما وراء البحار على النحو التالى: (وذلك يعنى بالنسبة لشركة الإعلان، أو التسويق العالمية، (على سبيل المثال) آفاقا أكثر اتساعا. فالتحول الذى شهده الاستثمار يعنى المزيد من التركيز من جانب النشاط التجارى الصناعى العالمى، على إنتاج السلع والخدمات والتطوير الأسرع لأسواق الاستهلاك. من هنا، يصبح متوقعا تماما تزايد التأكيد على الإعلان عن هذه السلع والخدمات وعلى تسويقها (التشديد للمؤلف).

لقد استغلت الشركات التى كانت تعمل فى تجارة المواد الأولية والتصنيع الثقيل فيما وراء البحار، خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، قدرتها فى مجال الاتصال فى إصفاء صورة مميزة على أنشطتها المحلية، إلا أن ذلك لم يكلفها مبالغ كبيرة. أما فى الوقت الحاضر، حيثما يوجد اختلاف الموقف تماما. فوسائل الإعلان الآن مدعومة، حيثما يوجد نشاط استثمارى الكونى لمبيعات السلع والخدمات الاستهلاكية الأمريكية.

ويتم فى الوقت الحاضر إغراق المجتمع العالمى بسيل من الرسائل التجارية الناشئة عن متطلبات تسويق الشركات متعددة الجنسيات، الأمريكية فى أغلبها. ويجرى تحويل بنية شبكات الاتصال القومية وما تقدمه هذه الشبكات من برنامج طبقا لمواصفات جهات التسويق العالمية.

ويتطلب النشاط الإعلانى الانفتاح الكامل على وسائل الإعلان. فمن خلال المجلة التى توزع ملايين النسخ، ومن خلال مذياع السيارة والمطبخ، وشاشة التليفزيون فى المنزل، يجرى نشر رسالة التسويق بصورة مستمرة وبالغة التأثير. وليس فى وسع النشاط التجارى الإعلانى، إذا أراد أن يكون ناجحا، أن يتسامح مع قنوات الاتصال الجماهيرى التى تستبعد إعلاناته وبرامجه (الترفيهية) الموجهة تجاريا.

وبالتالى فهو يبذل جهدا لا يكل من أجل اختراق كل ما هو متاح من منافذ الاتصال ذات الجماهير الملموسة. فشهية شركات الإعلان لا تعرف

الشبع، كما أن هدفها ليس أقل من السيطرة الكاملة على كل وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرى. وبمجرد نجاحها فى إخضاع وسيلة من الوسائل، أيا كانت الصفات الأصلية لتلك الوسيلة، فإنها تتحول إلى أداة للثقافة التجارية.

وهكذا فإن أحد مقاييس فقدان أمة ما لسيطرتها على وسائل إعلانها (فضلا عن الخسارة الواضحة من خلال الملكية الأجنبية)، يتمثل فى درجة اختراق وكالات الإعلان الأجنبية لميكانيزمات التسويق فى تلك الدولة. ويعبر تقرير لمجلس الشيوخ الكندى عن ذلك بقوله: (وإننا لنتساءل حول كفاية القوانين التى تفرض الملكية الكندية لوسائل الإعلان إذا كان المصدر الأكبر لعائدات وسائل الإعلام، يتم التحكم فيه عن طريق دولة أجنبية حتى لو كانت هذه الدولة هى الولايات المتحدة- بل وخصوصا، إذا ما تعلق الأمر بالإعلان، إذا كانت هذه الدولة هى الولايات المتحدة).

ويميز مثل هذا الاختراق أو التغلغل أيضا تغيرات أساسية فى البيئة الثقافية للبلاد. إذ يشير إلى بنية اتصال تنقل وتعزز على نحو متزايد مواقف تتوافق مع متطلبات الإنتاج السلعى للشركات متعددة الجنسيات التى تمول النظام الجديد.

إن النمط الناشئ هو مزيج من علم الاقتصاد والإلكترونيات. وقد رأينا فيما سبق أنه ذو إمكانات هائلة. فالأساليب المنهجية المعقدة المتبعة فى حقل الاتصال- تلك التى أثبتت فعالية كبيرة فيما يتعلق بإخضاع جمهور المواطنين لتنظيم صارم وكفالة تأييدها- يجرى تطبيقها عالميا بإيقاع متسارع. وتثبت ثقافة من قاعدتها الأمريكية فى استعراض باهر. فمن أجل بيع بضائعه، وترسيخ مكانته يستخدم النشاط التجارى الصناعى الأمريكى فى الخارج الخدمات المعتادة من إعلان وعلاقات واستطلاعات رأى وأبحاث تسويق. كما يعمد هذا النشاط التجارى الصناعى إلى تجنيد، أو افساد، وسائل الإعلام

فى الدول العديدة التى يعمل فيها من أجل نشر وسائل هذه الخدمات مدفوعة الأجر والمؤلفة بعناية.

الوكالة الإعلانية الأمريكية بوصفها (صانع رسالة) على المستوى الدولى:

أصبح الإعلان أداة معاونة لا غنى عنها للنظام التجارى الصناعى، وهو لا يختلف كثيرا من حيث بنيته التنظيمية عن الشركات الضخمة التى يروج لمصالحها ويعبر عنها. فوكالات الإعلان تعد مثالا آخر لنفس النمط التركيزى للتطور شأنها شأن بقية أنشطة المشروع الخاص الأمريكى. ففى عام ١٩٧١، حصلت نسبة قدرها ١٠٪ من الشركات العاملة فى حقل الإعلان على ما يقدر بأربعة أخماس حجم الأعمال (الإعلانات) داخل البلاد. أما على المستوى الدولى فإن درجة تركيز النشاط الإعلانى أكبر بكثير.

وتملك الوكالات الأمريكية الكبرى للإعلان، تماما مثل الشركات الصناعية التى تقدم خدماتها لها، موارد مالية وتحصل على عائدات تكفل لها أوضاعا أفضل بكثير من منافساتها من الوكالات الدولية الأخرى. فإحدى وكالات الإعلان الأمريكية تضم، على سبيل المثال، إلى مجموعة النخبة من الشركات الأمريكية الكبرى التى يبلغ مجموع مبيعاتها السنوية بليون دولار. كذلك أعلنت مجموعة شركات المساهمة الدولية (والتى تشمل «ماك كان- أريكسون») عن نيتها للاندماج مع شركة كامبل- أوالد، فى منتصف عام ١٩٧٢، وكادت تنتهى بالفعل من تحقيق هذا الهدف. ومن بين أكثر عشر وكالات إعلانية فى العالم فى عام ١٩٧١، ليس هناك سوى شركة واحدة غير أمريكية. ومن بين أكبر خمسة وعشرين وكالة دولية، هناك إحدى وعشرون شركة أمريكية.

ولقد مثلت سوق الاستهلاك الداخلية بالغة الثراء الحافز الأساسى لنمو هذه الأنشطة التجارية التى تعمل بصناعة الكلمة والصورة. إذ عجل ازدهار السوق الداخلية بتطورها الأول. واليوم ترعى فى مراع بعيدة عن الوطن. وقد

جلب النمو الهائل للنشاط التجارى الداعى الملوك الأمريكية معه، بالضرورة، رجال التسويق. فالمصانع الأمريكية المقامة فى أوربا الغربية لا تقل قيمتها عن ٢٥ بليون دولار. وفى كندا تبلغ القيمة المالية للنشاط الصناعى الأمريكى القائم هناك ٢٥ بليون دولار أخرى. ورغم أن أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط لا تزال تؤدى أساسا دورا مورد المواد الأولية للمشروع الخاص الغربى، فإن لديها هى الأخرى قدرا لا بأس به من طاقة التصنيع المملوكة لأمريكيين. وكما هى الحال دائما رجال الإعلان يتبعون عملاءهم من رجال الصناعة حيثما توافرت إمكانية إيجاد سوق، وحيثما أنجزت بوجه عام عمليات استثمار لرأس المال. وفى عام ١٩٦٨ حصلت وكالات الإعلان الأمريكية العاملة خارج الولايات المتحدة على إعلانات تزيد قيمتها على ١,٥ بليون دولار، الجزء الأكبر منها (إن لم يكن كلها) حققته من برامجها الإعلانية فيما وراء البحار. وفى عام ١٩٧٠، بلغ إنفاق الشركات الأمريكية فى مجال الإعلان حوالى ٥ بلايين دولار.

المنتشرون فى أرجاء العالم المختلفة

ليس هناك مكان فى العالم (ما عدا القطاع الإشتراكى- المنظم، وربما بشكل مؤقت فحسب)، يسلم من تغلغل وكالة الإعلان الأمريكية العاملة على النطاق الدولى. وقد أحصت طبعة دولية خاصة من (برنتزإنك) Printer's Ink، صدرت عام ١٩٦٧ تحت عنوان (المنتشرون فى أرجاء العالم المختلفة)، خمسا وأربعين وكالة أمريكية تملك المئات من الشركة التابعة فيما وراء البحار. فلننظر، على سبيل المثال، إلى الأنشطة المنتشرة على نطاق واسع لأكبر وكالة فى العالم، وهى وكالة والترمومبسون. ففى عام ١٩١٧ حصلت الوكالة على إعلانات قيمتها ٧٧٤ مليون دولار، منها ٣٥٥ مليون دولار (أى ٤٥٪، وهى نسبة كبيرة) من إعلانات نفذتها فى ٢٧ دولة خارج الولايات المتحدة. وتملك وكالة تومبسون، عالية الانتشار، سبعمائة حساب فى مختلف البنوك

وتستخدم ٨ آلاف شخص فى اثنين وأربعين مكتبا. وفى بعض الحالات تملك الوكالة العديد من المكاتب فى البلد الواحد. وتباشر الوكالة عملياتها فى الأرجنتين، والنمسا، وأستراليا، وبلجيكا، والبرازيل، وكندا، وسيلان، وفرنسا، والدنمراك، وبريطانيا، والهند ، وإطاليا، وسويسرا، وإسبانيا، واليابان، والمكسيك، وهولندا، وباكستان، وبيرو، والفلبين، وبورتوريكو، وجنوب أفريقيا، (حيث تملك خمسة مكاتب وإعلانات تبلغ قيمتها ١٠ ملايين دولار)، وأورجواى وفنزويلا. وهى أكبر وكالة إعلانية فى سبعة بلدان خارج الولايات المتحدة.

وقد حصلت وكالة يونج وروبيكام، ثانى أكبر وكالة إعلانية أمريكا عام ١٩٧١، على اعلانات قيمتها ٥٠٣ مليون دولار، منها ١٨٦ مليونا (أى ما يزيد على ٣٧٪) من السوق العالمية. وتملك الوكالة فى الوقت الحاضر ١٨ مكتبا يعمل بها ١٤٤٩ مستخدما فى سبع عشرة دولة. ومن المؤشرات الموضحة لدى التغلغل العالمى الحالى للوكالة، افتتحتها ستة مكاتب خارج البلاد خلال أربع سنوات، من يناير ١٩٦٥ إلى يناير ١٩٦٩.

وفى عام ١٩٧١ حققت وكالة ماك كان- أريكسون ٥٩٤ مليون دولار منها ٣٦١ مليون دولار (أى حوالى ٦٠٪) من فروعها الدولية. وتملك ماك كان- أريكسون ٦٩ مكتبا فى ست وأربعين دولة، علاوة على مكاتبها فى هونج كونج، وأوكيناوا. وللوكالة استثمارات ضخمة فى أمريكا اللاتينية بوجه خاص، وتحتفظ بمكاتب دائمة لها فى البرازيل (تسعة أفرع) وشيلى (ثلاثة أفرع) وكولومبيا (فرعان)، وكوستاريكا، وإكوادور، والسلفادور، وجواتيمالا، وجامايكا، والمكسيك، ونيكاراجوا، وبنما، وبيرو، وبورتريكو، وترينيدا، وأرجوى، وفنزويلا.

ويتسارع معدل توسع الوكالات الإعلانيه الأمريكة، مخضعا بصورة متزايدة منافساتها الأجنبية تحت المظلة الأمريكية. والواقع أن وكالتين فقط من بين أكبر خمس وعشرين وكالة فى أمريكا، خلال عام ١٩٧٠، لم يكن لها

أى مكاتب حتى ذلك الحين خارج البلاد، فى المقابل، نجد شركة ليوبيرنت - خامس أكبر وكالة فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٩- تعلن ضم أكبر وكالتى إعلان تابعتين لشركة (لندن برس اكستشينج) وهما: ل. ب. إى ليمتد، إحدى كبريات الوكالات الإنجليزية، ول. ب. إى إنترناشيونا ليمتد، وهى اتحاد لتسع عشرة وكالة إعلانية فى أوربا، وأمريكا اللاتينية، وأفريقيا، وآسيا. وفى ذلك يقول فليب. هـ. شاف الأصغر، رئيس وكالة بيرنت (إنه تحالف طبيعى، فوكالة بسيرنت قوية فى الولايات المتحدة وكندا، ضعيفة جدا فى الخارج. بينما لندن برس اكستشينج قوية فى الخارج وضعيفة جدا هنا).

كما أعلنت وكالة (سوليفان، ستوفر، كولويل وبايلز) عن رغبتها فى شراء حصة كبيرة من وكالة لينتاس، ورفعت هذه الصفقة (هذه المجموعة إلى المرتبة التاسعة بين أكبر وكالات العالم) بحصول من الإعلانات، فى عام ١٩٦٩، يقارب ٣٠٠ مليون دولار. وتبادلت وكالة (فيدلهام، هابروستيرز) حصة من أسهمها مع وكالة (هافاس كونسيل) أكبر الوكالات الفرنسية (والتى تملك الحكومة الفرنسية ٥٤٪ من أسهمها). وتحتفظ الوكالتان بمكاتب دائمة فى أحد عشر بلدا أوروبيا، وفى كندا، والباسيفيكى، والولايات المتحدة، فضلا عن مؤسسة تابعة لها فى بريطانيا، هى (س. هـ. بنسون، ليمتد).

كما انضمت وكالة (دانسر- فيتزجرالد- سامبل)، التى تحتل المرتبة الثانية عشرة فى قائمة أكبر وكالات أمريكا)، إلى الركب ودخلت المجال الدولى، فى بداية عام ١٩٧٠. وفى عام ١٩٦٨ أفاض التقرير السنوى لوكالة جراى للإعلان فى حديثه الحماسى عن (الانتشار العالمى المنسق) الذى يحققه نشاطها فى الاثنتى عشرة دولة والثمانى عشرة مدينة التى تعمل فيها (شبكتها العالمية). وخلال عامى ١٩٧١ و١٩٧٢ أعلن عن المزيد من عمليات الاندماج بين عدد من الشركات العالمية فى الحقل.

ويمثل تدويل النشاط التجارى لوكالات الإعلان الأمريكية أحد الجوانب

المتممة لتوسيع الصناعة الأمريكية فى الخارج. فمتطلبات التسويق التى لا تعرف الاكتفاء لهذه الصناعة هى التى تولد الأنشطة العالمية لوكالات الإعلان وتوفير لها الدعم. وتورد قائمة عملاء الوكالات الإعلانية الأمريكية العالمية على نطاق دولى نفس الأسماء تقريبا التى ترد فى قائمة (فورتشيون) لأكبر خمسمائة شركة أمريكية غير مالية، مضافا إليها تمثيل مكثف للشركات الأوربية الكبرى.

ففى كندا، على سبيل المثال، تأتى معظم عائدات المحطات التجارية للإذاعة والتلفزيون من الشركات الأمريكية العملاقة التى تعمل خارج الحدود. وفى عام ١٩٦٩ كان أكبر عشر شركات معلنة فى الإذاعة والتلفزيون هى: جنرال موتورز أف كندا، بروكتروجامبل أف كندا، مصانع البيرة الكندية، جنرال فودز، إمبريال توباكو أف كندا، كولجيت- بالموليف، فورد موتور كامبانى أف كندا، ليفربرادرز، حكومة كندا، بريستول- مايرز أف كندا. وتذكر وكالة اجليفى آند مازر، العاشرة فى ترتيب الوكالات الأمريكية الكبرى- والتى يأتى ٤٠٪ من دخلها من نشاطها خارج الولايات المتحدة، من خلال ثلاثين مكتبا فى أربع عشرة دولة- أن أربعة وعشرين عميلا من عملائها لهم نشاط استثمارى فى ثلاث دول أو أكثر.

ولقد استطاع والترمومبسون، الذى نجحت أنشطته الإعلانية فى التغلغل إلى خمس قارات، أن يسيطر عمليا على الأنشطة الإعلامية لحكومة نيكسون. وتذكر مجلة تجارية اهتمت بالبحث فيما إذا (كان) البيت الأبيض فرعا من وكالة والترتومبسون)، أن خمسة من العاملين السابقين فى الوكالة يعملون الآن داخل هيئة موظفى البيت الأبيض، من بينهم هـ. ر. هالديمان، رئيس هيئة موظفى الرئيس، ورون زيجلر، السكرتير الجديد للرئيس، والذى كان مختصا قبل ذلك بشؤون ديزنى لاند. وعلى المستوى الدولى، يذكر التقرير السنوى لوكالة تومبسون، لعام ١٩٦٩، أن الوكالة (حصلت على تفويض من

الحكومة البريطانية بالمساهمة فى التعريف بالنظام النقدى الجديد، (و) فى الهند قمنا بالمشاركة فى حملة توعية حول تنظيم النسل).

وفى الوقت الحاضر عرفت الرسالة الإعلانية المشبعة، المستفزة للمشاعر، أو ذات الأثر السلبى المضمر، طريقها إلى وسائل الاتصال الدولية. فأجهزة الإعلام هى الوسيلة المثلى للتوصيل، وخاصة التلفزيون الذى يستولى على المشاهد المسترخى فى حال من الأمان الكاذب فى غرفة المعيشة. وينتهى الأمر بوسائل الإعلان التى لا تتصف أصلا بالطابع التجارى (الذى يميز وسائل الإعلام فى الولايات المتحدة، بأن تصبح من الجهة العملية أدوات معاونة للنشاط التجارى الصناعى، وخاصة فى البلدان الأقل تطورا. فإغراء عائدات الإعلان شديد الجاذبية. وفضلا عن ذلك فإن نظام التجارة لايسمح (لأداة ترويج مبيعات) مثل الإذاعة والتلفزيون بأن تعمل على نحو غير تجارى، بحيث تملك حرية رفض نقل رسائله الاستهلاكية.

وفى البلدان المتقدمة، تؤدى مجموعة من العوامل تتمثل فى السيادة القومية طويلة الأمد، والمصالح التجارية الأهلية القوية (والتى يناهض بعضها التغلغل الأجنبى) وترسيخ تقليد يحترم رقى الثقافة فى بعض الحالات، إلى معارضة الغزو الإعلانى، إلا أن دور هذه العوامل يقتصر بوجه عام على إبطاء أو تأخير عملية الغزو. فعلى مستوى الواقع الفعلى هناك قسم كبير من دوائر التجارة، فى الأمم العالية الدخل، يعمل كوكيل داخلى لدوائر التجارة الدولية.

وعلى ذلك فليس غريبا أن نكتشف أن وكالات الإعلان الأمريكية قد غزت على نطاق واسع معظم الدول المتقدمة صناعيا. ففى بريطانيا العظمى، على سبيل المثال (يتلخص الموقف فى أن سبع وكالات فقط من أكبر عشرين وكالة إعلانية فى لندن فى الوقت الحاضر يملكها بريطانيون ملكية كاملة، بينما يملك أمريكيون الأغلب الأعم من الوكالات الأخرى، وترتبط القلة الباقية بصلات قوية بالوكالات الأمريكية. وتبدو السيطرة الأمريكية أكثر وضوحا فى حال

الوكالات العشر الكبرى، إذ لا تتمتع بالاستقلال الكامل سوى وكالتين فقط من الوكالات العشر). وفى ألمانيا الغربية، وفرنسا، وإيطاليا، بل واليابان أيضا تسيطر الوكالات الإعلانية الأمريكية فى الوقت الحاضر على معظم أنشطة الإعلان على المستوى القومى. وفى السوق الأوربية المشتركة، وباستثناء شركتين فرنسيتين للإعلان، نجد أن (الوكالات العاملة على مستوى القارة الأوربية)، فى نهاية عام ١٩٧٢، (تمثل كلها فروعا لمؤسسات أمريكية). ويمر الجانب الآخر من العالم بنفس التجربة، إذ تعانى بلدانه أيضا من فقدان السيطرة على جهاز (صناعة الصورة). ويذكر تقرير لـ (أدفيرتبزنج أند نيوزبيبر نيوز) (أن الوكالات العاملة فيما وراء البحار تسيطر سيطرة كاملة أو جزئية على ١٥ وكالة من وكالات الإعلان الأسترالية الـ ٢٤ الكبرى، ويلوم الأستراليون أنفسهم لافتقارهم إلى الثقة بالنفس).

وفى العديد من الدول الأقل تطورا، تتبدى سيطرة المصالح التجارية الصناعية الأجنبية (والأمريكية فى أغلب الأحوال) على وسائل الاتصال الداخلية أوضح ما تكون. وتذكر صحيفة (اللوند)، على سبيل المثال، أن (أكثر من ٨٠٪ من الإعلانات المنشورة فى صحف وإذاعة وتلفزيون بيرو)، قبل تولى الحكومة العسكرية الحالية لشؤون البلاد تمر من خلال قنوات شركات الإعلان الأمريكية الكبرى، مثل وكالة والتر تومبسون (كندا)، ووكالة ماك كان أريسكون (كندا)، وجرانت للإعلان وشركة كاتس أكسيونز المتحدة). وفى فنزويلا تتسع دائرة احتكار الوكالات الأمريكية إلى مدى أبعد من ذلك. كذلك تمثل كل من روديسيا (زيمبابوى)، وكينيا، ونيجيريا، والهند، وماليزيا، وباكستان، وتايلاند، وعدد آخر من الدول المنخفضة الدخل نموذجا مشابها، مع اختلاف فى الدرجة.

ومن ثم يمكن القول: إن الأدوات الرئيسية فى تدنى مستوى الإعلان ووسائل الإعلام هى المتمثلة فى تجارة الثقافة وثقافة التجارة. بينما تؤدى

الخدمات الأخرى مثل العلاقات العامة، وبحوث التسويق، واستطلاع الرأى- والتى يتم استخدامها جميعا من أجل دعم فعالية الجهد التسويقى- إلى مزيد من تغذية تيار الاتصالات التجارية الدولية.

العلاقات العامة بوصفها مصدرا دوليا للإعلام والمعلومات:

أصبحت العلاقات العامة، وهى خبرة اخترعها النشاط التجارى الصناعى الأمريكى منذ السنوات الأولى للقرن العشرين، هى الأخرى ظاهرة دولية فى أعقاب هجرة رأس المال الأمريكى إلى الخارج. وتعد العلاقات العامة، إذا ما قورنت بنمو وتوسيع الإعلان الدولى، نشاطا متواضع الجحم لايزال، إلا أنه يتوسع بصورة مطردة. وقد قدرت دراسة حديثة العهد نفقات العلاقات العامة الخارجية للشركات الأمريكية بحوالى ٥٠ مليون دولار. وفى حين يهدف الإعلان عادة إلى ترويج إنتاج الشركة، فإن هدف العلاقات العامة هو ترويج الشركة ذاتها، بوصفها شيئا مفيدا، ومنتجا، ونافعا للمجتمع الذى توجد فيه. ونظرا لأن رأس المال الأمريكى يغمر البلد الذى يدخله وينتزع السيطرة على صناعاته الرئيسية، لذا فإن المهمة المشار إليها ليست مهمة عادية. ويعرض نائب رئيس شركة (هيل آند نولتون)، أهم الشركات الأمريكية العاملة فى مجال العلاقات العامة الدولية هذه المشكلة على النحو التالى:

(فلنستعرض معا الموقف الذى يواجه اليوم الشركات الأمريكية فى أوربا الغربية: خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، لمست الشركات الأمريكية لدى بلدان أوربا الغربية توقا إلى استثمارات الدولار الأمريكى، وبدا واضحا أن الأسواق تنطوى على إمكانات لا حد لها. وخلال العقد الماضى استجاب النشاط التجارى الصناعى الأمريكى بزيادة هائلة فى الاستثمارات الأمريكية المباشرة فى أوربا الغربية. ففى عام ١٩٦٥ بلغ مجموع الأموال المستثمرة حوالى ١٤ بليون دولار، فى حين لم يتعد ١,٧ بليون دولار عام ١٩٥٠ (وفى عام ١٩٧٢ اقترب الرقم من ٢٥ بليون دولار).

(وخلال السنوات الأخيرة طرأت تغيرات على المناخ العام للاستثمار: فعلامة مرحبا حلت محلها عبارة عد إلى بلادك أيها اليانكي. وقد كشف استطلاع للرأى أجرته شركة أبحاث الرأى العام عن وجود ضغوط كبيرة من أجل الحد من توسيع الشركات الأمريكية فى أربعة من بلدان السوق المشتركة، إذ رأى ٦٥٪ من رجال المال والتجار فى ألمانيا الغربية أن على حكومتهم ألا تشجع الاستثمارات الأمريكية. وفى إيطاليا بلغت هذه النسبة ٤٤٪، وفى فرنسا ٤٠٪، والأراضى المنخفضة (هولندا) ٣١٪.

(.... وفى ظل هذه الظروف. تواجه الشركات الأمريكية مشكلات صعبة. وهى لا تستطيع أن تتراجع ببساطة- بل يتعين عليها أن تبذل جهدا أكبر من أى وقت مضى- كما يتعين أن تبدى اهتماما أكبر بالنواحى المتعلقة بالعلاقات العامة فى مجال عملياتها الدولية).

أو بتعبير آخر إن المهمة الأساسية للعلاقات العامة الممولة من الشركات الأمريكية العملاقة. تتمثل فى التغلب على المناهضة الواسعة النطاق لأشكال التغلغل الأمريكى فى اقتصاد الأمم الأخرى.

إن التلاعب بالرموز، من أجل تحقيق هذا الهدف، يمارس بمهارة فائقة، وعلى نحو ملموس بوجه عام، وبصورة مكثفة على أيدى خبراء متخصصين فى (صناعة الصورة). وهو ما تعبر عنه إحدى النشرات التجارية على النحو التالى: (العلاقات العامة على الصعيد الدولى هى، ببساطة شديدة، فن استخدام الأفكار والمعلومات من خلال كل وسائل الاتصال المتاحة، من أجل خلق مناخ موات من الأبرياء بالنسبة لمنتجات وخدمات الشركة بل والشركة نفسها).

وعندما تباشر العلاقات العامة، فإن الجمهور يتعرض بصورة مطردة ومتكررة لرسائل تروج للشركة أو لمجموعة الشركات الممولة لها، بل وللنظام التجارى فى مجمله، من خلال مصدر يتعذر تحديد هويته. وقد لاحظت إحدى الدوريات التجارية الأمريكية، منذ سنوات، ما يلى:

(تلعب العلاقات العامة، بوصفها خبيرة اتصالات، دورا فريدا ومثيرا للدهشة فى مجمل حركة الاتصال بين مجتمع التجارة والصناعة وبين الجمهور. وعادة ما يتم تفسير هذا الدور بصورة تغطى على جانبه السلبى، إلا أن الأغلب الأعم من التغطية الإخبارية الراهنة للنشاط التجارى الصناعى عن طريق الصحافة والإذاعة والتلفزيون فى أمريكا، تدعمه ماليا أنشطة العلاقات العامة بالشركات).

(.... وهناك حوالى مائة ألف موظف علاقات عامة ممثلون مصدرا ضخما للطاقة البشرية. ومن دون هؤلاء، لن يتمكن سوى عدد محدود جداً من الصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون من الحصول على الكوادر الإدارية أو المصادر اللازمة لتغطية أخبار الأنشطة للتجارة والصناعة.

وفى معرض التأكيد على أهمية الوسائل الغربية التى يتطلبها ترويج منتجات النشاط التجارى الصناعى الحديث تستخلص دراسة لاحقه النتيجة التالية:

إن الأهمية النسبية للعلاقات العامة لايمكن قياسها من خلال تقدير إجمالى النفقات التى يستهلكها هذا العمل. فنحن لانملك مثل هذه التقديرات فضلا عن أن مثل هذا الرقم سيصبح ضئيلا بالمقارنة بالرقم الكبير الذى ينفق على الإعلان. والواقع أن أنسب اختبار لأهميتها يكمن فى تحديد نسبة محتويات صحفنا (وكذلك برامجنا الإذاعية والتليفزيونية) المأخوذة عن مكاتب العلاقات العامة. ومن الواضح أن هذه النسبة لايمكن تجاهلها بأى حال».

وفى هذا الوضع المقلوب للأمور والمثير للاستغراب، يفترض أن ينتفع الجمهور بمواد إخبارية وصحفية معدة إعدادا خاصا تمد بها وسائل الإعلام، نظرا لأن هذه الأخيرة ستصبح عاجزة، لو تركت لمصادرها الخاصة وحدها، عن توفير مادة إعلامية كافية. وفى الوقت الحاضر ينتفع المجتمع العالمى أيضا بمثل هذه المواد. ومنذ ما يقرب من عقد من الزمان، قدرت مجلة بيزنس ويك أنه «من بين أكبر ثلاثمائة شركة فى أمريكا، هناك ثلاث من كل أربع

شركات بها أقسام للعلاقات العامة كاملة الإمكانات، وهى طفرة هائلة بالقياس إلى النسبة التى قدرت عام ١٩٣٦، وهى شركة واحدة من كل خمسين شركة. وتبدأ أقسام العلاقات العامة المنشأة حديثا داخل الشركة الكبيرة العمل بمعدل لا يقل عن المائة سنويا». وجدير بالذكر أن الشركات الثلاثمائة الكبرى تمثل الجهات الرئيسية المصدرة لرأس المال، والمالكة للمنشآت الصناعية والمرافق المقامة فيما وراء البحار. وفى استطلاع أجرته شركة أبحاث الرأى العام فى يناير ١٩٦٨، طلب من الشركات الصناعية الخمسمائة الكبرى حسب التصنيف الوارد فى دليل مجلة «فورشيون» أن تجيب على أسئلة الاستطلاع فيما يتعلق ببرامج علاقاتها العامة فى الخارج. ولم تحصل الشركة صاحبة الاستطلاع إلا على ١٥٣ إجابة.

ومن بين هذا العدد نفت ٤٣ شركة أن لها نشاطا من هذا النوع خارج البلاد. وبالتالى فإن الاستطلاع يمثل فى الواقع استجابة اختيارية من ١١٠ من كبرى الشركات المشاركة فى نشاط العلاقات العامة خارج البلاد. وتتلخص النتائج الرئيسية للاستطلاع فيما يتعلق بهذه الشركات فيما يلى:

- التزايد الكبير فى عدد الشركات المشاركة فى أنشطة العلاقات العامة الدولية فى السنوات الأخيرة.

- تنفذ هذه الشركات برامج العلاقات العامة فى كل قارة وفى كل دولة من الدول الكبيرة.

- يشرف على تنفيذ هذه البرامج عادة طاقم مقيم من الموظفين فى البلدان الواقعة فيما وراء البحار.

- ثلث عدد الشركات المجيبة على الاستطلاع فقط يستعين بشركة متخصصة فى العلاقات العامة، أو وكالة إعلانية لتنفيذ برامجها للعلاقات العامة فيما وراء البحار.

ـ تتمثل الأنشطة الرئيسية في المواد المنشورة في الصحف، والدعاية للمنتجات، والمعارض والمناسبات الخاصة.

وتشمل الأنشطة الأخرى العلاقات الجماعية، وعلاقات المستخدمين والإجراءات الحكومية، وتجمل «الدورية الفصلية للعلاقات العامة» -Public Relations Quarterly- ما جاء بالدراسة في الكلمات التالية. «ولا يقتصر الأمر على مجرد ازدياد عدد الشركات التي تدخل في الوقت الحاضر مجال العلاقات العامة في الخارج، بل يضاف إلى ذلك أيضا أنها تبدو الآن أكثر نشاط وفاعلية) .

ورغم أن معظم الشركات الأمريكية الكبيرة العاملة على المستوى الدولي تستعين بموظفي علاقات تابعين لها.، ويعملون في أقسام مخصصة لهذا الغرض (شركة جنرال موتورز لديها على سبيل المثال فريق من موظفي العلاقات العامة، يبلغ عددهم عدة مئات، منتشرين في مختلف أنحاء العالم) فإن بعضها يعتمد على جهود شركات أخرى منشأة أساسا لهذا الغرض. وبالتالي فإن الشركات الأمريكية لديها شركات وعلاقات اندماجية في الخارج.

وتلخيصا لما سبق نقول: إن الهدف الرئيسي للعلاقات العامة الدولية هو أن تجعل تغلغل النشاط التجاري الصناعي للشركات العملاقة شيئا سائغا ومقبولا، أو على الأقل يمكن احتماله، بالنسبة للمناطق المضيفة في الخارج. فالشركات الأمريكية العامة في بلدان أمريكا اللاتينية مثل: (أناكوندا- برادين- برانيف- كريزلر- دوبونت- إسو- فورد- جنرال موتورز- و. ر. جريس- كايزر- بان أمريكا للخطوط الجوية)، (على وعي تام بالأهمية الفائقة للحفاظ على انتظام حركة الاتصال بالجماهير بوصفها أداة لكسب رضائها وتفهمها وتقديرها) .

وهكذا يتم تمرير رسائل للنشاط التجاري الصناعي (من خلال وسائل الإعلام القومية والمحلية)، لا يتم تمييزها بالضرورة في ارتباطها بمصادرها

الأصلية. ولقد أعدت شركة هيل ونلتون دليلا لإطلاع موظفى العلاقات الأقل دراية بشؤون المهنة على الوسائل الفنية للترويج فيما وراء البحار، وفى هذا الدليل احتلت وسائل الإعلان المحلية المرتبة الأولى من الأهمية) .

ومع ظهور وسائل الاتصال الفضائية، طرحت فكرة استغلالها لإقامة اتصال جماهيرى على نطاق عالمى من أجل أغراض ترويجية. ففى يونيو/ حزيران عام ١٩٦٩، على سبيل المثال، استخدم نظام القمر الصناعى لإذاعة افتتاح مجمع لخام الحديد فى أستراليا تملكه وتشرف على تشغيله شركة أمريكية متعددة الجنسيات، بالاشتراك مع عدد من الشركات التجارية. وقد علقت مجلة (بابليك ريلاشنز جورنال) على ذلك بقولها (ونتيجة للتخطيط المنسق، والتقنيات الأمريكية وإرسال القمر الصناعى إنتلسات، تحول افتتاح المنجم الأسترالى إلى حدث علمى) .

وربما بدا من قبيل التزيد فى القول أن نضيف أن الهدف النهائى لكل هذه الأنشطة فى مجال الاتصال، هو السيطرة على المصادر الأولية وعلى الأسواق التى تحقق من خلالها الأرباح. فأحيانا ما تغيب هذه الحقيقة البسيطة المكلفة فى آن معا عن الأذهان. وبالتالى فإن من المفيد أن نمعن النظر فى بعض التأملات فى العلاقات العامة لرجل كان شريكا فى شركة (إيفى لى)، الفرع المتخصص فى مستحضرات التجميل من مجموعة شركات جون. د. روكفلر. ففى كلمة له، فى عام ١٩٦١، ذكر (ت. روس) ما يلى (إن رجل العلاقات العامة يصبح غير جدير بالبقاء فى المهنة إذ ما استسلم لأفكار محلقة بعيدة عن الحقائق الواقعية لعمله. ولن يستطيع مثل هذا الرجل البقاء طويلا داخل فريقه الإدارى إذا ما نحا ذا النحو. إن عليه ألا ينسى، فى غمرة حماسه لوضع شركته فى أبرز مكان داخل دائرة الضوء العامة، أن العمل التجارى فى المقام الأول مشروع خاص يستهدف الربح، وليس مؤسسة خيرية. إن من الجائز تماما، فى العلاقات التى يسعى إلى إقامتها بين الشركة وبين جمهورها، أن يكون رقيق المشاعر، لكن عليه ألا يكون رقيق العقل)

مستطلعوا الرأى وباحثو التسويق

وهناك نوعيتان أخريتان من الخدمات المرتبطة بوسائل الإعلام تكملان تجارة إنتاج المعلومات التى تجذب اهتمام وأموال الشركات الأمريكية العاملة فى الأسواق الدولية، هما: منظمات أو هيئات استطلاع الرأى، والشركات المتخصصة فى بحوث التسويق.

وتعد استطلاعات الرأى، بوجه عام، أحد عناصر البنية الأساسية للمجتمعات البرلمانية- الانتخابية. والواقع أن المشروعات الجارية لاقتصاد السوق، تستحوذ على القسم الأكبر من مجمل أنشطة الشركة العاملة فى استطلاع الرأى، سواء من حيث العمل أو فيما يتعلق بالأسلوب المتبع فى تنفيذه.

وليس هناك سوى فارق ضئيل للغاية بين استطلاعات الرأى وبحوث التسويق، كما أن تقنيات استكشاف الآراء والرغبات السياسية يمكن أن تفيد فى توجيه الأنشطة والسياسات الاقتصادية. فقد أعلنت شركة أبحاث الرأى العام مؤخرا، على سبيل المثال، تأسيس شركة جديدة هى (الشركة الدولية لبحوث التسويق واستطلاع الرأى)- Ket and Opinion. Res 7 earch Inter- national (M.O.R.I) ومقرها الرئيسى لندن. وهى استثمار مشترك مع شركة N.O.P لأبحاث التسويق بلندن. ومن المفترض أن تقوم المؤسسة الجديدة (MORI) بتوفير التسهيلات اللازمة للأبحاث فى أمريكا الشمالية، والمملكة المتحدة، وأوربا.

وتعرف منظمة جالوب أشهر شركات استطلاع الرأى فى أمريكا، نفسها على أنها مؤسسة تقوم بإجراء (الأبحاث المتعلقة بالتسويق وبالآراء). وتغطى مؤسسة (جالوب إنتر ناشيونال) - والتى تشمل عددا من المؤسسات المشاركة بصورة مستقلة فيما وراء البحار تكون معها شبكة مفتوحة عن علاقات الاندماج- ٣٦ بلدا أو منطقة إقليمية فى مختلف أنحاء العالم، وتقوم بإجراء استطلاعات للرأى على نطاق عالمى، أو أوربى فى مجالات أبحاث ودراسات

التسويق والرأى العام والعلوم السلوكية، بموجب تعاقدات مبرمة مع عملاء محددين.

كذلك تعمل شركة (ا. س. نيلسن)، كبرى شركات أبحاث التسويق فى الولايات المتحدة، فى مجال استطلاع الآراء بصورة معتادة. وتمارس أعمالها فى عشرين دولة مختلفة تقع فى أربع قارات. كما تقدم بعض الخدمات البحثية لست وثمانين مؤسسة دولية تابعة لعدد من الشركات الأم، يتمركز نشاطها فى ثمانى دول مختلفة. وقد أنشأت مراكز الخدمات البحثية المتعلقة بجمهور مشاهدى التلفزيون، تتبعها مباشرة، فى كندا واليابان، وأنشأت مراكز مشابهة، عن طريق استثمارات مباشرة، فى كندا واليابان، وأنشأت مراكز مشابهة، عن طريق استثمارات مشتركة، فى إيرلندا وألمانيا الغربية. ويصف. س. نيلسن، مؤسس الشركة، هذه الخدمة التصنيفية *، التى تخلق سعارا بين شبكات التلفزيون التجارى المتدافعة للحصول على النسبة الأعلى من جمهور المشاهدين، على النحو التالى: (وحيث إن هذا النمط من الأبحاث يمارس تأثيرا ملموسا وإيجابيا على مدى فعالية أحد أهم وسائل نقل السلع من المنتج إلى المستهلك (أى التلفزيون)... لذا فإنه يساعد على تخفيض تكلفة التوزيع، وينتج عنه تحقيق المزيد من الربح لرجال الصناعة والمزيد من الاحترام لجمهور المستهلكين) .

وبطبيعة الحال فإن النظرة إلى التلفزيون باعتباره (وسيلة لنقل السلع من المنتج إلى المستهلك)، تفسر الوضع المحزن للتلفزيون فى الولايات المتحدة. (فالفعالية المتزايدة) التى توفرها هذه الوسيلة الإعلامية للنشاط الوظيفى للتسويق، يمكن مقابلتها بالاختلال الوظيفى الإنسانى المفروض على جمهور المشاهدين.

وهناك عدد آخر من الشركات يمارس أيضا عمليات استطلاع الرأى على النطاق الدولى. فشركة إنتر ناشيونا ريسيرش أسوشييتس تجرى أبحاثا

* أى التى تحدد درجة إقبال المشاهدين على برامج التلفزيون فى مختلف قنواته أو شبكاته التجارية. (م)

حول التسوق، والرأى العام فى الولايات المتحدة، وأمريكا اللاتينية، وأوربا وأفريقيا، والشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا، والشرق الأقصى. وتملك الشركة شبكة من منظمات البحث المتحدة تمارس نشاطها فى أكثر من أربعيمن دولة وإمارة فى مختلف أنحاء العالم. كما تجرى مؤسسة جالوب الدولية استطلاعات رأى شاملة ودورية، لحساب أى جهة. أو شخص يسدد فاتورة الأتعاب، فى الأرجنتين (شهريا)، أستراليا (كل شهرين)، النمسا (كل ثلاثة شهور)، بلجيكا (أسبوعيا)، شيلى (كل شهرين)، بريطانيا العظمى (أسبوعيا)، اليونان (كل أسبوعين). الهند (كل ثلاثة شهور)، الفليبين (سنويا)، السويد (شهريا)، سويسرا (كل ثلاثة شهور)، اتحاد جنوب أفريقيا (كل شهرين، ويقتصر على البالغين من السكان الأوربيين)، أورجوى (كل شهرين)، فيتنام الجنوبية (كل ثلاثة شهور)، ألمانيا الغربية (شهريا).

إن استطلاع الرأى سواء تم إجراءه تحت رعاية داخلية أو خارجية (وهو أمر ليس من السهل تحديده) يقصد به ظاهريا (الحصول على معلومات وليس إنتاجها). على أنه ينتج فى الواقع ليس المعلومات فحسب، بل والآراء أو الموقف التى يفترض أن يستطلعها. وليست المشكلة مشكلة خطأ فى تجميع العينات أو عدم تمكن الباحث فى إجرائه للمقابلة، إذ يمكن صياغة الأسئلة بموضوعية كاملة. كما أن ألوان القصور فى مثل هذه المسائل يمكن أن تظهر بل وتظهر بالفعل، إلا أن الأخطاء الفنية لا تتعدى، مع توافر تقنيات الاستطلاع المعقدة الحد الأدنى المقبول فى حال المنظمات ذات الخبرة العريضة فى هذا المجال.

وتمثل استطلاعات الرأى التى يتم إجراؤها لحساب الشركات الأمريكية الكبرى، أو وكالات الإعلام الحكومية، خطرا مزدوجا يهدد المجتمعات التى يتم إجراؤها فيها فالاستطلاعات مبنية على أساس تجارى، وعندما تنتشر نتائجها بوصفها رأيا قوميا، فإنها تؤدى حتما إلى تفاقم الأثر

(السوقى) * فى الأمة من خلال إضفاء المزيد من المشروعات على النزوع الاستهلاكى القائم بالفعل. والأهم من ذلك أنها تستبر بصورة مستترة، آراء يمكن أن تحدد أو توسع مجال السياسة المستقبلية لصناع الإعلام الأمريكى الرسمى فى ذلك البلد.

فلنتأمل، على سبيل المثال، هذه الرواية لتقنيات استطلاع الرأى لوكالة الاستعلامات الأمريكية فيما وراء البحار:

(إن الركيزة الأسياسية لبرنامج البحث (لوكالة الاستعلامات الأمريكية) هو استطلاع للرأى العام، والذى يتم إجراؤه فى كل منطقة متاحة للباحثين المتخصصين فى الإتصال. والشئ المشترك فى جميع الاستطلاعات هو أنها لا يتم إجراؤها بصراحة لمصلحة حكومة الولايات المتحدة. فالإجراء التقليدى المتبع هو التعاقد مع شركة خارجية، عادة ما يكون مقرها فى البلد الذى يتم استطلاع الرأى فيه، للقيام بإجراء البحث. ولا يعرف الناس الذين يدعمون للإجابة على أسئلة الاستطلاع سوى أن منظمة خاصة لاستطلاع يحيط نتائج الاستطلاع بالشبهات وبالتالى فقد وضع ذلك موضع الاعتبار الدقيق) .

وفى العديد من مجتمعات السوق الصناعية المتقدمة، يتم إجراء أبحاث السوق واستطلاع الرأى الممولة محليا جنبا إلى جنب مع، وأحيانا دون منافسة من، النشاط المدعوم أمريكيا فى المنطقة نفسها. وتقوم هذه الجهود. إلى الحد الذى يمكن وصفها فيه بالاستقلال، لجهاتها الأهلية التى ترعاها ماليا نفس الأساليب المنهجية للسيطرة والتوجه التى توفرها الجهات الأمريكية المناظرة: والواقع أن فرض إطار قيمى ينضح بالنزعة التجارية هو أمر أكثر سهولة فى مجتمعات تتم تهيئتها بالفعل لممارسات من هذا النوع.

* كلمة (السوقى) هنا نسبة إلى لـ سوق (م).

المكاتب الاستشارية ومكاتب السمسرة الأمريكية فى الخارج

فى هذا العرض البعيد عن الإحاطة الكاملة بالكم الهائل من المعلومات المتعلقة بالنشاط التجارى الصناعى. والمنبثقة من المشروعات الأمريكية فى الخارج، سيكون مفيدا ومتصلا بموضوع دراستنا، أن نتناول بإيجاز الشركات الأمريكية الخاصة بالإدارة والاستشارة، ومكاتب السمسرة الأمريكية خارج حدود القارة.

تمثل سوق الاستشارات الأمريكية فى أوربا، طبقا لاستطلاع حديث أجرته مجلة فورشيون، أرضا خصبة ما تزال مفتوحة أمام إمكانات التوسع والنمو. (فخلال السبعينيات، اتجهت البيوت الاستشارية الأمريكية إلى أوربا بمناخها المواتى... (على أن) الغزو الفعلى بدأ مؤخرا فحسب). وتورد فورشيون (ماكينزى وشركاؤه) و(بوز، آلن آند هاملتون) و(ا. ت. كيرنى) و(آرثر. د. ليتل) و(ليسكو) فى مقدمة الشركات العاملة فى هذا المجال فى الوقت الحالى. وتذكر المجلة أن هذه الشركات ذهبت فى الأصل إلى أوربا لخدمة الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات التى تقيم المصانع أو تشترى أسهم شركات تابعة هناك. وفى الوقت الحاضر، تجذب هذه البيوت الاستشارية العديد من الشركات التجارية والمؤسسات الأوربية كعملاء. فقد حصلت شركة ماكينزى، على سبيل المثال، على تكليف، هو الأول من نوعه، بدراسة المسائل الإدارية لبنك انجلترا، (ولأول مرة خلال عمر هذا البنك الأم فى شارع البنوك بلندن، والممتد لمائتين وأربعة وسبعين سنة يفتح البنك العريق ذراعيه لأجنبى).

ولا يقتصر التصدير مناهج الإدارة الأمريكية على أوربا الغربية، بل تغلغلت أيضا إلى أفريقيا الشمالية ومناطق أخرى عديدة. ويكشف أحد التقارير أن (ممثلين لمؤسسات أمريكية من أمثال آرثر. د. ليتل، وبرايس، ووالتر هاوس، وبوز، آلن وآند هاملتون، وآرثر أند رسون، وماكينزى، يعلمون

بصورة غير معلنة داخل مكاتب الحكومة الجزائرية، أو داخل الشركات التى تديرها الدولة... وتتسم التقنيات الإدارية المتبعة بالطابع الغربى).

فما هى دلالة هذه الحركة المتدفقة من الاتصالات التجارية العالية التخصص؟ الواقع أنه نتيجة لاتصافها بالسرية التامة، فإن أحدا لا يستطيع أن يعرف على وجه الدقة. وتصف فور شيون نشاط شركته (مكينزى) بأنه ينطوى على هالة من الغموض (فالعمل يصعب فى أغلب الأحوال تعريفه مقدما، بل ويصعب أكثر تقييمه بعد انتهائه). ويدلى د. س. جرينبرج، المراسل الأوربى لمجلة (ساينس)، برأى مشابه: (من الصعوبة بمكان تبين ما تقوله (ماكينزى) لعملائها وما يفعله أن الاتجاه العالم لنشاطها الاستشارى معروف تماما. ويقتبس جرينبرج جانبا من كلمة لأحد الاستشاريين الأمريكين أمام مؤتمر للتسويق انعقد فى أوربا:

(إن نزعة الاقتصاد التقليدية عند الأوربيين... حل محلها ولع بالإنفاق واستعداد للاستدانة... كما أن هناك استياء متناميا من القديم ومما هو مقرر وسائد، ورغبة قوية فى التحسين، والتجربة، ومحاولة استحداث منتجات وخدمات جديدة، للتدليل على الوفرة. بل إن الأوربيين بدأوا يؤمنون فى الفترة الأخيرة بالإهمال المخطط لما هو مقرر أو سائد... فلننظر مثلا أثر التلفزيون. فالإعلانات التجارية بل والبرامج نفسها تغمر المستهلك بالمنتجات الجديدة وتعرض صورة لمستوى معيشى أعلى...).

ويلاحظ جرينبرج أن (القدرات العالية للصناعة الأمريكية لا تنفصل عن اللامسؤولية الاجتماعية التى يتاح للأغلب الأعم من شركاتها أن تمارس أنشطتها فى ظلها، ومع ذلك فإن الأمل قائما، وأيا كانت طبيعة النصائح التى تهمس بها المكاتب الاستشارية الأمريكية فى آذان عملائها من الأوربيين، فى وجود آخر فى المجال ليوضح أن الأرخص والأسرع ليساهما الحل الشافى لصنع الحياة الأفضل). لكن مع هذا الفيض المتنامى من المواعد الإعلامية

المتولدة عن طريق النشاط التجارى الصناعى فى الخارج، تتضاءل أكثر فأكثر المنافذ المتاحة أمام الأصوات المعارضة داخل أجهزة الإعلام فى بلادها.

وهناك تدفق آخر لمعلومات النشاط التجارى الصناعى يمكن تحديده، فقد أتاحت عملية تدويل رأس المال وسوق السندات المالية الأمريكية (التى توفر سيولة الحركة للمستثمرين الأجانب ذوى الأموال الطائلة والمخاوف سريعة الاستثارة) انتشار مكاتب السمسرة ومستشارى الاستثمار والودائع المصرفية المتبادلة فى الخارج. وفى تقرير حديث كتبه أحد العاملين فى شركة باش وشركاؤه يرجع هذا الاتجاه إلى الاتصال البرقى المباشر وأنظمة المعلومات المبرمجة بالكمبيوتر: (فنحن نستطيع أن نوفر للمستثمرين وصفا أسرع وأكثر اكتمالا لأحوال السوق، أو أحوال شركة بعينها من أى جهة أخرى. إن أى مستثمر فى أمستردام يستطيع أن يحصل على المعلومات المطلوبة فيما يتعلق بأى نوع من الأسهم أو السندات الأمريكية، بأسرع من حصوله على معلومات تتعلق بأسهم مطروحة للتداول المحلى داخل بلاده).

وهكذا تنتقل أسعار الأسهم المالية فى الوقت الحاضر عبر المحطات عن طريق البرق أو القمر الصناعى، كما تمتلك شركات سوق الأوراق المالية الأمريكية مكاتب خارجية فى العديد من المواقع الأجنبية نذكر منها الكويت، والمملكة العربية السعودية، (فى كل منهما مكتب فرعى أمريكى) ناساو فى جزر البهاما (مكتب واحد)، بلجيكا (ثلاثة عشر مكتبا)، النمسا (مكتب واحد)، كندا (ثلاثة عشر مكتبا)، إنجلترا (خمسة وعشرون مكتبا)، فرنسا (خمسة وعشرون مكتبا)، ألمانيا الغربية (سبعة مكاتب)، اليونان (مكتبان)، هولندا (أحد عشر مكتبا)، هونج كونج (ستة مكاتب)، إيطاليا (سبعة مكاتب)، اليابان (مكتبان)، لبنان (خمسة مكاتب)، إمارة ليكتشتين (مكتب واحد)، موناكو (ثلاثة مكاتب)، إسبانيا (أربعة مكاتب)، سويسرا (خمسة وعشرون مكتبا)، أورجواى (مكتبان)، فنزويلا (أربعة)، الجزر العذراء (مكتب واحد) .

النشاط التجارى الصناعى الأمريكى والسوق العالمية:

تجلت القوة الاقتصادية للرأسمالية الأمريكية القائمة على الشركات العملاقة منذ فترة طويلة. فقد نتج عن توسيعها على النطاق العالمى فى أعقاب الحرب أن أصبحت نظاما عالميا يؤثر فى، ويتأثر أيضا بـ، عملية صنع القرار على المستوى القومى فى عدد لا يحصى من البلدان فى كل القارات. إن التأثير الاقتصادى للرأسمالية الأمريكية، وعلى الرغم من عدم توثيقه بصورة شاملة ومفصلة، هو أمر معترف به بوجه عام.. ويشمل هذا التأثير حركة المواد الأولية وعمليات اكتشافها، والنزعات المتعلقة بميزان المدفوعات، وضغوط تعويض الأرباح، وإيرادات الأسهم، وهجرة الكفاءات البشرية (استنزاف العقول)، ومضاربات العملة والذهب. وتحويل أسهم السوق العالمية. كذلك بدأت تتضح للأذهان النتائج السياسية للأنشطة الدولية للشركات الأمريكية، وفى حالات عديدة. ارتبطت القلاقل أو الاضطربات فى البنى السياسية المحلية بتدفق رأس المال الأمريكى.

وقد مثل المجال الثقافى- الإعلامى المجال الوحيد تقريبا الذى لم يجر الاعتراف به فى عملية تقييم النفوذ الأمريكى العالمى. ومع ذلك فإن السيطرة على البشر وعلى المجتمعات تتطلب فى الوقت الحاضر، وقبل أى شئ آخر، الاستخدام الموجه للكلمات والصور. فمهما كامن جبروت القوة التى يمكن استخدمها ضد شعب ما، فإنها لا تفيد على المدى البعيد (والذى يمكن ألا يستمر طويلا) إلا إذا تمكن المجتمع المسيطر من أن يجعل أهدافه تبدو مقبولة على الأقل، إن لم تكن جذابة، بالنسبة لهؤلاء الذين يسعى لإخضاعهم. من هنا تمثل مناهج ورسائل (وتوجهات) وسائل الاتصال أهم أدوات أصحاب السلطة والنفوذ المحدثين وأكثرها حيوية. فالحالة الشعورية لسكان بلد ما لها دورها الملموس فى تحديد سلوكهم السياسى. والمعتقدات والآراء قابلة للتأثر إلى حد بعيد بذلك الضرب من التوجه الجماهيرى المضلل، الذى يمارسه

النظام الأمريكى للسلطة بمهارة فائقة.

ومع أن ألوان الترفيه والتسلية المنتجة تجاريا، هى الأدوات الرئيسية لنقل قيم الرأسمالية الأمريكية القائمة على الشركات العملاقة وأساليب حياتها، فإن الإعلام المنتج مباشرة من خلال دوائر النشاط الصناعى التجارى الأمريكى خارج البلاد له آثاره القوية والبعيدة المدى، والواقع أن تأثير الأنشطة الترويحية و (البحثية) للشركات العملاقة فى الشعوب التى تتعرض لها يفوق كل التقديرات. وفضلا عن ذلك فيما أن العامل المساعد على حدوث هذا التأثير غير المعترف به فى الأغلب الأعم (أو هو غائب عن أذهان الكثيرين)، لذا فإنه يتصف بفاعلية أشد وبقابلية للقياس أقل.

إن المواد الإعلامية الممولة من دوائر النشاط التجارى الصناعى والمشبعة بالروح التجارية، والتى يتم نشرها من خلال وسائل الإعلام تستهدف حماية الأنشطة المادية للمشروعات الأمريكية فى الخارج، وتكريس قيم وآراء نزعة التملك الخاص، والنزعة الاستهلاكية اللتين تمثلان الدعامتين الأساسيتين للنظام التجارى الصناعى وقليلة هى المناطق التى تتمتع بالاستقلال عن النزعة التجارية الأمريكية. فثقافة المشروع الأمريكى الخاص تطوق كل شئ فى طريقها من خلال مخاطبة غرائز النزعة الفردية فى الوقت الذى تعزز فيه توجهاتها (رسائلها) بالاستناد إلى الصورة الخالية عن مبتكرات التكنولوجيا ومباهج الاستهلاك.

كما أنها تستمد القوة من استغلالها لرغبتين من أقوى الرغبات الإنسانية، وهما توق الناس فى كل مكان لوضع نهاية للحروب وعلى مستوى العالم أجمع، وتطلعهم الذى لايقل قوة إلى تحقيق الذات على المستوى الفردى. ومن ثم فإن لغة المادة الإعلامية للشركات العملاقة تنحو إلى تمجيد التعايش الدولى والحرية من خلال مفهوم خاص لهما يعزو أهمية قصوى إلى المنافع الفردية. فالتوحيد بين الحرية الإنسانية وبين الملكية الخاصة وتصنيف

الأنشطة العالمية لشركات التجارة والصناعات الكبرى على أنها نموذج ملهم للتعايش الدولى هما الدعامتان الأيديولوجيتان الأساسيتان لتوجهات (أو رسائل) النشاط التجارى الصناعى. والنصيحة التى يقدمها توم ساتون، النائب التنفيذى لرئيس وكالة والتر تومبسون للعمليات الدولية، فيما يتعلق بهذا الموضوع صريحة ومباشرة تماما:

(فى اعتقادى أن من المهام الأساسية للمنظمات الدولية، مثل الاتحاد الدولى لوكالات الإعلان، والغرفة الدولية للتجارة، أن تبشر بتعاليم الحرية وأن تتيقن من أن أفضل نظم السيطرة وكبت الحريات- فى المناطق التى قد يكون لوجودها ضرورة (كذا!)- هى التى يجرى تصديرها وليس

أسوأها، لا يستخدمها فى أى من هذه المناطق.

ويطرح روبرت سانوف، رئيس إدارة شركة RCA كبرى شركات الإلكترونيات، فيما يتعلق بموضوع التعايش بين الدول، تصور العالم لا تقسمه حدود، مفتوح أمام كل إنسان وخاصة أمام مشروعات تلك المئات القلية من الشركات متعددة الجنسيات. ففى كلمة له يدعو فيها إلى (سوق مشتركة عالمية للاتصال) يؤيد سارنوف بحماس تقليص المسؤولية القومية فى حقل الاتصال بحيث يمكن اعتباره (موردا عالميا) وهو يزعم أن مثل هذا التطور:

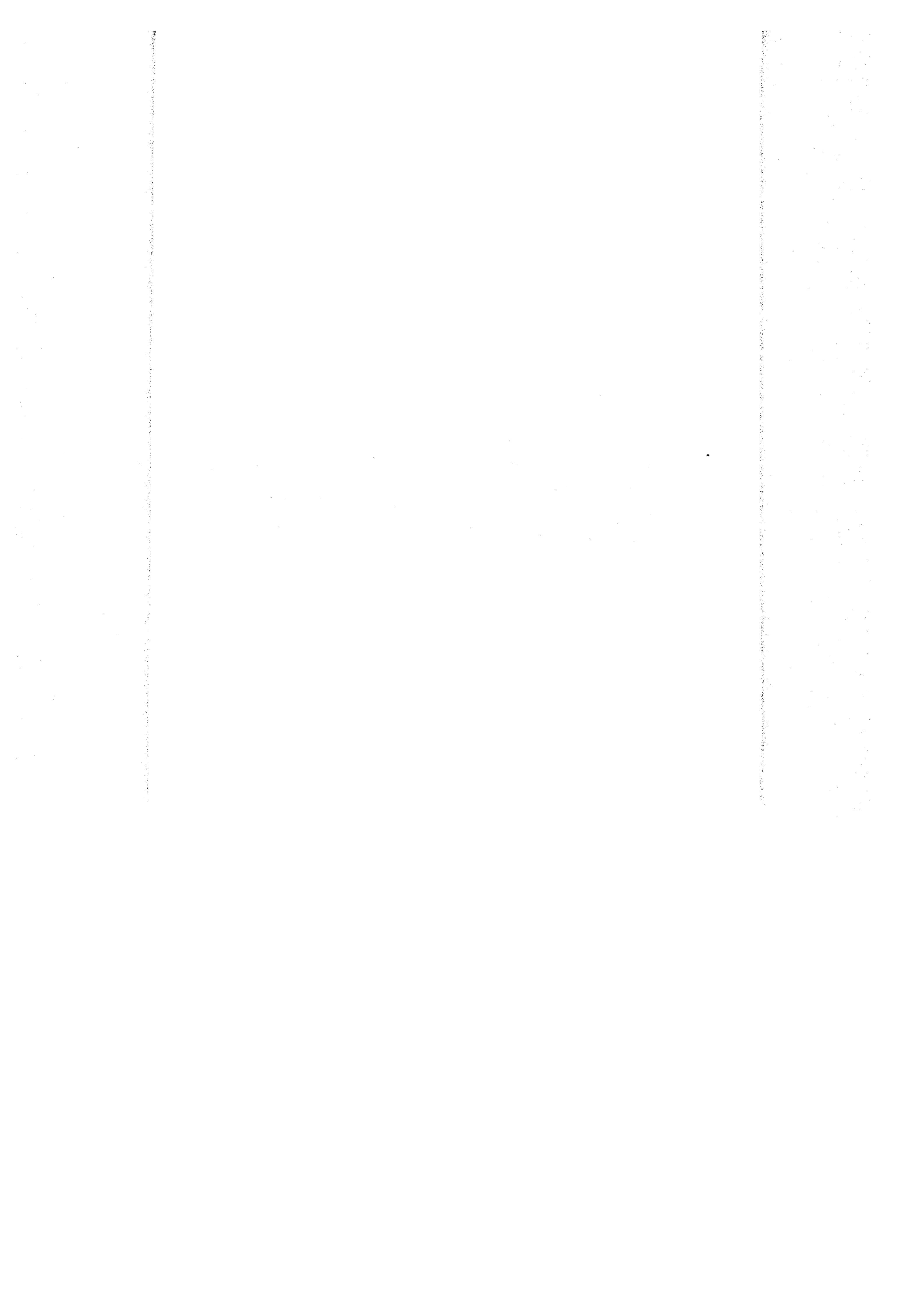
(سوف يشجع على قيام حركة عالمية متزايدة للمعلومات تنشأ عنها فوائد ملموسة تماما أفادت حركة التجارة المتزايدة بين بلدان أوربا الغربية. إن توزيع المعرفة من خلال مثل هذا النظام سوف يوفر حافزا للنمو والتوسع أكبر بكثير من أى برنامج يمكن تصوره للمعونة الاقتصادية).

(إنه يستطيع أن يقدم للجمهور فى أى بلد ألوان الترفيه المختلفة، وبرامج الثقافة والمعلومات المنتجة فى الخارج كحدث يومى عادى وليس بوصفه شيئا نادرا الحدوث...).

(وحيث إن عملية نقل البيانات والمعلومات تصبح أرخص فأرخص، لذا فسوف نشهد استخداما أوسع لعمليات التحكم المبرمجة بالكومبيوتر، بل سنشهد أيضا معالجة أكثر من برنامج فى نفس الوقت عن طريق الكمبيوتر من مسافات بعيدا بهدف تدعيم أوضاع الشركة متعددة الجنسيات بوصفها أداة لنقل التكنولوجيا. والواقع أن الزيادة المتحققة فى الإنتاج والإنتاجية، نتيجة للتدفق العالمى للمعلومات التجارية والصناعية، يمكن أن توازى كل ما أحرز من تقدم اقتصادى فى السوق المشتركة خلال العشرين عاما الماضية).

ومن الواضح أن كل ذلك ممكن الحدوث فى غياب أطر دولية حقيقية للإشراف والتحكم إلى جنب مع وجود سلطة قومية مستضعفة. وفى هذا الجو تصبح الشركات العملاقة المتخطية لحدود القومية هى المقتنع الوحيد.

لقد تمثلت مصادر القوة التقليدية للاقتصاد الأمريكى القائم على الشركات العملاقة فى الإنتاج الاقتصادى، والتفوق التكنولوجى، والقوة العسكرية. واليوم يتزايد الاعتماد على السيطرة الإعلامية. إن التدفق الإعلامى المعرفى الهائل الذى تنتجه وتدعمه الشركات الأمريكية فى الخارج يسهم بقوة فى الصيانة الداخلية، والتوسع الكونى للنظام التجارى الصناعى ولقيمه السائدة.



توجيه العقول فى بعد جديد: من قانون السوق إلى السيطرة السياسية المباشرة

(من السمات الأساسية لأسلوبنا فى الحياة إيماننا بأنه عندما يعمد الحكام إلى الإستئثار المنظم بالمعلومات، التى هى حق خالص لجمهور الشعب، فإن أفراد الشعب سرعان ما يصبحون فى وضع يجهلون معه كل ما يتعلق بشؤونهم الخاصة، كما سيفقدون الثقة فى هؤلاء الذين يسيرون أمورهم، وسيفتقرون فى نهاية الأمر إلى القدرة على تحديد مصائرهم الخاصة).

ريتشارد نيكسون

نيويورك تايمز

٢٢ نوفمبر ١٩٧٢

على زعم أننا نميل دائما إلى الاعتماد بأن (أحرار الرجال) وجدوا فى زمن ما أو فى مناخ ما، فإن إخضاع وقهر أغلبية البشر مثل القاعدة على مر العصور. ولقد تم ذلك الإخضاع أو القهر بوسائل مختلفة حسب طابع كل مجتمع وحاله، أو مستوى فنون القمع والموارد المتاحة لهؤلاء الذين يسيطرون على الحكم. وكان الهدف الرئيسى بوجه عام هو الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الناتج الاجتماعى للأقلية المتميزة، مع ترك ما يكفى لضمان استمرار قوة عمل الأغلبية الأقل حظا. ولآلاف عديدة من السنين، ظلت الندرة، وما يصاحبها من إكراه بدنى، هى المنظم المعتمد فى الأغلب الأعم للسلوك الإنسانى. وفى القرون القليلة الماضية، وفى تزامن مع ظهور الصناعة الحديثة، تطور نظام أكثر تعقيدا للسيطرة والإخضاع. فقد أتاح ظهور مجتمع السوق وضعا اجتماعيا أكثر تحررا، إلا أن هذا الوضع أدى بالشعب العامل إلى أن يعتمد بصورة مطلقة على دخل هو عبارة عن أجر لعمل ليس الحصول عليه مكفولا بصفة دائمة.

ورغم أن هذا الشكل من التصنيع لم يتغلغل بعد إلى كل أرجاء العالم، فقد أدى بالفعل إلى تغيير طابع تلك الأماكن التى وصل فيها إلى أعلى درجات تطوره. وفى الولايات المتحدة على وجه الخصوص، وأيضا فى أوربا الغربية واليابان بصورة متزايدة، تتحرك الدولة الصناعية إن لم يكن فى مسار جديد تماما، فهى تتجه على الأقل وجهة تختلف اختلافا ملموسا عن اتجاهها خلال المرحلة الأولى لنموها ونضجها. لقد بلغت الإنتاجية معدلات عالية، وأصبح الناتج الاجتماعى الذى جرى توسيعه، والذى يعكس الفوضى التى تسم عملية إنجازه، غير قابل للاستيعاب أكثر فأكثر، ورغم ذلك لا يزال يوزع بصورة غير متكافئة بالمرة.

وقد اضطر النظام الصناعى الغربى، فى الوقت ذاته- نتيجة لإدراكه المتنامى لضعفه الخاص، واحتياجاته الناشئة عن الكوارث الاجتماعية التى

شهدها الثلث الأول من القرن العشرين- إلى البحث فى مبدأ تدخل الدولة، وإلى الأخذ به لكى يحافظ على مسيرة نشاطه دون عوائق لا تحمد عقباها. ومع تقدم وسائل التنظيم والتحكم نمت البيروقراطيات الحكومية كما نمت طبقة دائمة التوسع شاغلها الأساسى هو الحفاظ على التوازن الاقتصادى (والسياسى). كذلك جلب النظام المتقدم معه المزيد من الاعتماد على التكنولوجيا، وعلى هؤلاء الذين دربوا على الابتكار أو الإنتاج أو العمل من خلال معدات وعمليات تشغيل أكثر تعقيدا.

وبعد الحرب العالمية الثانية، أصبح الاقتصاد الأمريكى أول اقتصاد تستخدم فيه النسبة الأكبر من القوة العاملة فى الخدمات وليس فى الإنتاج. فالعمال الكتابيون، والإداريون، وعمال البيع والخدمة يفوق عددهم فى الوقت الحاضر عدد عمال الصناعة، والزراعة، وغيرهم من عمال المجال الإنتاجى، والاتجاه فى حالة استمرار، إن لم يكن فى حالة تسارع. وتبدو النتائج المترتبة على ذلك، فى التقويم الأول، سيكولوجية- ثقافية أكثر منها اقتصادية.

ويصف بيتر دروكر المستخدم أو العامل فى هذا الظروف الجديد بأنه (العامل المؤهل عمليا.. الخلف لأجير الأمس، أى العامل اليدوى، سواء كان ماهرا أو عاديا). ويلاحظ دروكر أن ذلك يمثل ترقيا جوهريا وبالغ الأهمية، ولكنه يرى أن هذا الترقى (ينشأ عنه صراع لا حل له بين التراث الخاص للعامل المؤهل وبين وضعه بوصفه مجرد أجير).

ويذهب دروكر إلى أن هذا الصراع تنشأ عنه مشكلات خطيرة نظرا لأن العامل المؤهل (يعتبر نفسه مجرد مهنى آخر، لا يختلف فى شئ عن المحامى، أو المدرس، أو الواعظ، أو الطبيب، أو موظف الأمس القريب. فهو حاصل على نفس الدرجة من التعليم، وهو يحصل على دخل أعلى). لكنه يبقى رغم ذلك مجرد منفذ للأوامر، يملأ خانة مجهولة فى خريطة تنظيم مؤسسة ما. وقد زالت عنه غشاوة سحر أو وهم الوضع المتميز الذى هيأه له تعليمه نتيجة

للخيارات الضيقة المتاحة أمامه، والتى لم يبق منها شئ باستثناء الدخل. وفضلا عن ذلك فهو أكثر وعيا من سلفه بالخطوط العامة لوضعه الثقافى. وبالتالى يظهر مأزق جديد تماما فى الدولة الصناعية المتقدمة التى تحكمها متطلبات السوق. وهو ما يصوره دروكر على النحو التالى: (إن التعارض بين تطلعات العمال المؤهلين علميا وبين واقعهم سيزداد حدة ووضوحا سنة بعد أخرى، وسوف يجعل إدارة العمال المؤهلين عاملا حاسما بصورة متزايدة فيما بيتعلق بإنجاز وتحقيق مجتمع المعرفة... ومن المرجح أنها ستمثل القضية الاجتماعية الأساسية للبلدان المتقدمة فيما تبقى من القرن العشرين وربما الحادى والعشرين أيضا).

ويصل إدوارد. هـ كار، فى دراسته المستفيضة لنفس الحقل أى حقل الصناعة، من خلال ما يمكن تسميته بالمنظور الاشتراكى، إلى نتيجة مماثلة لما توصل إليه دروكر. إلا أن كار يتطلع إلى مستقبل أقل انطواء على النمو التضليلى. فقد كتب يقول:

(إن العادات الاجتماعية وحوافز العمل السائدين فى الفترة السابقة على العصر الصناعى لا يمكن لهما أن تعودا من جديد. ومع ذلك فإن كل ما استطعنا أن ننجح فيه حتى الآن هو أننا دمرنا الفلسفة والعادات والحوافز التى جعلت عجلات الصناعة تدور طوال قرن من الزمان، دون أن نحل محلها أى شئ آخر. إن المهمة المطروحة الآن فى إنشاء فلسفة جديدة تشجع وتحث على ظهور عادات إجتماعية جديدة فى العمل).

إن دروكر، الذى لايبدى إعتراضا على النظام الاجتماعى، يرى أن المهمة المطروحة تتعلق أساسا بالسيكولوجيا التطبيقية. بينما تتبنى تطلعات كار فى النهاية على إعداد تشكيل أهداف المجتمع وأسسه التنظيمية.

ويقرر دروكر بأن الوسائل اللازمة (لإدارة) العمال المتعلمين ما زالت

• كلمة (السوقى) هنا نسبة إلى لـ سوق (م).

تتعين صياغته. إلا أن من الأهمية بمكان أن وسائل التعامل مع العمال اليدويين والفئات التى لم يبلغ المستوى العالى المتخصص من التعليم فى الدولة الصناعية المتقدمة معروفة جيدا، ومؤثرة للغاية، وجار تطبيقها بصورة مستمرة. فوسائل الإعلام، وفى مقدمتها التلفزيون والإذاعة، تمثل أدوات بالغة الفاعلية للتأثير فى القوة العاملة التقليدية وإحكام السيطرة عليها فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى النظم الإقتصادية المصنعة فى أوربا الغربية أيضا. وفضلا عن ذلك فإن الدولة الصناعية إلى مرحلة التسيير الآلى الذاتى الكامل automation والبرمجة الآلية الشاملة أو (الحوسبة) computerization، حيث تتشكل القوة العاملة بكاملها من عمال مؤهلين علميا، لا تزال أمامها بضعة عقود من السنين. وبالتالى فإن القوة العاملة التقليدية بغلبيتها العددية تظل موضع الاهتمام الرئيسى يوميا للنظام السائد. وتقوم الإعلانات- التى تثير بكفاءة عالية حاجات عند جمهور المشاهدين (وبالتالى تشجع العامل على العمل لأوقات إضافية من أجل تلبية تلك الحاجات)- بمهمتها فى تعزيز أيديولوجية (مستوى المعيشة) ذات الأثر الفعال والتى توفر الدعم واسع النطاق للنظام الصناعى فى صورته الحالية فى الولايات المتحدة.

وتتمثل الوظيفة الأساسية للجهاز الإعلامى فى مجمله- بداية من قنوات النزعة التجارية بوسائل الإعلام واستطلاعات الرأى التى يجرى أغلبها رجال التسويق وحتى نظام التعليم الرسمى والبنى شبه التعليمية- فى خلق حال من القبول الشعبى بأهداف وقيم (الاقتصاد السلعى). وهى مهمة تتم تأديتها بدرجة من النجاح يتعين معها أن يركز المشاهد أو المستمع انتباهه بعناية شديدة لكى يتمكن من تبين النقطة التى تنتهى عندها (رسالة) البيع لتبدأ المادة (الترفيهية) فى أغلب البرامج المذاعة. ويعرب العديد من الدارسين المهتمين بالحقل الاجتماعى عن شكوكهم فى إمكان التغلب على هذا (التكييف) ذى القدرة التأثيرية الهائلة. فجورج ليختهيم ينكر، على سبيل المثال، أن

الطبقة العاملة قد يتم (إفسادها) من خلال (الرغبة فى تملك السلع الاستهلاكية) ومع ذلك فهو يصل إلى نتيجة مؤداها أن المساواة وصنع القرار على المستوى الاجتماعى لا يشغلان حيزا ملموسا من اهتمام الأغلبية الشعبية، التى (تشغلها (أكثر) المسائل الاقتصادسة البسيطة، أو على وجه الدقة: العمل المضمون ليوم كامل، والارتفاع المتدرج لمستواها المعيشى).

ويلاحظ ريموند ويليامز، فى دراسة له حول أوضاع بريطانيا مع بداية السبعينيات، نفس السمة فى الأغلبية الشعبية ويحاول أن يفسرها على النحو التالى:

(هناك نوع من الفقر المترسخ والإهمال، وخلق أشكال جديدة ومنهجية من السيطرة والتوجيه، فى اتجاه غايات اجتماعية محكومة بأفق ضيق ومحدود، فى الوقت الذى تقف فيه الدولة والقانون على أهبة الاستعداد الكامل، وهو ما يتضح بقوة فى الوقت الحاضر، للتعامل مع الأقليات المحتجة. ذلك هو النظام الذى ندعى للاحتفاء به، وممارسة خيارات هامشية داخل إطاره. إن شغله الشاغل هو إبعاد وتنحية الصراعات، والسيطرة عليها وتوجيه المجتمع نحو تعريفات زائفة تعاد مرارا وتكرارا بحيث تبدو كما لو أنها الشرط الوحيد للمعقولية. أما الممكنات الأخرى فتبدو، ليس ظاهريا فحسب وفعليا على المدى القصير، غير عملية، للدرجة التى لا تستطيع معها سوى الشبان الصغار الإيمان بصحتها.

إننا نكتشف مرة أخرى أن القدرة على رسم حدود الواقع وعلى وضع جدول الأعمال الاجتماعى للجماعة على وجه الإجمال، هى مفتاح السيطرة الاجتماعية، وهو ما يلاحظه كل من جيرى روبين والسيناتور فولبرايت، فقد كتب الأول يقول: (إن القدرة على رسم حدود الواقع هى القدرة على السيطرة)، فى حين يرى الثانى أن (عملية نقل المعلومات هى السلطة، واستئثار فئات معينة بحق الوصول إليها، أو التعامل معها يمثل نوعا من

السلطة خطرا وعنيدا). وقد انعقدت السيطرة القائمة على سلطة رسم حدود وملامح الواقع، فى أمريكا (حتى وقت قريب على الأقل) للمهيمنين على أجهزة الإعلام وخدماتها المعاونة، أى: العلاقات العامة، والإعلان، واستطلاع الرأى، والبنى شبه التعليمية المختلفة.

إن ما يشاهده الناس وما يقرأونه، أو ما يستمعون إليه، وما يرتدونه وما يأكلونه، والأماكن التى يذهبون إليها، وما يتصورون أنهم يفعلونه، كل ذلك أصبح وظائف يمارسها جهاز إعلامى يقرر الأذواق، والقيم التى تتفق مع معاييره الخاصة التى تفرضها وتعززها مقتضيات السوق.

ويصف دانييل بل المعرفة بأنها (مورد استراتيجي) ثم يطرح التساؤل التالى (ومثلما هى الحال مع كل الموارد، تصبح القضية هى من الذى يسيطر على هذا المورد، ومن الذى سيتخذ القرارات اللازمة فيما يتعلق بتقسيم الحصص؟). ويبحث بل عن (توازن بين المعرفة والسلطة يتيح إمكانية التوضيح المفصل للعناصر التكنولوجية وأبعاد التكلفة، وتوسيع مجال الخيارات والتحديد الواضح للسياق المعنوى، أو الأخلاقى للاختيارات بحيث يمكن اتخاذ القرارات بصورة أكثر وعيا وبإدراك أكبر للمسؤولية).

غير أن الفشل فى تحقيق هذ الشرط هو ما يسبب دون ريب، إحباطا للعديد من الناس. فالقدرة على استخدام المعرفة أخلاقيا وإنسانيا، بحيث تكون كل النتائج المترتبة على صنع القرار متاحة للدراسة المدققة والمسبقة، هى على وجه الدقة ما يفعل نظام السيطرة فى الدولة الصناعية المتقدمة التى توجهها متطلبات السوق كل ما فى وسعه، خاصة من خلال أجهزة الإعلام، من أجل تحجيمها. ويفعل النظام ذلك ليس لأن صنّاع القرار سيئو القصد بصورة متعمدة، بل لأن الاعتبارات الاجتماعية بعيدة المدى تتعارض دائما مع المزايا القريبة، واقتصاد السوق يقوم أساسا على التحقيق الفورى للمصلحة الشخصية.

وعلاوة على ذلك فإن آليات النظام فى مجاله يجرى تشريبها عميقا داخل قيم ومجريات تفكير جمهور الناس، الذين رصوا وعوداً منذ البداية وبصورة تتكرر باستمرار على أن يترجموا أوضاعهم الشخصية إلى حساب قومى للربح القريب. وهو ما يفهم فى الوقت الحاضر على أنه موقف وعقلية ما يسمى (بأمريكا المتوسطة). على أن ذلك لا يوضح طبيعة أوضاع الإضافات الأحدث لقوة العمل المؤهلة أو الذين يدربون للالتحاق بها. فهذه الفئة، والتى تشكل فريقا كبير العدد ومتزايد النمو (فعدد الطلاب الجامعيين وحده يفوق الآن نصف عدد عمال التصنيع على المستوى القومى) بدأت تخلق نظاما مختلفا تماما للقياس الاجتماعى، إلى حد أن القضية التى يتنبأ دروكر بأنها ستشكل مشكلة المستقبل- أى (القدرة على إدارة) العمال/ المتدربين المؤهلين- قد أصبحت بالفعل أزمة الحاضر.

على أن هناك إجماعا، وأيا كانت زاوية النظر، على أن الشباب الحاصل على تعليم فوق المتوسط والمنتمى إلى أسر دخولها فوق المتوسط قد بدأ يشعر بسخط على مجتمع (الإعلام- الترفيه) الذى تسوده دوافع الكسب التجارى. ويقدر ليام ماك جيل، رئيس جامعة كاليفورنيا، أن (نسبة تتراوح بين ثلث ونصف الطلاب فى الوقت الحاضر يمكن إدراجهم فى فئة الساخطين). كذلك اكتشفت دراسة أرسلت إلى لجنة الرئيس لاضطرابات الجامعة أن (الأغلب الأعم من طلبة الجامعة يؤمنون بأن نوعا من المواجهة. أو التحدى هو شئ ضرورى وفعال فيما يتعلق بتغيير المجتمع)، وأن (ثلاثة أرباع الطلبة يوافقون على الرأى القائل إن الولايات المتحدة هى أساسيا مجتمع عنصرى). ويفهم «ستوتون لند» الموضوع على النحو التالى:

(يحاول التعليم تكييف الشبان الصغار (لتلك) الحياة العلمية الخانعة وغير الإنسانية، وبالتالى تصبح هذه الحياة هى الهدف المرجو. لقد حدث التوسع السريع فى التعليم العالى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نتيجة

التغير التكنولوجي الذى شهدته الصناعه. وتتطلب الصناعة القائمة على التسيير الآلى الذاتى.والبرمجة الكومبيوترية المزيد والمزيد من الشبان والفتيات الذين يملكون مهارات ذوى الياقات البيضاء، والذين يتصرفون فى الوقت ذاته بانقياد وخضوع ذوى الياقات الزرقاء. وفى الجامعة الكبرى، التى يتدرب فيها قسم كبير من طلابنا الجامعيين البالغ عددهم ٧ ملايين طالب. تكرس معظم البرامج لتخريج الإمتثال الماهر تقنياً. فالطالب، شأنه شأن العامل الذى يعد الطالب ليؤدى وظيفته، يستخدم عقله ويستخدم يديه، ولكن على نحو غير مبدع، ودون أى مبادرة من جانبه، بل فى حدود ما تقرره التعليمات الصادرة من رؤسائه. فذلك هو حال التعليم العالى الحديث. لكن الطلاب يطالبون هؤلاء الذين يصدرون لهم الأوامر بأن يمارسوا الرئاسة على أحد غيرهم. لقد قرروا أن يرفضوا أن ينحنوا أو أن يساقوا كالقطيع أو أن يكونوا عرضة للتدجين أو أن يعوق نموهم).

ويرجع تيودور روزاك وآخرون، فى ضوء تصنيفهم لرفض القيم الأمريكية السائدة على أنه ثقافة مضادة)، هذه المعارضة الشبابية المتضخمة إلى جو الصرامة، وروح الامتثال المفروضين على المجتمع بفعل التكنولوجيا. ويهاجم روزاك ثقافة التأثير المضلل بوصفها النتاج الحتمى لتطور تكنولوجيا مندفعة وهائجة. وفى حدود هذه الوجهة من النظر لا يوضع فى الاعتبار التنظيم الاجتماعى النوعى الذى يحدد طابع التكنولوجيا ونوعية تطبيقاتها.

ومن الغريب أن ثقافة الانشقاق التى يؤيدها روزاك تتعرض هى ذاتها لنفس التشويهات التى يعانى مجتمع (الولاء) منها نتيجة لتشبعه بالتكنولوجيا. فأسلوب الحياة الجديد للشباب أصبح نشاطا مدرا للربح. إذ أصبحت مهرجانات الروك، وترويج الأسطوانات، البدع الجديد فى الغناء والثياب، مجالا خصبا للمشروعات التجارية لذلك القطاع من الرأسماليين المهتم بآخر تقليعات العصر، بل إن (التحرر ذاته أصبح سلعة تباع. وهكذا تصبح

(الحركة) هى السوق. من الواضح إذن أن التكنولوجيا ليست هى وحدها التى تخضع لنظام اجتماعى بعينه، بل وأنواع معينة من نقد النزعة الصناعية.

ومع ذلك فإن (الثورة الثقافية) فى أمريكا، رغم أوجه قصورها وافتقارها إلى الاستقلالية، تقوض بالتدريج دعائم القيم التقليدية لمجتمع القواعد المرعبة. فالعمل، والانضباط والتدرج المراتبى، والقهر فى حال تعرض دائم للهجوم. كما أن المشروعات الخاصة التى تستغل النظرة الجديدة والأسلوب الجديد للحياة لتحقيق أرباح طائلة تسهم هى الأخرى فى كشف النظام المقرر للحياة الإجتماعية، وفى تحرير التيار الإنفعالى والعاطفى العام لا يستطيع أحد أن يتنبأ بصورة يقينية بمساره.

لقد أصبح الإستخدام الآلى المُسَّير ذاتياً (الأتمتة)، التى سيؤدى فى النهاية إلى الاستغناء التام عن العمل البشرى العادى، أمراً وشيك الحدوث (بالمعنى التاريخى على الأقل)، وبدأ الوعى الشبابى يتوصل بالفعل إلى إدراك إمكانية التخلص نهائيا من الطبيعة القسرية (أو الإكراهية) للعمل. ونظرا لأن التدابير المؤسساتية السائدة لا تبدى أى نوع من التكيف مع هذه الإمكنية التكنولوجية الجديدة تماما، لذا فإن الصراع يندلع على المستوى السلوكى الشخصى (الثقافى)، مغطيا على- بل مستبعدا الفترة من الزمن- القضايا الاقتصادية الاجتماعية الأعمق والتى تشكل أساس التمرد الثقافى.

وفى الستينيات، كانت الأمة تبدو كما لو أنها ضاع منها شبابها فى نوع من العدمية الحسية الممزوجة بألوان من العنف واللاعقلانية. ثم شهدت بداية السبعينيات جوا أكثر هدوءا إلى حد من، إلا أنه هدوء مضلل. وعلى أى حال فإن النظام الاقتصادى- الاجتماعى الصارم، والمشبع بتكنولوجيا متفجرة، والذى يقاوم مع ذلك أى تغير بنيوى، هو الذى يفسر النطاق الشديد التقلب لإنفعالات الشباب.

إن أعدادا متزايدة من (العمال/ المتدربين) المتعلمين لا تستطيع أن تقبل بالمنطلقات الأساسية الاقتصادية السلع. فقد أثار تعليمهم وتجاربهم فى نفوسهم، على رغم محدودية هذا التعليم وتلك التجارب، الكثير من الشك حول مجتمع يطرح كل شئ للبيع ويثمن الإنسان، رغم ادعائه العكس، فقط بوصفه شيئا يأتى بعد ذلك. ومما يبعث على الاستغراب أن أجهزة الإعلام هى مصدر هذا الإكتشاف ذى الأثر المدمر. فنفس أجهزة الإعلام التى تنتج، أو تعزز على الأقل، أفكار (الرجعيين)، تقنع أيضا العديد من الشباب، الذين تتيح لهم تجاربهم وثقافتهم الاختيار المدقق لما يقدمه مجتمع الاستهلاك، بتفاهة قيم النظام القائم وأثرهم الهدام على المستوى الشخصى. لقد أدت ميزانية الإعلان الخاص، والتى تبلغ ٢٣ بليون دولار سنويا، عملا فعالا، وإن لم يكن مقصودا، يتمثل فى تنبيه هؤلاء الذين أفلت تفكيهم من التشوه الكامل فى مرحلة مبكرة من العمر إلى الطابع الحقيقى لأسلوب الحياة الأمريكى.

ذلك إذن هو المأزق المتفاقم الذى يواجهه اليوم مديرو أجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة. فسياسة عدم التدخل فى شؤون أجهزة الإعلام ترسخ انقسام (العمر-الدخل) داخل الأمة وتجعل (إدارة) التمدربين المتعلمين عملا متزايد الصعوبة. بينما تؤدى سياسة التدخل الحكومى إلى إثارة البلبلة وإمكانية قيام صراعات اجتماعية أكثر عمقا وتعقيدا وإن ظلت مستترة. على أن الوضع الاجتماعى المشحون بالتوتر يستبعد تماما سياسة عدم التدخل، وبالتالى فإننا نواجه المؤشرات الأولى للتدخل الحكومى المعتمد فى العملية الإعلامية للأمة. فالقرارات المتعلقة بحقل الاتصال والإعلام أصبحت أكثر اصطباغا بالطابع السياسى وبالتالى أقل إتصافا بالطابع التجارى. رغم أن تلك العملية لا تزال، بطبيعة الحال، تحدث بصورة غير منتظمة. لكن الاتجاه أصبح ملموسا وتحدثت عنه مصادر عديدة بلهجة متفائلة بوصفه أحد مصادر النشاط التجارى فى المستقبل. فقد تنبأ أحد موظفى شركة مجروهيل للنشر،

على سبيل المثال بأن الحكومة، التى أصبح يتعين عليها أكثر فأكثرأن تحكم برضاء الناخبين، ستدخل الحقل الإعلامى بكل ثقلها، وستتعلم كيف تتكلم لغة الشعب، وسوف تستخدم الإعلان لكى تبيع (منتجاتها).

ولكى يتم ذلك، دون أن ينشأ جو من الخوف والقلق يعم الأمة كلها. فإن الأمر يتطلب أولا وقبل كل شئ توعية الشعب بأوجه قصور أجهزة الإعلام التجارية. وذلك هو الإسهام الخاص لنائب الرئيس (أجنيو)، وللحلقة الضيقة من العالمين ببواطن الأمور والذين تتشكل منهم هيئة العاملين لدى الرئيس نيكسون داخل البيت الأبيض. فاتهاماتهم الموجهة لأجهزة الإعلام تمثل سعيا تمهيديا لتهيئة الأمة للتدخل الحكومى الصريح فى العملية الإعلامية من حيث أن النظام صريحا بصورة تثير الدهشة، وهو نقد صحيح جزئيا فقط لوسائل الإعلام الخاصة، التى ظلت حتى الآن، فى نظر الدوائر الحكومية، نظاما ترفيهيا وإخباريا موضوعيا. والآن ما هو نائب الرئيس يحدثنا عن تحكم شبكات التلفزيون فى نوعيات الأخبار والبرامج، وهو ما يؤدى فى رأيه إلى الوضع التالى.

(فالأنباء التى يتلقاها ٤٠ مليون أمريكى كل ليلة يتحكم فيها حفنة من الأشخاص، المسؤولين فقط أمام مستخدميهم فى الشركة المالكة. ويتم تصفيتها على يد حفنة من المعلقين لا يأخذون إلا بما يتفق مع تحيزاتهم.. (إن هناك) احتكارا فعليا للجهاز الإعلامى فى مجمله.. (وهناك أيضا) اتجاه إلى احتكار أدوات الإعلام العام الكبرى (الصحف) وتركيز السلطة أكثر فأكثر فى أيد أقل فأقل.. (ونتيجة لذلك)، لم يعد هناك مجال لذلك الإيمان الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم).

إن الصورة التى يقدمها نائب الرئيس لا تنطوى بالتأكيد على أى مبالغة، رغم أن أجنيو يتصور، وقد تجاهل سجلا زاخرا من النقد المشابه لنقده والمنطق من زاوية مختلفة، أنه أول من لفت الأنظار لهذه الأوضاع.

وإذا كان هناك فرق بين زاويتى النظر، فهو أن جهاز الإعلام يخضع لسيطرة أشد إحكاما مما يصوره أجنيو ورفاقه. ذلك أن الأمر لا يقتصر على مجرد نفوذ النيويورك تايمز أو الواشنطن بوست، رغم أهمية هذه الصحف كلسان حال للرأى العام. فالافتقار الواضح إلى الأصوات المنافسة، فى مجال الصحافة، قد بلغ الآن نقطة النهاية. وقد كتب أحد الدارسين المهتمين منذ فترة طويلة بهذه المسائل يقول:

(ففى حين بلغت نسبة المدن ذات الصحيفة اليومية الواحدة، عام ١٨٨٠، ٣٨٪ وكانت هناك مدينة واحدة بها مجموعة صحف مملوكة لشخص واحد، فإن ٨٥,٦٪ من المدن تملك فى الوقت حاضر صحيفة يومية واحدة. فإذا أضفنا المدن الـ ١٥٠ التى تصدر فيها صحيفتان يوميتان مملوكتان مشتركة، إلى المدن ذات الصحيفة اليومية الواحدة البالغ عددها ١٢٨٤ مدينة، فإن عدد المدن التى تخلو من أى صحف يومية محلية منافسة من الوجهة التجارية يرتفع بحيث تصبح سوى ٤٥ مدينة من بين الـ ١٥٠٠ مدينة التى تصدر فيها صحف يومية، توجد بها صحيفتان أو أكثر تتنافس تجاريا، ومن بين هذه المدن الـ ٤٥ هناك مدينتان أو ثلاث مدن فقط توجد بها أكثر من جهتين تملكان صحفا يومية واسعة الانتشار).

وليست وسائل الإذاعة والتليفزيون بأقل تركيزا. فرغم وجود ما يزيد على سبعمائة محطة للتليفزيون التجارى وأكثر من ٦٧٠٠ محطة إذاعة تجارية فى البلاد، فإن السيطرة تزداد تركيزا على نحو هرمى عبر الملكيات السلسلية *، والممتلكات الإعلامية المختلطة (المحطات المالكة لصحف يومية) وأخيرا، وهو الأكثر أهمية، مرور أغلب البرامج التلفزيونية خلال قنوات شبكات رئيسية لا توجد محطة محلية واحدة لا تتبع إحداها. وفضلا عن ذلك، فإننا نجد فى حال التليفزيون، وهو الوسيلة الإعلامية الأحداث والأكثر تأثيرا. إن قاعدة

* أى حصص ملكية مختلفة فى أكثر من مشروع أو مؤسسة تملكها شركة واحدة (م).

ضيقة من السيطرة قد وجدت منذ البداية. فالذين حصلوا على التراخيص الأولى، والتى منحت عام ١٩٥١ عن طريق لجنة الإتصالات الفيدرالية، ظلوا دائما فى مركز صنع الأرباح وتزعموا عملية تركيز الممتلكات.

لقد أنتجت التقنيات العادية للسوق بنية صناعية فى وسائل الإعلام لا تختلف فى شئ عما يناظرها فى قطاعات النشاط التجارى الصناعى الأخرى. ويلفت أجنيو، نائب الرئيس، الأنظار أيضا إلى ما يلى:

(لو أن مجمعا للشركات تم إنشاؤه بدمج شركتين إحداهما للأحذية، والأخرى تنتج القمصان، فسوف ترتفع بعض الأصوات، وربما كان لها الحق فى ذلك، للقول إن ذلك يمثل حظرا كبيرا على اقتصاد الأمة وأنه ينبغى فسخ هذا الاندماج. ومع ذلك فإن هناك شركة واحدة، فى عاصمة الأمة، تسيطر على أكبر صحيفة فى واشنطن، وعلى واحدة من محطات التليفزيون الأربع الرئيسية، ومحطة إذاعية متخصصة فى الأخبار، وعلى واحدة من المجلات الإخبارية الثلاث الرئيسية...).

وباختصار نقول: إن وسائل الإعلام، خاصة الإذاعة والتليفزيون، تمثل مشروعات تجارية عالية الربحية. ومن بين كل أجهزة الإعلام، باختلاف درجات ربحيتها، يعد التلفيزيون آلة هائلة لجمع المال.

وتوفر الربحية العالية ورعاية الكونجرس لملاك الوسائل الإعلامية وضعا شديد التميز فى اقتصاد البلاد. على أن الأكثر أهمية فى هذا الصدد هو ذلك الدعم الذى لا غنى عنه الذى توفره أجهزة الإعلام للنظام التجارى- المالى بوجه عام، بتعزيزها أهداف السوق فى كل موقع.

لماذا يتعين إذن الهجوم على الجهاز الإعلامى الحيوى للنظام الإدارى- الصناعى من جانب قيادات هى مجندة أصلا من جانب المشروع الخاص لرأسمالية الشركات العملاقة وتدين بوجودها له؟ لماذا أصبح متعذرا الاعتماد

عليه فى القيام بما كان يقوم به دائما فى الماضى على خير وجه- أى فى كفالة الارتباط الوثيق لجمهوره القومى بالوضع الراهن؟ الواقع أن التقنيات العادية للسوق تقدم تفسيرا جزئيا. كما أن هناك أسبابا إضافية مصدرها الطبيعة المتغيرة للمناخ السياسى- الاجتماعى فى الولايات المتحدة. فلنتناول أولا العامل التجارى.

لا يختلف أحد على الإسهام الضخم الذى تقدمه وسائل الإعلام لتعزيز إنتاج وتوزيع السلعة الأمريكية. فالتليفزيون هو أفضل مروج للسلع، على حد قول آرثر نيلسن، مؤسس منظمة بحوث التسويق الشهيرة. كذلك يلاحظ ج. ك. جالبرايت أن النظام الصناعى سيصبح (لخبطة) مشوشة من دون الآلة الخالقة لصور السلع الاستهلاكية على الشاشة الصغيرة. ومن النتائج المترتبة على الانشغال الدائم لقنوات الترفيه- الإعلام بأمور التسويق أن النشرات الإخبارية وبرامج المعلومات أصبحت تعامل هى الأخرى بوصفها سلعا. وهو ما يصوره سير وليام هايلى، المدير العام السابق لهيئة الإذاعة البريطانية، على النحو التالى: (تأتى الأخبار، شأنها شأن أشياء أخرى عديدة فى الحياة الأمريكية الراهنة، فى مرتبة تالية لعملية البيع، فالأخبار يتم استخدمها، فى الواقع، بوصفها نوعا من الترفيه).

إن مذيعى الأخبار والمعلقين هم أولا وقبل كل شئ رجال بيع. والمنافسة قائمة على جذب جمهور المشاهدين لمتابعة الأخبار تماما كما هى قائمة فى كل البرامج الأخرى، نظرا لأنه يتعين بيع الإعلانات لتعزيز وضع (البرنامج)، وأيضا، وهو سبب أهم، لأن فقد المشاهدين فى السادسة مساء ربما يعنى أيضا بالنسبة لمذيع الأخبار المتنافس فقدهم فى ساعات الوقت الممتاز، ذى السعر الأعلى، للبرامج التالية. لذلك يجرى تشغيل الفترة الإخبارية فى ظل نفس القواعد التجارية شأنها شأن بقية البرامج. والنتيجة الحتمية لذلك هى البحث الدائب والمستعر من جانب معدى البرامج عن الإثارة والتشويق

والحركة فى تغطية الأحداث. فأين تتوافر الفرصة المواتية لذلك بأكثر مما يوفرها الكم الكبير من الأحداث اليومية الفاجعة فى عصرنا هذا؟ وفضلا عن ذلك فإن النظام الاجتماعى يعانى من تفكك واضح نتيجة لأن متاعب الأجيال الجديدة، والأجيال القديمة معا قد بدأت تتراكم، وتظهر على السطح، وتضغط من أجل الحل. فالتفسخ المدنى، والجريمة، والعنصرية، وتلوث البيئة، والحرب هى الشروط اليومية للحياة بالنسبة لعشرات الملايين من البشر*. ولابد من أن يتصف الممارس للعمل اليومى فى حقل الإعلام بدرجة لا تصدق من الغباء حتى يغفل تماماً عن مثل تلك المادة الهائلة من الجيشان الاجتماعى.

وتتضافر الشروط الفعلية للواقع الاجتماعى والدافع التجارى معا لجذب جمهور المشاهدين والاستحواذ على انتباهه من أجل تقديم صورة مضيئة نسبيا على الأقل لوضع راهن أصابه التفسخ. فمن الواضح أن الصورة ليست جميلة بحال. من هنا تلك الضجة المتصاعدة، للجمهور الآخذة فى الزيادة من أنصار الأوضاع السائدة، من أجل وقف (فبركة) أو (تشويه) الواقع، وتلك هى خلفية وابل الهجوم العنيف الذى شنه المحافظون ضد العنف المتلفز لشرطة شيكاغو إبان انعقاد المؤتمر القومى للديمقراطيين فى صيف ١٩٦٨.

إن ما يحدث الآن يمثل تنكراً ليس فقط للمبدأ المقدس والمتعلق بالتغطية الإخبارية الكاملة والمفصلة، والذى نادرا ما تم الالتزام به بصورة جدية، بل وللقاعدة التجارية المتعلقة بضرورة الحفاظ على المستوى الأعلى للإثارة لجذب جمهور المشاهدين. ويتساءل سبيرو أجنيو فى لهجة تحذيرية (... وفيما يتعلق

* يمثل المؤتمر السنوى السادس للأمن الدولى- وهو عبارة عن سوق تجارية تعرض أدوات وأجهزة المراقبة، والإنذار، والكشف والحماية [illegible] الأنواق ولمختلف الملابسات- انعكاسا يثير الاهتمام للوضع الاجتماعى الراهن فى الولايات المتحدة. انظر:

The Paranoia Market, John Stickney, Harper'(September 1972). PP. 34- 39.

بسعى الشبكات الذى لا ينتهى وراء الخلاف، علينا أن نتساءل: ما هى القيمة المستهدفة فى النهاية، أهى التوعية أم الربح؟ (التشديد للمؤلف) وما هى النتيجة المرجوة، التعريف بالأمور أم خلط الأمور؟ وما الذى يقدمه البحث الدائم عن المزيد من الحركة والإثارة والمزيد من الدراما لجمهورنا القومية من أجل السلام والاستقرار الداخليين)؟. من الواضح أن الخط الذى يهدد النظام الاجتماعى قد استفحل للدرجة التى يتوجب معها، من وجهة نظر الحكومة، الاعتراض على ما كان دائما محل تقدير من الأمة، أى عملية استهداف الربح.

ولأن التغيير البنيوى بعيد المدى غير وارد، لذا فإن السلوك التقليدى للوضع الراهن هو الذى يتعين إخفاؤه كما أمكن ذلك، وأن يجرى تجميله حيث يقتضى الأمر ذلك، كما يتعين فى كل الأحوال تحجيم حال الفوضى الاجتماعية إلى الحد الأدنى. وهو ما يقضى، فى هذه الفترة التى تشهد حالة من التخمة فى مجال الاتصال- فكل منزل فى أمريكا يمتلك على الأقل جهاز للراديو وآخر للتلفزيون، بينما يوجد فى بعض المنازل جهازان أو ثلاثة من كل نوع- حتى فى حدود الحد الأدنى من الفعالية، جهدا رقابيا وتوجيهيا واسع النطاق. وذلك الجهد على وجه التحديد هو ما تدعو إليه تصريحات، وتصرفات الحكومة فى الآونة الأخيرة. على أن العملية بدأت بالفعل فى وقت سابق على تدخل البيت الأبيض، وهى تسير فى مجراها بنجاح منذ سنوات عديدة.

لقد تمثلت المقومات الأساسية للنظام الإعلامى، على وجه العموم، فى خصائص ثابتة لا تتغير ه الدافع التجارى، والاختيار الذاتى، والتزام الموقف الرجعى، فى أغلب ممارساته. وفضلا عن ذلك فقد تم اكتساب هذه الخصائص بفعالية تامة دون أى توجيه مركزى، من خلال بنى تمارسه عملها فى إطار افتراضات ضمنية معممة وشائعة بين أصحاب الملكية، وغير موضوعة بطبيعة الحال فى اعتبار المشرفين على الإعلام. والاختلاف الذى طرأ على الموقف الآن ليس اختلافا فى الدرجة فحسب، بل يتعلق أيضا بإدخال أساليب توجيهية صريحة.

فلنتامل، على سبيل المثال، البرامج التى قدمتها الإذاعة والتلفزيون فى أعقاب اغتيال مارتن لوثر كينج. فمجملة المهنة، أى مجلة (برود كاستنج)، تضف هذه البرامج بقولبها: إن (الإذاعة والتلفزيون كانا موضع التقدير والإعجاب خلال الأسبوع الماضى بعدما يمكن وصفه بالأيام العشرة العاصفة من التغطية الأخبارية فى تاريخهما كله). فما هو السبب الذى استحقا عليه هذه التهنئة الذاتية. مرة أخرى، وبكلمات مجلة (برود كاستنج) فقد أوضح (استطلاع للرأى أجرته عدة محطات فى عدد من الأسواق الرئيسية فى المناطق التى شهدت إضطرابات مدنية، أن الموضوع الرئيس على المستوى المحلى هو كبت الحريات). ولكن كيف تجرى ممارسة هذا (الكبت للحريات) على أرض الواقع؟ فى بلتيمور، على سبيل المثال، قال مدير للأنباء (أعدت أخبار مصورة تظهر فيها رجال الشرطة وهم يطلقون النار على القناصين ورجال من البيض يحملون البنادق فى مناطق التوتر، كذلك ظهر المقاتلون من السود، لكن ما نقلته الأخبار لم يعكس بوجه عام وجهات النظر التى عبروا عنها). وفى بعض المدن ظل التلفزيون يعرض الأفلام ليلا ونهارا. وذكرت (فاريتى) بشئ من الدهشة كيف أن العديد من الوجوه السوداء ظلت تظهر على الشاشة الصغيرة لمدة أسبوع بعد مقتل مارتن لوثر كينج[1]، لتختفى تماما بعد أن مرت العاصفة

لقد استخدمت وسائل الإعلام، التى تخلت بذلك عن وظيفتها كمصدر للمعلومات، والتى لم تنجزها أبدا على نطاق واسع، استخدمت عن عمد من أجل صرف الأنظار عما حدث ومن أجل التسكين والتهدئة.

(وفى واشنطن لجأ المسؤولون إلى شاب مغن زنجى فى الرابعة والثلاثين عرف بقدرته على التأثير فى مشاعر الجمهور. وأمام كاميرات التلفزيون وميكروفونات الإذاعة، بذل جيمس براون كل ما عنده لحث جماهير السود

(١) مارتن لوثر كنج: كان زعيما للزنوج الأمريكان فى فترة الستينيات وقد تم إغتياله.

على وضع حد للقلاقل فى المدينة... اذهبوا لبيوتكم، وشاهدوا التليفزيون واستمعوا للراديو، اسمعوا بعض أغنيات جيمس براون) .

والأكثر دلالة من ذلك كله الاتفاقات الإخبارية بين مسؤولى المحطات المختلفة على تكتم أنباء الاضطربات العنصرية، فضلا عن أن الاتفاقات مع أقسام الشرطة على إراء، بل وحجب المعلومات المتعلقة باضطربات المدن قد اتسع نطاقها. ويكتشف استطلاع للرأى أجرته مجلة إعلامية أن : (حوالى ربع العدد الإجمالى لمحطات التلفزيون أيدت مثل هذا الاتفاق. وقد أوردت المحطات الكبرى (أى التى يزيد دخلها السنوى عن ثلاثة ملايين دولار) فى إجاباتها أكبر عدد من هذه الاتفاقات، ليس ذلك بالأمر المستغرب إذا ما وضعنا فى الاعتبار تفشى الاضطربات فى المدن الكبيرة. كما ذكرت إجابات ٣٩٪ من المحطات الكبيرة أنها كانت تعمل فى ظل نوع من الميثاق، أو الاتفاق غير المكتوب).

كذلك ذكر الاستطلاع مثالا للصلات الوثيقة بين مسؤولى المحطات وبين إدارة الشرطة:

(التزمت المحطات فى مدينة إنديانا بخطة أومـاها التى تنص على أنه عندما تذيع الشرطة الشفرة ٣٠، فإن على أقسام الأخبار لأن تمتنع عن نشر الموضوع لمدة ثلاثين دقيقة وإن كان فى مقدورها أن تتابع تغطيته فى الجانب الخاص بجمع المعلومات. وقد ذكرت محطة (دبليو. إف. بى. إم) أن الشرطة يمكن أن توجه الشفرة ٣٠ أكثر من مرة على التوالى، لكن محطة (بليو. أى. إس. إتش) فهمت الاتفاق على أنه يعنى منع إذاعة الخبر لمدة ثلاثين دقيقة أخرى فحسب، تصبح أى محطة بعدها حرة تماما فى تغطية الموضوع).

(وقد وصلت بعض الاتفاقات إلى أبعد من ذلك إذ تضمنت حظر إذاعة أى أنباء طوال الفترة التى يقع فيها الشغب. بينما اقتضت اتفاقات أخرى ألا تشير المحطات إلى المواقع التى تشهد القلاقل. ومن أمثلة هذه المواقع مدينة ممفيس).

لقد جرى تقنين الرقابة المنسقة على الأنباء على مستوى الوسائل المملوكة

ملكية خاصة، وعلى مستوى أجهزة الإعلام الحكومية أيضا. وفى عام ١٩٧٠، وتحسبا لوقوع أحداث شغب. نصحت الجمعية القومية لمحطات الإذاعة والتلفزيون أعضاءها فى (نداء غير المسبوق) بأن يتوخوا (العناية الشديدة فى تغطيتهم الإخبارية) للقلاقل الطلابية، أو المناهضة التميز العنصرى. وقد صيغت إدارة الأنباء بلغة مطمئنة:

(ليس من أهداف الجمعية أن تقحم نفسها فى عمليات جمع المعلومات وصياغتها فى تقارير إخبارية موثوق بها، أو فى جو الحرية الكاملة الذى ينبغى أن يدعم دائما جهود على استباق أى احتمال قبل أن يتحول إلى واقع. ونحن نأمل معكم أن تتغلب دواعى الحمة والسلام الداخلى، ولكن إذا لم يتحقق ذلك، فإن علينا أن نكون فى كامل الاستعداد. إن الصحافة الإذاعية والتلفزيونية تمثل فى الوقت الحاضر حجر الزاوية فيما تقدمه من خدمة غير محدودة للجمهور، من ثم نتحمل مسؤولية من نوع خاص جدا تقديما لأنباء اليوم).

واضح إذن أن هناك جهودا محسوبة ومخططا لها- وعلى عكس ما ذهبت إليه نائب الرئيس (أجينو) من أن وسائل الإعلام غطت أحداث الإحتجاج بصورة لا تتناسب مع حجمها- تم بذلها على أعلى مستوى لصنع السياسات الإعلامية، من أجل خفت أصوات النقد، بل وتجاهلها كما كان ذلك ممكنا، حتى فى الأوقات التى جعلت فيها أعداد الحشود المحتجة، والشخصيات المشاركة فيها من هذه الأحداث أهم أحداث الساعة إخباريا بأى معيار مهنى للتقويم أيا كان. وقد ذكرت (فاريتى) أن (المسيرات والاجتماعات الحاشدة المناهضة للحرب التى شهدتها واشنطن، وسان فرانسيسكو (فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩) لم تحظ بأى اهتمام حقيقى. أو تغطية خاصة من شبكات التلفزيون).

ولاحظت المجلة أن (أحد أهداف الهجوم الحاد اللهجة الذى شنه إسبيرو أجنيو على الممارسات الإخبارية لشبكات التلفزيون فى الأسبوع الماضى هو

محاولة إسكات أى تغطية إخبارية واسعة [illegible]ار التجميد. والواقع أنه لم يكن هناك أى داع لأن يساوره كل هذا القلق). ذلك أن الشبكات لم تكن تنوى تغطية الاجتماعات الحاشدة على الهواء. إلا أن هذا لم يكن بالتطور الجديد. فقط أجرت (فاريتى) مقابلة مع متحدث باسم إحدى الشبكات حيث أعاد إلى الأذهان:

(ذلك الموقف المشابه خلال مسيرة البنتاجون عام ١٩٦٧ عندما تم استرضاء حكومة جونسون بالإحكام عن تغطية الانفجار الشعبى العام. ففى الوقت الذى أكملت فيه شبكة (إن. بى. سى) استعدادها لتغطية المسيرة على الهواء مباشرة، طرحت شبكة (سى. بى إس) اقتراحا مؤداه أن تحجم كل الشبكات عن تغطية الحدث على الهواء. ووافقت شبكة (إن. بى. سى) على الاقتراح، وحدث نفس الشئ مع شبكة (إيه. بى. سى) وهكذا حظرت تغطية الحدث الذى بلغت أهميته حدا فاز كتاب نورمان ميللر عنه بجائزة بوليتزر).

ومع التدهور السريع للموقف ينتهى محور (فاريتى) إلى النتيجة التالية:

(... هناك مجموعة معقدة من العوامل تقيد منذ البداية النشاط الإخبارى لشبكات التلفزيون، وقبل أن يفكر أحد من كبار المسؤولين فى ممارسة الاستئساد عليها من خلال خدماتها. فإدارات الشبكات المحافظة بوجه عام والمستهدفة للربح بصفة أساسية لا تتعاطف بأى حال مع أى تغطية زائدة أو مثيرة للجدل، بل إن هناك العديد من المحطات التابعة لتلك الشبكات تتخذ موقفا عدائيا صرفا لأى تغطية تلفزيونية موجهة لإثارة أو خدمة قضية ما. ومع ذلك فقد تم غربلة الصحفيين العاملين بأقسام الأخبار بالشبكات خلال السنوات الماضية، ثم تعالت صيحات الاستياء العام بعد ذلك عندما كشف وقائع مؤتمر شيكاغو الحافلة بالاضطراب والفوضى، زيف الأوهام التى دأبت الشبكات على ترويجها حول أشياء مثل سيادة القانون).

وقد شرح أحد منتجى شبكة (سى. بى. إس) عملية التخويف، والتى تمارس بهدوء شديد فى حديث مع أحد الصحفيين على النحو التالى:

(تتبع الحكومة الحالية أحد أسلوبين من أجل التأثير في الشبكات. أحدهما هو (خطاب التحذير المبكر) ومن أمثلته الخطاب الموجه لفرانك ستانتون من هيرب كلاين. ويتضمن مثل هذا الخطاب ما معناه (علمنا أنكم تعدون لإنتاج برنامج، أو فيلم كذا عن حاملات الطائرات النووية، أو أي موضوع مشابه. ونحن على ثقة أنكم ستراجعون الشخص الفلاني بالبنتاجون للحصول على الحقائق المتعلقة بالموضوع...).

(ويقوم د. ستانتون بإحالة الخطاب إلى ديك جينكز الذي يرسله إلى ديك سالانت، الذي يرسله بدوره إلى نائب الرئيس لشؤون الأخبار، أو البرامج الخاصة، ومنه إلى المنتج المنفذ ثم إلى منتج البرنامج.. ويؤشر كل من هؤلاء المسؤولين على جانب من الورقة بعبارة مثل: (ماالموضوع؟) أو (ما معنى هذا الكلام؟)، ثم يخرج الموضوع من ذهنه دون إبطاء، فقد طلب من مسؤول آخر، على رغم كل شيء، أو يتهم بالموضوع. وبطبيعة الحال فإن الشخص القابع في آخر التسلسل الوظيفي يصاب بحالة من الهلع. فهو الأدنى مرتبة في التسلسل المراتبي للمسؤولية، وهو يعلم علم اليقين أنه لو مضى في تنفيذ الخطة ثم حدث ما لا تحمد عقباه فسوف يتحمل هو وحده كل المصائب، ما دام كل المسؤولين الآخرين أحالوا إليهالاهتمام بالموضوع. وبالتالي فالحل الأمثل هو أن يذهب المسكين إلى فلان الفلاني بالبنتاجون، وأن يغلف موضوعه بلغة بادية الود والنعومة.. أما الأسلوب الآخر فيتمثل في (برقية الساعة الحادية عشرة). ومرة أخرى تذهب البرقية مباشرة إلى ستانتون. وربما تكون البرقية من مسؤول بمجلس الوزراء يحذر فيها من (الخطر الكبير المتمثل في نشر رواية متحيزة) إلا إذا تضمن الموضوع مقابلة مع فلان. والمقصود بهذا النداء الموجه في اللحظة الأخير هو إرباك المسؤولين في إدارة الشبكة بحيث يقررون في النهاية عدم إذاعة الموضوع على الهواء. ولقد عاصرت بنفسي وقائع من هذا النوع) .

والواقع أن أمثلة الخضوع الطوعى للضغوط تفوق الحصر. ومن بين الأمثلة الأكثر سفورا، والتى شهدتها السنوات الأخيرة نذكر القرار الذى اتخذ بحظر ظهور الف نادر فى استعراض الليلة الذى يقدمه جونى كاسون، ومنع إذاعة البرنامج الساخر (ولادة رئيس) فى العديد من المحطات التجارية، وحذف محطة (إن. إى. تى) مقاطع عديدة من قصيدة الشاعر لورنس فيرلينجى، التى سجلها للتلفزيون التعليمى القومى بعنوان (المستبدة)، دون علم أو إذن منه، وأيضا تلك الدعوة الخاصة التى وجهها الرئيس لكبار المسئولين والمحررين فى ٣٨ محطة تلفزيون ومؤسسة صحفية لاطلاعهم على آخر التطورات، والتى لم تشمل صحفيتى نيويورك تايمز والواشنطن بوست، وكلتاهما تصدت لنقد المغامرة الحكومية فى كمبوديا، والسياسة التى اتبعتها فى المسألة الهندية الصينية، وإلغاء الشركة الأمريكة للإذاعة والتلفزيون لبرنامج (ديك كافتى) الذى تظهر فيه أنجيلا ديفيز، بعد اعتقالها، بدعوى أن البرنامج يفتقر إلى (التوازن).

إن الوضع الإعلامى المتدهور على المستوى القومى يتجاوز بكثير مسألة الرقابة الفردية العريضة من جانب البيروقراطيين. فقد تطور التأثير التوجيهى الذى تمارسه السلطة التنفيذية على أجهزة الإعلام- والذى صوره ببراعة جو ماك جينز فى كتابه (بيع الرئيس)، عام ١٩٦٨- حتى أصبح فنا عالى المستوى. فالبيئة الفكرية، على المستوى القومى خاصة، يجرى تلغيمها بصورة بالغة الفعالية. وقد ذكرت النيويورك تايمز، التى اختصتها حكومة نيكسون بالنصيب الأكبر من هجومها، بعض الأساليب المتبعة خلق منظور إعلامى موجه. فتصف الصحيفة الطريقة التى تتبعها الرئاسة لإطلاع كبار المسئولين الصحفيين على آخر التطورات بطريقة تؤدى إلى استبعاد مؤسسات واشنطن الصحيفة الأقل تعاونا، والزيارات الشخصية التى يقوم بها الرئيس لرؤساء تحرير الصحف الأكثر تقبلا لسياسات الحكومة، والبيانات الصحفية التى توزع بموجب اتفاق إجمالى على المستوى القومى، على ١٢٠٠ من كتاب

الافتتاحات ومديرى أقسام الأخبار بمحطات الإذاعة والتلفزيون، وأهم من ذلك كله- وحتى بدأت فى الاختفاء أخيرا- ظاهرة المؤتمرات المخطط لها مسبقا، والمذاعة تلفزيونيا على المستوى القومى. وتلاحظ الصحيفة أن نيكسون (يختار الصحفيين والمراسلين الذين سيوجهون إليه الأسئلة، فالسيد نيكسون، شأنه شأن كل الرؤساء، عنده أسئلة يريد أن يقدم لها إجابات تتكرس من خلال الصحافة. وفضلا عن ذلك فإن بعض الصحفيين، يستعرضون مهارتهم، وقد أدركوا أن الكاميرا مسلطة عليهم، بتوجيه أسئلة مُحرجة).

كذلك تجرى ممارسة العلاقات العامة الرئاسية فى التعامل مع رجال الإعلام. ويتساءل مايك رويكو، أحد كتاب الأعمدة والمقيم فى شيكاغو، ثم يتساءل مرة أخرى عن الغرض من الحديث الذى استغرق خمس دقائق بينه وبين الرئيس عندما جاء عليه الدور خلال استقبال الرئيس لصف المدعوين.

ويكتب الكلمات التالية فى تأمل ما حدث:

(وكان الرئيس هناك، يقدح زناد فكره، ويستخدم الوقت بتمكن أخصائى مبيعات، أو رجل علاقات عامة. وبعد المصافحة بالأيدى وتبادل عبارات المزاح، كان كل منا يغادر المكان وهو مستغرق فى تفكير أكثر جدية فى سياسته الخارجية.. وذلك ما أعنيه بقولى بأنها طريقة غريبة حقا فى إدارة شؤون البلاد.. لقد كان عليه، فى تصورى، أن ينسى هموم البيع وأن يكتفى بإثبات أن المنتج يؤدى الغرض).

وهناك، فضلا عمّا سبق، الحدث المعد بصورة مسرحية، وهى وسيلة مهمة يجرى إستخدامها الآن للفت أنظار الأمة (وتنظيم) وعيها. ومع أن نيكسون ليس أول رئيس يتبنى استخدام هذا الأسلوب، إلا أنه استفاد منه إلى أقصى درجة فى مناسبات عديدة. وأوضح مثل على ذلك الأسلوب الذى عاد به من الصين فى بداية ١٩٧٢، فأثناء رحلة العودة إلى الوطن ظلت طائرته رابضة لساعات عديدة نيوفاوند لاند حتى يتزامن صوله إلى الولايات المتحدة مع ساعات الذروة فى مشاهدة التلفزيون. وقد تكرر استخدام هذا

التكتيك على نطاق أضخم بكثير عند عودة الرئيس من موسكو فى مايو ١٩٧٢, فالمرحلة النهائية من رحلة العودة استخدمت فيها طائرة هيلوكوبتر من مطار واشنطن إلى عتبة مبنى الكونجرس. وهناك، وأمام أنظار الجمهور غير المرئى من مشاهدى الوقت الممتاز فى التلفزيون هبط الرئيس ومرافقوه سلم الطائرة، وصعدوا درجات سلم مبنى الكونجرس ليدخلوه دخول المنتصرين قبل الجلسة المشتركة لمجلس الكرنجرس، والتى عقدت خصيصا لتمثيل خلفية الاحتفال الشعبى بالرئيس.

وعلاوة على ذلك فإن الاعداد الذى تم لانعقاد المؤتمر القومى للجمهوريين بميامى، فى أغسطس عام ١٩٧٢، كان حدثا مسرحيا أكثر منه تجربة أو اختبار له أهميته فى عملية اختبار ديمقراطية. ويعلق أحد الصحفيين على ذلك بقوله:

(إن كل ما جرى خلال الأيام الثلاثة التى استغرقها برنامج المؤتمر- حتى صلوات الافتتاح والختام- كان ينبغى الموافقة عليه أولا ثم إدراجه فى السيناريو المعد. وقد تطرق السيناريو لكل كبيرة وصغيرة حتى أنه تضمن تعليمات مكتوبة للمتحدثين، فقد كان على الممثل جون واين، على سبيل المثال، أن يرد على هتافات الجمهور (كما تضمن تعليمات أخرى إلى نجم الكرة المتقاعد بارت ستار بأن يومئ برأسه (محييا) الطلاب الذين يرفعون علم الحزب.. وقد استغرقت عملية إعداد السيناريو المنفصل فترة تزيد على شهرين ونصف شهر).

والواقع أن الحدث المعد إعدادا مسرحيا ليس قاصرا على اهتمام الزعماء السياسيين للأمة، فهو أسلوب شاع استخدامه فى مختلف أرجاء البلاد. وقد حظيت باهتمام أكبر تلك المحاولات القليله نسبيا التى استخدمته فيها الحركة الشبابية. ومع ذلك فإن مثل تلك الجهود تعتمد كلية على مدى استعداد المشرفين على أجهزة الإعلام لمسايرتها. وهم يفعلون ذلك فى بعض الأحيان، ويرفضون فى أغلب الأحيان. على أن عدم ضمان الوصول إلى أجهزة الإعلام لا يمثل مشكلة بالنسبة للقوى ذات المواقع الراسخة فى النظام

الاجتماعى. فإذا امتلك الرعاة الماليين لحدث ما أوراق اعتماد مصدق على مشروعيتها. فإن الذيوع واسع النطاق يصبح مضمونا فى الأحوال المعتادة. فالجمهور الغفير من مشاهدى التلفزيون الذين يتابعون مباريات كرة القدم للمحترفين، على سلبيل المثال، يوفر فرصة أسبوعية، طوال موسم المباريات الممتد لشهور عديدة، لجرعات ضخمة من النزعة القومية والنزعة العسكرية. ذلك أن كل أنواع التوجهات (أو الرسائل) الإيجابية يتم ترسيخها بعناية خلال الفترات (الترفيهية) التى تفصل بين شوطى المبارة. وفى أغلب الحالات فإن الجهات الممولة لتلك الفترات لا يذكر اسمها، إن لم تكن مجهولة أصلا. وفى حالتين اثنتين- وهما: تكريم أسرى الحرب الأمريكيين فى مبارة لكرة القدم بين الجيش والبحرية أقيمت فى خريف عام ١٩٧٠، واختيار أحد الأسرى الهاربين لرمى أول كرة فى بداية الافتتاحية لموسم البيسبول للمحترفين عام ١٩٧١- اتضح أن أمور العلاقات العامة تم تنظيمها من جانب حكومة نيكسون.

ويمثل استطلاع الرأى أداة أخرى واسعة الانتشار من أدوات التأثير المتطور فى الرأى العام. ويجرى استخدام استطلاعات الرأى بصورة متزايدة من أجل خلق المناخ الذى يبتغيه المسؤولون عن الإعلام على أعلى مستوى. وفى أغلب الحالات يحيط الغموض بمصدر الاستطلاعات والجهات الداعمة لها، رغم استخدام أبرز الأسماء العاملة فى حقل استطلاع الرأى العام. ومع إن أحداً لا يستطيع أن يقدر الحجم الحقيقى لتعامل الحكومة مع شركات استطلاع الرأى المستقلة لخدمة أغراضها الخاصة، فإن الفقرة التالية من أحد الأفلام التى أنتجتها وكالة الإستعلامات الأمريكية تحت عنوان (الأغلبية الصامتة)، تنطوى على دلالة خاصة فيما يتعلق بالروابط القائمة فى الوقت الحاضر.

(المراسل: طوال السنوات الثلاثة والثلاثين الأخيرة كان المعهد الأمريكى للرأى العام موضع الاحترام والتقدير بوصفه خير معبر عن الآراء فى أمريكا، وكان المعهد- المعروف باسم معهد جالوب لاستطلاع الرأى- سباقا فى مجال اكتشاف تقنيات اختيار عينات الرأى العام، كما نقح وصقل مناهج البحث

التى يجرى إستخدامها فى كل أنحاء هذه البلاد وفى جميع منظمات أبحاث الرأى فى أنحاء العالم المختلفة.. وجورج جالوب هو رئيس منظمة جالوب لاستطلاع الرأى. واليوم نريد أن نوجه إليه سؤالا حول أحد استطلاعات الرأى الأخيرة التى أجراها.. فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٦٩ تحدث الرئيس نيكسون إلى الشعب الأمريكى حول سياسته فيما يتعلق بفيتنام. وقد ذكر فى حديثه أن هناك (أغلبية صامتة) فى أمريكا يشعر هو بأنها تؤيد موقفه. فما الذى فعلته منظمتك بعد هذا الحديث؟)

(مستر جالوب : حسنا، لقد كلفنا، بعد انتهاء الحديث مباشرة، مجموعة مدربة جيدا على إجراء المقابلات باستخدام التليفون، بالاتصال بخمسمائة شخص فى أنحاء البلاد، ووصلتنا النتائج فى نفس الليلة بطبيعة الحال، ثم جمعنا النتائج وصنفناها فى اليوم التالى، وأبرقنا بها إلى صحفنا فى تمام الواحدة مساء يوم الثلاثاء).

إن الارتباط الوثيق لمعهد جالوب بالتوجه الرئاسى، والتوزيع الرسمى (السريع) على مستوى العالم الخارجى، الذى قامت به وكالة الاستعلامات الأمريكية لنتائج الاستطلاع ولتعليقات جالوب، كل ذلك يبين مدى العلاقة التى تثير شكوكا قوية حول استقلال عملية إنتاج المعلومات واستطلاع الرأى.

وعلى المستوى الداخلى، تعد الروابط القائمة بين السلطات الحكومية وشركات استطلاع الرأى منطقة مجهولة تماما، ومع ذلك فإن دورها الملموس فى عملية التأثير فى الرأى العام هو أمر لا ينطوى على أى مبالغة.

فحتى فى الحالات التى لاتستخدم فيها استطلاعات الرأى من أجل التوجيه المتعمد للعقول، فمن الوارد تماما مع ذلك أن تنطوى على التأثير نفسه. ويذكر جوزيف كلابر مدير قسم البحوث الاجتماعية بشبكة كولومبيا للإذاعة والتلفزيون، أن:

(.... هناك منطقة أخرى يمارس فيها الاتصال الجماهيرى تأثيرا بالغ الفعالية، وتتمثل فى خلق رأى عام فيما يتعلق بالقضايا الجديدة، وأعنى

بالقضايا الجديدة تلك القضايا التى لا يملك الفرد حولها رأيا محددا، والتى لا يملك إزاءها رأيا محددا أيضا أصدقاؤه، أو زملاؤه فى العمل، أو الأسرة إلخ.. والسبب الذى يؤدى لفعالية الاتصال الجماهيرى فى خلق مناخ من الرأى فيما يتعلق بالقضايا الجديدة واضح تماما: فالفرد لا يملك ميلا مسبقا يدافع عنه، وبالتالى فإن الاتصال يهاجم، لو جاز التعبير، تربة غير محصنة. وما أن يتم تخليق رأى ما، حتى يصبح بمنزلة الرأى الجديد الذى يسهل بعد ذلك تعزيزه زومن ثم يصعب تغييره. وفضلا عن ذلك فإن عملية تخليق الرأى هذه تكون فعالة أكثر فى حالة الشخص الذى لا يملك أى مصدر آخر للمعلومات حول الموضوع، يمكن إستخدامه كمحك للاختبار وبالتالى فإنه يعتمد اعتمادا كليا، أكثر من غيره، على ما يقدم له من معلومات حول الموضوع المثار).

(وتخليق الأسئلة التى تمثل بذاتها أحكاما قيمة، أو منظورات منحازة، إطارا موقفياً يحصر المُجيب على الاستطلاع داخله من خلال مشاركته نفسه فى عملية الاستفتاء. والأهم من ذلك أن الأثر المترتب على إجراء الاستطلاع يتجاوز بكثير المشاركين فى الإجابة على أسئلته. فالأمة بأسرها تخضع للتأثير عند نشر، أو إذاعة استطلاع الرأى).

ويتوصل كتاب آخر إلى نفس النتيجة، حيث يلاحظ أن:

(علينا أن ندرك أن الأفضليات الواردة فى استطلاعات الرأى من خلال عينات مختارة، سواء كانت، الكترونية أو غير إلكترونية، تختلف اختلافا كبيرا من حيث طبيعتها عن تلك التى تقدم اختيارا عندما يتطوع المواطنون بالمشاركة. والواقع أن الآراء التى يعبر عنها فى استطلاعات الرأى تمثل عادة لاستجابات سطحية لمشكلات أو قضايا لم تكن فى يوم من الأيام موضع اهتمام جاد من جانب المجيب على الأسئلة. وغالبا ما تكون القضية غير واضحة بالنسبة له بالدرجة الكافية، كما أن الرأى الذى يدلى به غالبا ما يكون مبنيا على قدر محدود أو شبه منعدم من المعلومات).

من هنا فإن عملية الاستطلاع السل.. تستطيع أن تلعب دورا مهما فى خلق الرأى، ليس فقط بالنسبة للمشاركين المباشرين بل، وهو الأكثر أهمية، بالنسبة للملايين الذين يتعلمون من استطلاعات الرأى، ما هو الرأى الذى يفترض أن تبديه الأمة تجاه تلك المسائل المطروحة فى الأسئلة.

وفضلا عن ذلك فإن المحيط الإعلامى الداخلى الخاضع للإشراف والتوجيه نظيره الدولى المتمثل فى الأنشطة الإعلامية المتوسعة للوكالات الحكومية وخاصة وكالة الاستعلامات الأمريكية. على أن من الأهمية بمكان أن نتذكر أن السيطرة على العقول (أو توجيه) العقول يبدأ داخل الوطن، وأن جمهور الناس فى الولايات المتحدة هو (المستفيد/ الضحية) الأول (والأولى) للإعلام الموجه.

ويتجلى المؤشر الأكثر شيوعا على مثل تلك الممارسات فى تهيئة الجمهور للتدخلات العسكرية الخارجية، أو المنعطفات الجدية فى السياسات الخارجية مثل صياغة مبدأ ترومان عام ١٩٤٧، والتدخل العسكرى فى فيتنام فى منتصف الستينات.

ويقدم ريتشارد فريلاند تفسيرا (منقحا) لأصول المكارثية. فهو يرجعها إلى بعض المناهج التى استخدمها الرئيس ترومان ومستشاروه المقربون خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة. ويستشهد فريلاند بمذكرة من ويل كلايتون مساعد وزير الخارجية، مؤرخة فى الخامس من مايو ١٩٤٧، تقترح أن يخصص الكونغرس خمسة بلايين دولارا للمساعدات الخارجية. وقد كتب كلايتون يقول: (لن تتمكن الولايات المتحدة من ممارسة دورها فى قيادة العالم بصورة فعالة إلا إذا دفع الشعب الأمريكى إلى القيام بذلك بفعل صدمة). ومن يوصى (بفضح الخطر الشيوعى بوصفه الوسيلة الملائمة لتحقيق ذلك).

ويورد هوارد سميث، المعلق السياسى، رواية مشابهة حول إحدى جلسات الكونجرس:

(مستر سميث: اقترح السيناتور فاندنبرج على الرئيس ترومان إذا كان ينوى بالفعل اتخاذ تلك الخطوة العنيفة، والممثلة فى تورط أمريكا فى الدفاع عن اليونان وتركيا ما يلى: إذا كان ذلك هو ما تريد أن تفعله. يا سيادة الرئيس، فمن الأفضل أن تذهب إلى الكونجرس وتبث الرعب فى قلب الشعب الأمريكى، وقد فعلها ترومان. وبث الرعب فى قلب الكونجرس أيضا.

مستر سميث: فى يوليو ١٩٦٥، عندما اتخذ القرار بالتدخل العسكرى فى فيتنام، جرت مناقشات مفصلة فى اجتماعات مجلس الوزراء، وفى اجتماعات مجلس الأمن القومى، وفى اجتماعات أخرى أضيق نطاقا، حول ما إذا كان ملائما أم غير ملائم استخدام أسلوب بث الرعب فى قلب الشعب الأمريكى، وأخيرا تقرر بعد تقليب الأمور على الجميع وجوهه عدم اللجوء إلى هذا الأسلوب).

إن الحقيقة المركزية والسابقة على أى حقيقة أخرى، أيا كانت الوجهة التى يتجه إليها صناع القرار فى أى موقف معين، هى أن السيطرة على الإعلام قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من السياسة القومية. ولقد أصبحت أساليب تعليب التصورات والأفكار أدوات يجرى إستخدامها للتأثير فى الرأى العام من أجل كفالة التأييد الشعبى (أو على الأقل اللامبالاة الشعبية) لتصرفات الحكومة.

وربما ساعد ذلك على تفسير ذلك الوضع المتناقض ظاهريا والمتمثل فى أنه لا توجد أمة أخرى فى هذا العالم(ربما باستثناء بعض بلدان أوربا الغربية) تبلغ المستويات الضخمة التى بلغها الإعلام فى أمريكا، إذا ما قيس بالعدد المملوك والمستخدم من أجهزة الراديو والتلفزيون فى كل أمة، ومع ذلك، وعلى حد قول السيناتور ستيورات سيمنجتون، فإن (حظ الجمهور العام فى هذه البلاد من المعرفة أقل من معظم الناس فى بقية بلدان العالم).

والواقع أنه لا يمكن التأكيد بصورة حاسمة على أن هناك ما يمكن اعتباره اتجاها جديدا فى الأنشطة الإعلامية الداخلية. ويشير محرر (ساتر

داى ريفيو) لشؤون الاتصال إلى (عصر احتكار الأنباء المقبل فى الأفق) ثم يضيف: (إننا نشعر بأنه ينبغى علينا، على أقل تقدير، أن نرفع رايات التحذير قبل أن يبتلع إعصار الفاشية، والاحتكار، وحكم الفرد، وتكميم الصحافة ديموقراطيتنا). ففى الوقت الحاضر تدفع أجهزة الإعلام وما يتبعها من خدمات معرفية (و تتحرك بمحض اختيارها أيضا) وبعد ما أن اتسمت فى الماضى بالطابع التجارى الصرف، متخذة موقف التأييد المبنى على اعتبارات عملية لنظام الاجتماعى- الصناعى بوصفه النتيجة الطبيعية المترتبة على أنشطتها، تدفع إلى مسار توجيهى مباشر. لقد أدى نمو قوة العمل الضخمة فى صناعة المعرفة بمديرى أجهزة الإعلام فى البلاد إلى أن يروا ضرورة التوسع الدائم للسيطرة على المحيطين الإعلامى والثقافى. وفى الوقت ذاته تؤدى القضايا الاجتماعية والسياسية المتفجرة بصورة متزايدة إلى خلق مناخ يومى من التأزم. وإذا كانت وسائل الإعلام تعكس هذا الواقع بأسلوب ينحو إلى التعتيم، فإن انفعيالات الناس تزداد احتداما مما يؤدى إلى لجوء القيمين على الوضع الراهن، بما فى ذلك الرئيس نفسه، إلى العنف والتخويف. والمساعى التى بذلت لحظر نشر أوراق البنتاجون هى خير مثال على هذا الاتجاه.

ونتيجة لذلك فإن جهودا مخططة تبذل على نحو موصول، داخل الدوائر الحكومية ذات النفوذ، لتجاوز التوجيه الإعلامى إلى التقييد، وفرض الرقابة، وتحذير قنوات الاتصال الأوسع انتشارا. ولقد اقترح كلاى هوايتهد، مدير مكتب سياسات وسائل الاتصال و(إمبراطور البث الإذاعى والتلفزيونى بالبيت الأبيض)، فور إعادة انتخاب الرئيس نكسون، أن يقوم مالكو المحطات المحلية، المشهورون بمرافقهم المحافظ بمراقبة النشرات، والبرامج الأخبارية، والأفلام التسجيلية، منها، على حد تعبير هوايتهيد الفضفاض، على (ترويج أيديولوجى).

وقد وصف فريد فريندلى، الذى تولى فى وقت سابق رئاسة قسم الأخبار بشبكة (سى. بى. إس)، هذا الاقتراح بأنه (أخطر شئ يمكن حدوثه طوال السنوات الخمسين من البث التلفزيونى). وكتبت النيويورك تايمز فى إحدى

افتتاحياتها أن (رسالة البيت الأبيض إلى مالكى المحطات- التجارية والعامة والتعليمية- تزداد إلحاحا ووضوحا بمرور الأيام. والرسالة سافرة: ابتعدوا تماما عن أى موضوع مثير للجدل.. إن أصوات الكونغرس والجمهور لن تسمنع إلا إذا نأت المحطات والشبكات بنفسها عن أن تصبح نسخة أخرى من وكالة الاستعلامات القومية للحكومة الأمريكية) .

ومما ينذر بمواقف أكثر خطورة ما ذكرته النيويورك تايمز فى خريف عام ١٩٧٠، وكأمر واقع تقريبا، من أن الرئيس قد عين بالفعل (الرقيب العام للبلاد، فهناك شخص لم يسبق له تولى أى عمل عام ينتظر الآن وضع الاستعداد للقيام بمهام المنصب فى حالة الطوارئ). فالخطة (غير المعلنة) والتى أعدت منذ عدة سنوات، على حد قول النيويورك تايمز، تتيح للرئيس أن يصدر قرارا بإعلان حالة الطوارئ على المستوى القومى دون الرجوع إلى الكونجرس، وأن يفرض الرقابة على الصحف.

ورغم أن الرقيب العام لم يصدر قرارا بتعينه حتى الآن، فإن كل التدابير التى تحكم عملية فرض الرقابة فى زمن الحرب- وهو ما يسمى فى الوقت الحاضر (الأمن الإعلامى فى زمن الحرب- فى حالة الطوارئ القومية المبهمة المعالم، قد تم إعدادها.

ولقد حذر النائب وليام مورهيد. رئيس لجنة الكونجرس الفرعية حول السياسات والممارسات الإعلامية لحكومة الولايات المتحدة، من اتجاه، وإيقاع هذه الأنشة للسلطة التنفيذية. ففى أكتوبر ١٩٧٢ أدلى بما يلى الكونجرس:

(... خلال مراجعتى لشهادة مكتب الاستعداد للطوارئ، والتى أدلى بها الشاهد بعد حلف اليمن، والتى كانت تعنى ضمنا أن خطتهم المتعلقة بفرض الرقابة، وجمع المعلومات لن تدخل حيز التطبيق الفعلى إلا فى حالة وقوع هجوم نووى على الولايات المتحدة، اكتشفت أنهم قد أعدوا أيضا لفرض الرقابة فى الولايات المتحدة عند تورطنا فى نزاع خارجى مثل حرب فيتنام. فالفقرة الأولى من الفصل الرابع من خطة الرقابة تشرح الأحوال الاستثنائية

التى ينبغى العمل فى ظلها بنظام الرقابة:

(إن الحالات الاستثنائية التى يتعين وضعها فى الاعتبار فى أى تخطيط للطوارئ داخل الحكومة الفيدرالية هى عديدة ومتنوعة. ومن الضرورى فيما يتعلق بالإعداد للرقابة على المستوى القومى أن نأخذ بعين الاعتبار فقط تلك الحالات الاستثنائية، أو الظروف التى تتطلب فيها دواعى الأمن القومى مثل تلك الرقابة، وهى تتمثل بوجه عام فيما يلى:

أ: الحرب الشاملة.

ب: الحرب المحدودة، أو النزاعات محدودة النطاق والقاصرة على مناطق بعينها، والتى تشارك فيها الولايات المتحدة فى أى مكان فى العالم سواء فى البر أو البحر أو الجو).

(أى أن الخطة الرسمية للحكومة تسمح بالرقابة ليس فقط فى حالة الحرب الشاملة والنووية بل أيضا فى حالة أى نزاع محدود يرغب الرئيس أن يورطنا فيه فى أى مكان فى العالم. ويبدو أن بعض تفاصيل هذه الخطة الرقابية قد وضعها ضابط الأمن السياسى الذى ألقى القبض عليه متلبسا بالتجسس على الأنشطة الداخلية للحزب الديمقراطى لحساب الحزب الجمهورى).

على أن الوقت ما زال مبكرا للحكم على مدى نجاح تلك الجهود متسارعة النمو، فهناك قوى مناوئة تعمل أيضا فى الساحة. فالقنوات البديلة، والمتسمة بطابع التركيز شأنها شأن المصادر الرئيسية للإعلام، موجودة بالفعل، رغم أنها أضعف بكثير وجمهور أنصارها ومؤيديها محدود للغاية من السكان- الشباب خريجى الجامعة، ثم فى الأغلب الأعم، ميسورى الحال. وبالتالى فإن الانقسام داخل مجتمع الأمة يزداد عمقا على المستوى الإعلامى، مثلما يتفاقم أيضا على المستوى (الأجيالى) والمهنى، والعنصرى، والسياسى.

المـــراجـــع

١- أمريكا طليعة الأنحطاط

٢- حفاروا القبور (روجيه جارودى)

٣- المتلاعبون بالعقول (هربرت أ شيللر)

ترجمة: عبد السلام رضوان.

٤- تفكيك أمريكا (رضا هلال)

٥- التقرير الرئيسى عن الفرقان أ/مصطفى بكرى

(جريدة الأسبوع)

الفهرس